الدين والثورة في مصر ١٩٥٢ - ١٩٨١

٧- اليمين واليسار في الفكر الديني

دكتور حسن حنفي

الناشر
مكتبة مدبولي

اليمين و اليسار فى الفكر الدينى

ليس اليمين واليسار مقولتين فى السياسة وحدها بل هما موقفان فى المعرفة الانسانية والعلوم الاجتماعية بوجه عام ، وفى المواقف العملية والحياة اليومية بوجه خاص . ومهمتنا هنا بيان اليمين واليسار فى الفكر الدينى فى تراثنا القديم وفى وجداننا المعاصر ، كما ورثناه فى علم أصول الدين أو فى علم التوحيد أو فى علم الكلام أى التسميات نشاء .

(*) الطليعة ، اكتوبر ١٩٧٦ . وقد صدرت الطليعة المقال بالآتى :

فى هذا المقال يقدم الدكتور حسن حنفى دراسة عن اليمين واليسار فى الفكر الدينى ، فى التراث القديم وفى الوجدان المعاصر . وهو فى دراسته هذه يعتمد على واقع حياتنا المباشر وتراثنا الحى ، ويستوحى تجاربنا الشعورية المشتركة ونظمنا الاجتماعية القائمة .

والدكتور حسن حنفى ، هو استاذ الفلسفة المساعد بآداب القاهرة ، وحاصل على دكتوراه الدولة فى الفلسفة من السربون عام ١٩٦٦ . وله مؤلفات عديدة بالفرنسية والعربية من بينها « تفسير الفينومينولوجيا » وهو محاولة لدراسة المنهج الفينومينولوجى وتطبيقاته فى ظاهرة التفسير ، « نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط » . كما قام بنشر وتحقيق كتاب « المعتمد فى أصول الفقه لابى الحسن البصرى » وله تحت الطبع « التراث والتجديد » ، محاولة لاعادة بناء علم أصول الدين .

ويهتم الدكتور حسن حنفى فى كتاباته المعاصرة باعادة تفسير التراث القديم من اجل حل القضايا الاساسية للعصر وفى مقدمتها قضايا الاحتلال والتخلف واعادة تفسير الدين بما يحقق مطالب العصر من ثورة وتحرر وتنمية .

ولن نعتمد فى هذه الدراسة على التحليلات الاحصائية ، فهـذا مجال الدراسات الاجتماعية المتخصصة والرسائل الجامعية ، ولكننا سنعتمد على تحليل التجارب الحية ، ووصف الخبرات الشعورية المشتركة التى يشعر الجميع بها ، والتى تحتـاج فقط الى نوع من الاستبطان والاستبصار •

ونحن لن ندخل هنا فى معركة البناء الفوقى والبنـاء التحتى ، أيهما علة وأيهما معلولا ، فهذه معركة بالية أكاديمية صرفة ، ولكننـا سنحاول وصف الظواهر الفكرية كما هى التى تحتوى على عـلاقة جدلية ، فبقدر ما تكون الافكار تعبيرا عن واقع بقدر ما يكون الواقع أيضا موجها بالافكار • ولكن التجربة الحية هى مادة التحليل ، اذ لا يوجد البناء الفوقى والبنـاء التحتى وحدهما فى علاقة آلية صاعدة أم هابطة بل هناك البنـاء الشعورى الذى تقوم فيه هذه العلاقة الجدلية ، وحيث تلتقى الحركتان الصاعدة والهابطة فى بؤرة الشعور حيث يتحدد بناء الظاهرة الانسانية • ولما كانت الابنية الشعورية باصطلاح تقليدى أبنية فوقية فنحن أقرب الى النظرة المثالية التى تفسر الظواهر الانسانية بالابنية الفوقية ، وفى حالتنا هذه هو الفكر الدينى ، دون الوقوع فى علاقة علية حتمية آلية بل عن طريق وصف التجارب الحية التى تمحى فيها التفرقة التقليدية بين العلة والمعلول ، وبين السبب والمسبب ، والتى تمحى فيهـا أيضا التفرقة الشائعة بين الذات والموضوع • فالتحليل الوصفى هو ما نقوم بـه وليس التحليل العلى ، وكلاهما علم على حد سواء •

ولن نشير فى وصفنا هذا الى واقع مختلف عن واقعنا مثل الواقع الاوربى الذى تستقى منه عادة مادة التحليلات بل أبدأ من واقعنـا

المباشر ، ومن تراثنا الحى ، ومن تجاربنا الشعورية المشتركة ، ومن نظمنا الاجتماعية القائمة .

وكلها محاولات قد تخطىء وتصيب ، بل قد تخطىء أكثر مما تصيب ، ولكننا نعرضها قضية للمناقشة حتى نفسح المجال لمفكرينا ومثقفينا للتساؤلات حول ارتباط الفكر الدينى بالواقع الاجتماعى والاثر المتبادل بينهما حتى لا نظن أن الفكر الدينى شىء مقدس بل هو نتاج انسانى مثل الايديولوجيات التى تنبع من واقع اجتماعى ثم تعود لتؤثر فيه من جديد .

واليمين واليسار ليسا موقفين فكريين متمايزين بل هما أيضا اتجاهان فى التفسير ، فاليسار فى الفكر قد يستغله اليمين لصالحه ، واليمين فى الفكر قد يعيد تفسيره اليسار لصالحه أيضا . فاليمين واليسار موقفان فكريان متمايزان من الاساس ، وأيضا منهجان فى التفسير .

وفى نهاية الامر ، ان اليمين واليسار فى الفكر الدينى أساسا هما وضعان اجتماعيان يدلان على وجود طبقتين اجتماعيتين ، تحاول كل طبقة أن تدافع عن حقوقها بالابنية النظرية المتاحة فى المجتمعات التقليدية وهى العقائد الدينية ، فهى قضية عملية وليست قضية نظرية ، وبناء اجتماعى أكثر منها حقيقة فكرية . تحاول احدى الطبقتين ، وهى الاقلية المسيطرة التى تملك وسائل الانتاج والسيطرة على الحكم ، استغلال الطبقة الاخرى ، وهى الاغلبية ، لصالحها ، عن طريق الفكر الدينى أى تفسيرها للدين لصالحها . كما تحاول الطبقة الاخرى ، وهى الاغلبية المستغلة ، اعادة تفسير الدين لصالحها للقضاء على الاقلية المسيطرة بنفس السلاح . فالدين سلاح ذو حدين

طبقا لاستعماله . وهذا هو معنى العبارة المشهورة « الدين أفيون الشعب وصرخة المضطهدين » .

يدور علم أصول الدين الذى يحتوى على نموذج للفكر الدينى حول مقدمتين وموضوعات ثمان يضاف اليها موضوع أو موضوعان كخاتمة ، ومن ثم تكون الموضوعات اثنى عشر يتجاذبها اليمين واليسار على النحو الآتى :

١ — تبدأ المقدمة الاولى بعرض نظرية العلم أو كما يقال نظرية المعرفة اجابة على سؤال : ماذا أعرف ؟ ويتضح موقفان : الاول يجعل الايمان وسيلة للمعرفة ، والايمان فعل أولى لا يسبقه فعل آخر ، يقبل ولا يرفض ، يسلم ولا يعترض ، يأخذ ولا يعطى . ثم يأتى دور النظر فى تبرير الايمان وفهمه دون نقده أو تمحيصه .

وهذا هو موقف اليمين ، فالتسليم يؤدى الى الطاعة والرضا بما يعطى للشعب من حقائق عليه قبولها . فالفرد الذى يبدأ بالايمان كنظرية للمعرفة يكون أقرب الى الطاعة للامراء ، والى الانقياد للحكام . والشعب الذى يبدأ بالتسليم بالحقائق دون مناقشتها يكون أقرب الى الاستكانة . ومن ثم ، تعمل النظم اليمينية على نشر الايمان بهذا الهدف لانه يؤدى لها ما تبغى من الابقاء على الوضع القائم ، والتسليم به ، والاستكانة تحته ، والرضوخ له . ولذلك لا تعتنى هذه النظم بمحو الامية أو بنشر التعليم بل يكون همها بناء المساجد ، والاكثار من الموالد ، وتدعيم الطرق الصوفية ، والاكثار من الدعوات والابتهالات ، وترديد التواشيح ، وانتشار المدائح ، وتعميم البرامج الدينية فى أجهزة الاعلام لا عن ايمان بالدين ولكن عن نفاق وتغطية وتعمية وتستر على النظم الاجتماعية القائمة .

وفى مقابل ذلك ، هناك اتجاه آخر يجعل نظرية العلم تبدأ لا بفعل الايمان بل بفعل النظر ، فالنظر هو أول الواجبات الدينية قبل الايمان من حيث هو تسليم ، وقبل الايمان من حيث هو مضمون : الله ، الملائكة ، الكتب ، الرسل ، اليوم الآخر .. الخ ، وقبل الايمان من حيث هو ممارسة للشعائر والطقوس . فالنظر سابق على الايمان ، والفكر سابق على التسليم . فبالنظر يستطيع الانسان أن يميز بين الحسن والقبيح ، وبالفكر يستطيع الناس معرفة من يعمل لمصلحتهم ومن يعمل لاستغلالهم . فلا يمكن قبول شىء على أنه حق ما لم يثبت بالنظر أنه كذلك ، ولا يمكن التسليم بشىء ان لم نجد البرهان عليه ، وما لا دليل عليه يجب نفيه كما قال المناطقة الاقدمون . بل ان البعض جعل الشـك فى الموروث سابقا على النظر ، وأول الواجبات لتأكيد الجانب الرافض فى الفكر ، وهو الشك ، حتى تتكسر حدة الموروث ، وتذهب سلطة التقليد . ومن ثم يتم رفض كل وسائل المعرفة ومصادرها الظنية وهى مضادات المعرفة مثل الجهل ، والتقليد ، والظن ، والالهام ، ولا يقبل الا النظر بجميع طرقه مثل القياس والاستدلال والبرهان .

وهذا هو موقف اليسار الدينى ، فالنظم التقدمية هى التى تعمل على محو الامية ، وعلى نشر التعليم ، وعلى اقامة الحوار المفتوح بين الاتجاهات الفكرية المختلفة فى البلاد . ولا تتدخل فى حـرية الرأى ، فحرية التعبير حق يكفله الدستور ، وتمارسه المؤسسات الديمقراطية بالفعل .

وقد يستغل اليمين هذا الموقف اليسارى لصالحه الخاص وذلك باقامة نظم سياسية على النظر ، وهى النظم الليبرالية . ولكن النظر

لا يكون الا أساس الترشيد ، والترشيد أساس التصنيع ولا يخرج كى يصبح دعامة الحياة كلها ، فليس من مصلحة هذه النظم اشاعة النظر عند الطبقات الكادحة كى لا تعرف حقوقها ، بل يظل قاصرا على طبقة واحدة هى الاقلية المستغلة صاحبة رأس المال ، وصاحبة اصـدار القرارات السياسية أو المؤثرة عليها • وقـد يستعمل النظر لصالح شعب دون شعب ، ففى الوقت الذى يقيم فيه الغرب دعائم نهضته الفكرية والعلمية فانه يقضى على روح الشعوب غير الاوربية ، ويقضى على مدارسها ونظم تعليمها وتراثها الفكرى ، ويشيع فيها الجهل أو التبعية لثقافة الغرب فيما يسمى بالاستعمار الثقافى • فى حين أن اليسار يجعل من النظر أمرا عاما وشاملا ، لا يخص فردا دون فرد ، أو طبقة دون طبقة ، أو شعبا دون شعب ، فلا يوجد عالم والباقون جاهلون ، ولا يوجد شعب متحضر وباقى الشعوب همجية •

ويمكن لليسار اعادة تفسير دجماطيقية اليمين لصالحه خاصة فى مجتمع تقليدى مازال يفكر بعقائده ، وذلك بتوجيـه العقائدية لصالح الفقراء والمعدمين ، وتجنيد الطبقات الكادحة وتحزيبها حتى اذا ما تحولت الى قوة سياسية ضاغطة ، وطاقة ثورية مغيرة ، أمكن بعـد ذلك تحويلها من الدجماطيقية الى الاستنارة ، ونقلها من الايمان الى النظـر •

٢ — وتحتوى المقدمة الثانية على نظرية الوجـود اجابة على سؤال : ماذا أعرف ؟ وهنا يتضح أيضا موقفان : الاول يريد جعل موضوع المعرفة هو الحادث ، المتغير ، الممكن ، ويقصد بذلك العـالم الذى نعيش فيه حتى يمكن الانتقال بعد ذلك من الحادث الى القديم ،

ومن المتغير الى الثابت ، ومن الممكن الى الواجب . فالعالم هنا محكوم عليه بالفناء من أجل اثبات موجود وراء العالم يكون هو البقاء ، والحكم على العالم بالفناء حكم قاس مدمر لاحساس الناس بالعالم . اذ كيف يعمل الناس فى عالم فان وكيف ينتجون فى واقع لا ثبات له ولا كيان ؟ العالم هنا ليس الا وسيلة لاثبات شيء آخر ، هو الله . فالله هو الباقى ، والعالم هو الفانى ، الله هو الغنى والعالم هو الفقير المحتاج . ويستطيع الغنى أن يفعل بالفقير ما يشاء ، فلا قانون يحفظ للفقير حقوقه الا رحمة الغنى به ، ولا ارادة تقف فى مواجهة الغنى الا فضله وارادته . ومن ثم فلا توجد قوانين ثابتة للطبيعة ، بل يمكن للحجر أن ينقلب ذهبا ، والعصى ثعبانا ، ويعيش الانسان فى عالم يحكمه السحر ، ويدركه بالخرافة ، لا يؤمن به ولا يعيشه بل يجد الانسان نفسه فوقه على نحو عارض ، مصادفة ، وليس له غاية الا البحث عن الباقى وراء العالم .

وهذا هو اليمين فى الفكر الدينى الذى تبشر به النظم اليمينية الرجعية التى يهمها سلب العالم من الجماهير المستغلة ، والايحاء اليها بأنه عالم فان لا قيمة له ، وبأن القيمة كل القيمة فيما وراء هذا العالم ، وبالتالى تتخلى الجماهير عن حقوقها ، ولا تلتفت الى ما هو زائل ، وتعكف على ما هو باق وأبدى تحت سمع وبصر النظم الرجعية التى تستحوذ على العلم ولا تعطى الجماهير الا الظلال .

وفى مقابل ذلك ، هناك اتجاه آخر يجعل هذا العالم باقيا مستقرا ، ويجعل جهد الانسان فيه منتجا ومؤثرا . فالعالم ليس ممكنا بل واجب ، وليس حادثا بل قديم يخضع لقوانين طبيعية مطردة ، يمكن للانسان معرفتها والسيطرة على الطبيعة من خلالها ، واستغلالها لصالحه ،

وتستعصى على كل محاولة للقضاء عليها أو التدخل فى سيرها ، وعليها تتحطم كل الارادات المسيطرة ، وكل القوى القاهرة ، فلا صوت يعلو على صوت الطبيعة ، ولا قانون يطغى على قانونها ، فالعالم ليس وسيلة لشىء آخر بل هو غاية فى ذاته ، وهو ليس فانيا بل باق ، ووجود الانسان فيه ليس عارضا بل جوهرى .

وذلك هو اليسار فى الفكر الدينى ، وذلك لانه فى النظام السياسية القائمة على هذه النظرة يكون العمل منتجا فى العالم ، ويكون لدى الجماهير وعى بالعالم ، وثقة بقوانينه المطردة ، وتحافظ على حقوقها ، وتدافع عن مصالحها ضد كل محاولات السيطرة من الخارج ، وضد كل صور القهر الاجتماعى والسياسى من الداخل ، فالجماهير الكلمة العليا ، ولديها ثقة فى العمل وفيما تخلفه وراءها من آثار ، ويكون الحكم لها . ومن ثم تفرض النظام الديمقراطى الذى يعمل لصالحها ، وتثور ضد أى محاولة لتركيز السلطة التى يدين لها الجميع بالطاعة والولاء .

وقد يستغل اليمين هذا الموقف اليسارى لصالحه عندما يفسر حتمية قوانين الطبيعة واطرادها لصالح النظم التسلطية والرأسمالية ، فتجعل قانون العرض والطلب أو الصلة بين صاحب رأس المال والعمال صلة الرئيس بالمرؤوس ، أو قوانين الربح والاحتكار قوانين طبيعية عليها تقوم الحياة الاقتصادية ، وبالتالى تكون هذه النظم هى النظام الطبيعية التى تفرضها طبيعة الامور . كما قد تستغل بقاء العالم واستمراره وصلابته وتخصصه كميدان لنشاط صاحب رأس المال فقط دون العمال ، ولصالح الطبقة المسيطرة دون الطبقات الكادحة التى يظل العالم بالنسبة لها هشا لا قوام له ، حتى ينشط صاحب رأس

المال ، ويستكين العمال ، وحتى ينشط ملاك الارض وينام الفلاحون والاجراء الزراعيون • ولكن القضاء على خصوصية النظارة ، وتأكيد ثبوت العالم للجميع من شأنه القضاء على استغلال اليمين لموقف اليسار •

كما يمكن لليسار اعادة تفسير موقف اليمين لصالحه وذلك بالاعتماد على لا حتمية قوانين الطبيعة لصالح التوعية الجماهيرية ، فالنظام الرأسمالى ليس نظاما أبديا بل يمكن تغييره ، ونظام الاجور الذى يفرضه صاحب رأس المال ليس نظاما ثابتا بل يمكن تعديله ، وهذا النظام الذى ترى فيه الاقلية المسيطرة أبدع ما أنتجه العقل البشرى يمكن السيطرة عليه وقلبه رأسا على عقب ، وبالتالى تتحرك الجماهير بنفس السلاح الذى أرادت الاقلية المسيطرة على المال والحكم استعماله لتسكين الجماهير وفرض ارادتها عليها كما تشاء •

٣ — وبعد المقدمتين السابقتين يظهر الموضوع الاول ، موضوع الذات الالهية وهو حجر الزاوية فى علم العقائد وأساسه الاول • ويظهر اتجاهان : الاول ، يثبت هذه الذات بأوصاف ست : الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، وعدم وجودها فى محل ، والوحدانية أى أن الذات الالهية موجودة بالفعل وجودا حقيقيا ، وقديمة لا أول لها ، وباقية لا نهاية لها ، ومخالفة للحوادث لا يشبهها شىء ، ولا تشبه شيئا ، وليست فى محل وتوجد فى مكان ، ووحدانية تنفى الشرك والتعدد ومن ثم يتم تأليه الذات واعطاؤها كل ما يستطيع الانسان اعطاءه من أوصاف للوجود المطلق خارج الوجود الانسانى ومستقلا عنه •

وهذا هو موقف اليمين لاننا اذا انتقلنا الى النظم السياسية التى تحقق هذا التصور لوجدنا أنها تعتمد على هذا الاثبات للذات المطلقة من أجل اثبات النظم الاجتماعية التى تتركز كلها فى سلطة واحدة فى القمة ، تتصف بكل صفات الوجود المطلق سواء كان ذلك فى السلطة السياسية المطلقة للزعيم أو فى السيطرة الاقتصادية المطلقة لرأس المال. وبالتالى تكون لدينا نظم تسلطية تقوم على القهر والطغيان وعلى حق الفرد المطلق على حساب الشعب ، أو نظم رأسمالية تقوم على اعطاء حرية الحركة المطلقة لرأس المال على حساب المستهلكين أو على حساب الاستثمارات الصغيرة أو على حساب العمال . وهى النظم التى تجعل القمة فى السياسة أو فى الاقتصاد مصدر النشاط والحركة والقيمة على حساب القاعدة المتلقية السالبة المأمورة . هذا بالاضافة الى أن هذا النوع من الايمان بالوجود المطلق الشامل يعطى الجماهير نوعا من الاستكانة بالارتكان عليه والاعتماد على سلطانه . فاذا ضاع كل شىء فعلى الاقل يبقى شىء هو البقاء ذاته ، واذا عدم كل شىء فعلى الاقل يوجد شىء واحد هو الوجود ذاته ، واذا ضاع الاحساس بالزمان وبالتاريخ ، ولم يدر الانسان متى أتى ، والى أين ينتهى ، وفى أى مرحلة من التاريخ هو يعيش فعلى الاقل هناك الدائم الذى لا أول له ولا نهاية والذى يضم الماضى والحاضر والمستقبل ، واذا استعصى على الانسان أن يجد له مكانا فى العالم ومحلا يحط فيه فعلى الاقل هناك من لا يحتاج الى محل أو مكان ، واذا عجز الانسان عن أن يدرك الامور العينية نظرا للاقنعة التى فوق عينيه فعلى الاقل هناك الادراك الغامض لما لا شبيه له ، وأن عدم الادراك خير من الادراك ! فالموضوع الذى لا يرى خير من الموضوع الذى يرى ، والخالص أشرف من الشائب . واذا فقد الانسان كل شىء فعلى الاقل هناك شىء واحد

لم يفقده هو الوحدانية ذاتها . ومن ثم يكون الانسان مفقودا وهو يظن أنه واجد نفسه ، ويكون ضائعا وهو يظن أنه قد وصل الى بر الامان ، كمن يفقد الحبيب فيحب الحب ذاته حتى يعوض فقده ، ويحول خسارته الى مكسب ، ويحيل ضعفه قوة .

وفى مقابل ذلك ، هناك اتجاه آخر يجعل الانسان هـو الموجود الذى لا يشك فى وجوده أحد ، ولا يقدر على اعدامه شىء ، هو القديم بمعنى انه حقيقة أزلية لا يمكن الشك فيها ، وهو باق بمعنى أنـه يستحيل عليه الفناء ، وهو لا يحتاج الى محل لان الانسان موجود فى كل مكان ، والانسانية لا يحدها زمان أو مكان ، وهو لا يشبه شيئا ولا يشبهه شىء لانه يتجاوز الاشياء ويفارقها ، ومن ثم ، يقضى هذا الاتجاه على كل تشخيص أو تسكين أو تثبيت للذات ، ويعيد للانسان أخص خصائصه وهو الذاتية ، وتتحول حياة الانسان الى حركة ونشاط وجهد ونضال بحياة الذاتية فيه وليس بمفارقتها .

وهذا هو موقف اليسار . فالنظم السياسية التى تتبنى هـذه النظرة تكون نظما انسانية تقوم على الاعتراف بالانسان كقيمة ، لا فرق فى ذلك بين حاكم ومحكوم ، أو رئيس ومرؤوس ، أو غنى وفقير ، أو رجل وامرأة ، فكل انسان له ذاتيته وليس فقط الحاكم أو الرئيس أو المدير ، وغيرهم الدهماء والغوغاء التى يكون لها الخبز الاسود ولغيرها الابيض ، أو التى تحشر فى المركبات العامة ولغيرها العربات الخاصة ، أو التى تقطن فى المساكن الشعبية ولغيرها الفيلات الخاصة .

وقد يحاول اليمين تفسير هذه النزعة الانسانية لصالحه فتنشأ النظم الليبرالية اليمينية التى تؤكد على انسانية فرد واحد دون غيره ،

وتظهر النظم الرأسمالية كوريث شرعى لليمين الليبرالى ، كما تنشأ النظم الغربية العنصرية التى تؤكد على انسانية الغرب دون غيره من الشعوب . ولكن اليسار الدينى يكشف عن هذا التفسير اليمينى لموقفه ويجعل الانسانية عامة لا تخص فردا دون فرد ، أو طبقة دون طبقة ، أو شعبا دون شعب . ويمكن لليسار أن يعيد تفسير ما اعتمد عليه اليمين لاقامة نظم القهر والتسلط خاصة لدى شعب يمر بمرحلة ايمان تقليدى لا يمكنه التخلى عن فكرة الذات الموجودة الازلية الباقية وذلك بتفسير هذا المطلق لصالح الضعفاء ، وتوجيه هذه القوة ضد الاقوياء ، فالله موجود فوق كل الوجود ، بدل أن يستعملها الاقوياء ضد الضعفاء يستعملها الضعفاء ضد الاقوياء ، وهو الاقرب للطبيعة . فالله أكبر فوق كل كبير ، وليس الله أكبر فوق كل صغير ، والله أقوى من كل قوى ، وليس الله أقوى من كل ضعيف ، فالوجود المطلق هنا يكون لاعادة خلق الهدد وجودهم بالفناء ولاعادة وجودهم من عدم .

٤ — والذات الالهية المتصفة بهذه الاوصاف الست الماضية التى تشير الى علاقة الذات بنفسها لها صفات أخرى تشير الى علاقة هذه الذات بالعالم ، وهى الصفات السبع المشهورة التى ورثناها من القدماء : العلم ، والقدرة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والارادة . وهى صفات مطلقة مثل أوصاف الذات ، ومشخصة بمعنى أنها تصف موجودا حيا ذا علم وارادة . ومن ثم تنتزع من الانسان أهم صفاته أعنى العلم والقدرة والحياة ، فالسمع والبصر وسيلتان للعلم ، والكلام للتعبير والايصال والمشاركة فى الحياة ، والارادة لتنفيذ القدرة . فالانسان موجود حى له علم وله ارادة أى أن الحياة لها جانبان : النظر والعمل . ولكن تحويل ذلك الى صنم عقلى ثابت جامد هو نوع من الوثنية اللاشعورية .

وهذا هو موقف اليمين • فالنظم السياسية التى تقوم على هـذا الاساس تعتمد على التأليه ، تأليه الحكام ، وتأليه الرؤساء ، وتأليه القادة ، فالقمة تحتوى على قيمة أكثر مما تحتوى القـاعدة • القمة هى الكمال ، والقاعدة هى النقص • القمة هى الحية العالمة القـادرة دون القاعدة التى تتصف بالحدوث أى الموت والجهل والعجز ، وهى صفات الجماهير ، صم ، بكم ، عمى ! وفى النظم الرأسمالية يتمتـع رأس المال بكل مظاهر الحياة والعلم والقدرة ، فهو رأسمال متحرك نشط يتمدد كالاخطبوط كما هو الحال فى الشركات المتعددة القوميات ، وهو عالم يسمع ويبصر ، ويقوم على الترشيد ، وتوجيه الاسواق ، وتحديد الاسعار •

أما الاتجاه الآخر فيحاول استرداد هذه الصفات التى هى أخص خصائص الانسان • فالانسان هو العالم القادر الحى الذى يسمع ويبصر ويتكلم ويريد ، وبالتالى يتحول الثبات الى حركة ، والتأليه الى تبادل ، والخارج الى الداخل ، والقهر الى تحـرر ، فالانسان لا يؤله الا ما يعجز عن تحقيقه ، ولا يعبد الا ما لا يستطيع أن يناله • اذا كان جاهلا عبد العلم ، واذا كان عاجزا أله القدرة ، واذا كـان ميتا عشق الحياة ، واذا كان أصما أمل السمع ، واذا كان أعمى رجى البصر ، واذا كان أبكما تاق الكلام ، واذا كان عاجزا تمنى الارادة • ولكن اذا تحققت غاية الانسان فى الحياة ، وأصبح عالما ، قادرا ، حيا ، سميعا ، بصيرا ، متكلما ، مريدا فانه يحقق صفاته بالفعل ويعـود الى عالمه بعد أن ظل مغتربا فى عالم آخر ، منفصم الشخصية ، حيث يكون فى عالم الجهل والعجز والموت ويظن أنه بأشواقه قد نال العلم والقدرة والحياة •

وهذا هو موقف اليسار ، ذلك أن النظم التقدمية تحاول أن تعيد بناء الانسان عالما ، حيا ، وتقضى على مظاهر الجهل والعجز ومشارف الموت التى يتردى فيها الانسان كل يوم • فاذا انتشر التعليم تحقق العلم ، واذا قامت المؤسسات التى تجعل الشعب قادرا على ممارسة حقوقه السياسية وعلى توجيه السياسة والتخطيط لصالحه تحققت القدرة ، واذا كان الشعب مستقلا متقدما تحققت له الحياة ، واذا كان هو صاحب الكلمة ، ويسيطر على وسائل اعلامه أصبح سامعا ، بصيرا ، متكلما ، مريدا ، ومحققا لرغباته •

قد يحاول اليمين استغلال الموقف اليسارى لصالحه ، وذلك بتحويل الصفات الى وقائع حية ولكن للاقلية المسيطرة وحدها فهى العالمة القادرة ، الحية التى تسمع ، وتبصر ، وتتكلم ، وتريد • وما سواها يظل جاهلا ، عاجزا ، ميتا ، أصما ، أبكما ، أعمى ، لا يريد شيئا بل يتمنى أن يكون على خلاف ذلك بالوهم أو بالخيال • وتمنى الاقلية الاغلبية ، وتشيد لها المعابد لتأليه عالم التمنى المشخص ، وكلما ازداد التأليه ابتعدت الاغلبية عن المطالبة بحقوقها • وقد تستغل العنصرية الحضارية أيضا هذا الموقف وذلك بجعل الغرب وحده هو العالم ، القادر ، الحى ، وغيره من الشعوب هو الجاهل ، العاجز ، الميت ، ويستحيل للشعوب الاخرى اللحاق بالشعب الاول المختار • ولكن اليسار يعمم هذا التحقيق للجميع لا فرق بين أقلية أو أغلبية ، وينفذ مشاريعه الفعلية وبرامج محو الامية للقضاء على الجهل ، ويقيم الحزب الجماهيرى من أجل الحفاظ على قدرة الجماهير وفاعليتها ، ويحرص على وعى الشعب ، ففى وعيه حياته • وبامكان اليسار الدينى أيضا اعادة تفسير الموقف اليمينى لصالحه وذلك بجعل هذه الصفات المثل الاعلى التي تشد الانسان نحو تحقيقها ، والتى تكون مقاييس

لسلوكه ، ومعيارا لما تحقق منها وما لم يتحقق بالفعل ، وبالتالى تكون هذه المثل الغاية القصوى للانسان وليست تسكينا ، وتثبيتا ، وتأليها ، وارضاء ، وتحذيرا .

٥ — فاذا انتقلنا من الذات والصفات الى الافعال يظهر أيضا موقفان : الاول يجعل أفعال الذات مطلقة وشاملة لا تحدها حدود ، ولا تقف أمامها أفعال أخرى . ومن هنا تنشأ عقيدة القضاء والقدر ، وتثبيت أمر الله التكوينى العام الذى يضم كل شىء ، واثبات أمر الله الذى يخص كل انسان ويكيف حياته . فالانسان جزء من هذا العالم ، يسرى عليه قضاء الله وقدره ، وليس له قدرة مستقلة أو ارادة خاصة ، وبالتالى فهو ليس صاحب قراره أو مصدر تدبيره . والكسب الاشعرى لا ينفصل عن الجبر فى الحقيقة لان شرط الفعل الانسانى الحر هو امكانية يولدها الله فى الانسان ، فالفعل الالهى مازال هو الشارط ، والفعل الانسانى هو المشروط ، ولولا حدوث هذا الفعل الالهى لما تحقق الفعل الانسانى . الفعل الالهى أشبه بمركبة صاعدة الى قمة الجبل ، والفعل الانسانى أشبه براكب دراجة يمسك بالمركبة . وليس هناك أى بقاء للفعل الانسانى فى ذاته ، فالفعل الالهى يضمه أيضا ويحتويه ، فالفعل الالهى سابق على الفعل الانسانى ، ومعه ، وبعده ، والفعل الانسانى ما هو الا تابع لمتبوع . وكل ما يحدث فى أفعال الشعور الداخلية من هداية أو ضلال أو توفيق أو خذلان يحدث بالفعل الالهى . وكل ما يحدث فى الخارج من تحديد للآجال والارزاق والاسعار يحدث بالفعل الالهى وليس نتيجة للاوضاع الاجتماعية . وهذا هو موقف اليمين .

فاذا انتقلنا الى النظم السياسية القرينة لوجدناها أيضا نظما

تؤكد على سلطة الفرد المطلق ، وعلى قدرته الشاملة ، وعلى أولوية فعل الحاكم على المحكوم ، وأن المحكوم بين اصبعين من أصابع الحاكم يقلبه كيف يشاء . فالنظم الدكتاتورية هى التى تروج لافكار القضاء والقدر وهى التى توحى للجماهير بأنهم لا خيرة لهم فى أمرهم الى آخر ما تزخر به أمثلتنا الشعبية وأغانينا اليومية ، وعبارات الآلام والاحزان عندما تحل المصائب ، مطالبين بالصبر والعزى والسلوان .

والموقف الآخر هو الذى يثبت حرية الانسان ، واستقلال ارادته ، وان الانسان خالق أفعاله ، وصاحب قراراته ، وأن فعله أولى غير مشروط ، وان فعله أساسى وليس تابعا ، وهو موقف اليسار . فالنظم السياسية التقدمية تثبت حرية الانسان وقدرته ، وخلقه لافعاله ، وأن للانسان قدرة واستطاعة فعلية سابقة على الفعل فى صورة رؤية وتدبر ، وانتظار وتخطيط ، ومع الفعل فى صورة باعث ونشاط ، وحركة وتحقيق ، وبعد الفعل فى صورة بقاء واستمرار لآثار الفعل الى ما لا نهاية حتى أنه ليصبح سنة يحتذى بها ، وقدوة للاجيال القادمة . كما تؤكد أن الجماهير هى صاحبة القرار ، وتصر على حق تقرير المصير ، وحق التعبير ، وحرية القول والعمل كتطبيقات لحرية الانسان وممارسته لها .

وقد يستغل اليمين حرية الانسان لصالحه الخاص . فالنظم الليبرالية تقوم أساسا على تأكيد حرية الانسان فى شتى مظاهرها ، ولكنها حرية الاقلية ضد الاغلبية ، وحرية ممارسة الجنس ، وارتكاب العنف والجريمة ، والسلوك الفوضوى الشامل ، كما قد تكون اعلانا لحقوق الانسان ، وتأكيدا لحرياته فى الغرب وحده ، أما الشعوب الاخرى فهى غير مؤهلة الا للتبعية والطاعة والتقليد . ولكن الموقف

اليسارى هو الذى يقرن الفعل الحر بالمسئولية ، فتكون أفعال الانسان ملتزمة بقضايا الواقع ، ومحققة لبرامج تطويره . وقد يحاول اليسار تفسير الجبرية أو عقيدة القضاء والقدر لصالحه خاصة فى شعوب مازالت أسيرة التقاليد ، وطائعة للموروث . وذلك باثبات الشجاعة المطلقة ، والتأكيد على الدور البطولى للانسان ، فاذا كان الموت مكتوبا فلم العيش فى الضيم ؟ وهذا ما حاوله الافغانى من قبل من اعادة تفسير عقيدة القضاء والقدر على أنها رفض للمذلة والهوان ، واطلاق لقوى الجماهير الحبيسة ، وزعزعة الخوف من نفوسها . فهذه العقيدة لا تؤدى الى القبول بل الى الرفض ، ولا تبعث على الاستكانة والرضا بل تبث روح الثورة والنضال .

٦ — ولما كان كل دين يقوم على وحى شفوى ثم يتم تدوينه اما مباشرة أو بعد عدة أجيال أو تكثر نشأت مسألة سلطة الكتاب وصلته بسلطة العقل ، وهى مسألة العقل والسلطة ، وباصطلاحاتنا القديمة مسألة العقل والنقل . ونجد هنا أيضا موقفين : الاول يجعل السلطة سابقة على العقل ، والعقل تابعا للسلطة ، والثانى يجعل النقل أساسا للعقل ، والعقل تابعا للنقل . ويترتب على ذلك اهدار للعقل وهو القاسم المشترك بين الناس وانكار بداهته وحدسه وأولوياته وهى أساس العلم وبداية المعرفة والارتكان الى بداية أخرى أقل يقينا وذلك لانها نصوص مكتوبة ، قد تكون صحيحة تاريخيا وقد تكون محرفة لانها نصوص مكتوبة باللغة وخاضعة فى فهمها لقواعد اللغة ومناهج التفسير وقد تكون مكتوبة بغير لغتها الاصلية . مما يسبب ضياع المعنى الاولى المقصود للكلمات ، ويختلف فهم الناس للنصوص ، فكل لغة تحتوى على الحقيقة والمجاز ، الظاهر والمؤول ، المحكم والمتشابه . ولا يوجد نص واحد حتى ولو كان صريحا لا يختلف عليه اثنان . وهذا طبيعى

نظرا لان التفسير يعنى التعبير عن النص من خلال تجربة حية للانسان ، يعيش فى زمان معين ومكان محدد ، ولا يوجد فردان متشابهان تماما فى كل شيء • كما أن التفسير يخضع لأهدافه والغاية منه ولمضمونه ومادته ، فقد يتم التفسير لصالح الاقلية ضد الاغلبية ، كما قد يتم لصالح الاغلبية ضد الاقلية • وقد يظهر تفسير رأسمالى للدين وآخر اشتراكى له ، ومن ثم كان النص تابعا للموقف الاجتماعى ولوضع المفسر وأهدافه ، وانتمائه وولائه • وهذا ما يفسر لنا تعارض النصوص وهو فى الحقيقة اختلاف فى المواقف التى تستعمل فيهــا هذه النصوص • فالموقف الذى يجعل النقل ، بكل شبهاته ومخاطره ومظناته هذه ، أساسا للعقل هو موقف اليمين حتى يلتبس الباطل بالحق ، وتضيع حقوق الشعوب فى متاهات المفسرين وتضارب وجهات النظر ، مادام كل شيء فيه قولان ، ولا يرجع أحد لبداهة الجماهير بالتبعية للسلطة دون اعمال العقل ، والتبعية لسلطة الكتاب المقدس هى أسرع الوسائل وأكثرها فاعلية ، تستعملها السلطة السياسية من أجل توجيه الجماهير نحو التبعية لها • فكلاهما سلطة ، فالتبعية لسلطة الكتاب المقدس هو بمثابة التأهيل النفسى لتبعية السلطة السياسية ، والجماهير التى تتأهل نفسيا على التبعية ويقوم بناؤها النفسى على التبعية تتبع أى شيء • فأولوية النقل على العقل تحمى النظم الرجعية من استعمال الجماهير لوسائل البحث أو السلطان أو صاحب رأس المال أو المدير أو لها ، وتفسح المجال للسلطة السياسية لاختيار نوعية المتبوع الذى قد يكون الله أو الامير أو الملك أو السلطان أو صاحب رأس المال أو الرئيس •

فى مقابل ذلك ، هناك موقف آخر يجعل العقل هو الاســاس ، وسلطة الكتاب تقوم على هــذا الاساس تجعل للعقل الاولوية على

النقل ، وذلك لان العقل يؤدى الى اليقين ببديهياته وأولياته ، وبراهينه واستقراءاته فى حين أن النقل لا يؤدى الا الى الظن بروايته وتفسيراته ومناطه « لمن يتم التفسير ؟ » وان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ولو تضافرت كل الحجج النقلية على شىء فانه يظل ظنيا ، ولا يتحول الى يقين الا بحجة عقلية • كل من يبدأ بقوله : قال الله وقال الرسول فانه لا يبغى مصلحة الناس فى حين أن كل من تحدث بحديث العقل ، وأعطى احصاء دقيقا للواقع فانه يدافع عن مصلحة الناس ، مستعد لمقارعة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان • والاحصاء حجة دامغة لانه دليل الحس والمشاهدة ، وهو يقين مثل يقين العقل • وهذا هو موقف اليسار ، اذ تعتمد النظم التقدمية على المبادىء العقلية الشاملة ، وهى فى نفس الوقت قوانين المجتمع ومسار التاريخ •

وقد يستغل اليمين هذا الموقف لحسابه فيعتمد على العقل لترشيد مصالح الاقلية ، لتنظير توظيف رأس المال ولتبرير الوضع القائم وصور الاستغلال والاحتكار ، ولكن العقل هنا لا يكون هو العقل البسيط بل يكون هو الهوى والمصلحة أو العنصرية التى لا يؤيدها العقل أو التجربة ولكن حرص اليسار على بداهة العقل وشموله وموضوعيته ضمان لعدم استغلال اليمين له • كما يمكن لليسار اعادة تفسير النقل لصالحه خاصة فى مجتمع مؤمن بالنصوص ، ويعتمد على العقل ، ولكن النصوص يتم تفسيرها لصالح الطبقات الكادحة ، ويتم التفسير كله طبقا لحاجات العصر ومتطلبات الواقع كعامل مساعد لدليل العقل وبرهان التجربة •

ويرتبط بموضوع العقل والنقل تصورات وتطبيقات تنتج عنهما مثل موضوع الخير والشر أو كما يقال باصطلاح القدماء الحسن والقبح

وموضوع الصلاح والاصلح ، ومسألة الغائية فى الكون . وهنا نجد أيضا موقفين : الاول يجعل الخير والشر من الله وجودا وحكما بمعنى أن كل شىء فى هذا العالم خيرا كان أم شرا من فعل الله وليس من وضع البشر ، وان الحكم على ذلك بأنه خير ، وعلى ذلك بأنه شر يأتى من الله أيضا بأوامره ونواهيه ، فالشىء خير لان الله أمر به وشر لان الله نهى عنه . وكل شىء فى هذا العالم بخيره وشره لا يخضع لقانون ، ولا يبغى مصلحة ولا يهدف الى غاية بل من فعل الله حيث لا تعليل لافعاله بمصالح العباد ، ولا تبرير لها برعاية الصلاح والاصلح . وهذا هو اليمين فى الفكـر الدينى ، ويتحول ذلك فى السياسـة الى أيديولوجية اليمين الرجعى الذى يجعل من الخير والشر وضعين كونيين لا حيلة للانسان فيهما حتى يمكن تبرئة النظام الرأسمالى من الشرور والآثام ، وجعل الفقر والاستغلال وضعين طبيعيين فى الكون لا غرابة فيهما ، ولا تجـوز الثورة عليهمـا ، ولا يوجد نظام يرعى مصـلحة الناس اذ لا يوجد صلاح أو أصلح بل توجد أوضاع لا عقلية لا يمكن فهمها : كما أن الكون لا الناس هو المسؤول عن الشر . أما الناس فانه يمكن السيطرة عليهم وابعادهم عن التساؤل وفهم الاسباب وربط العلة بالمعلول .

وفى مقابل ذلك ، هناك اتجاه آخر يجعل الخير والشر وضعين اجتماعيين من صنع الانسان ، نتيجة لفعل داخلى فى العالم وليس نتيجة لفعل خاص خارجى عن العالم وان الانسان هو المسؤول عن ذلك ، والانسان هو واضع النظام الاجتماعى ، ومن ثم هناك ذنب وادانة وليس حكما ببراءة العالم ومسؤولية الله ، بل حكم بمسؤولية الانسان وبراءة الله . ومن ثم كان واجب الانسان وقضيته الاساسية هى فى تغيير الشر الى خير ، وفى درء الشرور واستجلاب الخـير ، وبالتالى تتحرك الجماهير وتتحزب ، وتمارس حقها السياسى وتتحمل مسؤوليتها

القومية . وهذا العالم يهدف الى رعاية الصلاح والاصلاح ، فالاصلاح أن يشارك العامل فى رأس المال والاصلاح أن تكون الارض لمن يفلحها ، والاصلاح الملكية العامة لوسائل الانتاج ، وبالتالى يمكن تغيير المجتمع ، ونقله من وضع حسن الى وضع أحسن ، ومن نظام صالح الى نظام أصلح . كما أن هذا العالم يسير وفقا لغاية ، يمكن للانسان ادراكها والسيطرة عليها لصالحه ، فهو عالم غائى لا صدفة فيه ، ولا تحدث فيه وقائع خبط عشواء . وهذا هو موقف اليسار .

تدخل الموضوعات الاربعة الماضية ، الذات والصفات ، والافعال بشقيها « خلق الافعال ، والعقل والنقل » ضمن الالهيات التى تشمل نظريتى التوحيد والعدل أو ضمن العقليات وهى الامور التى يمكن الوصول فيها الى يقين عقلى والتى تعتمد على برهان العقل بالاضافة الى برهان النقل والتى يكفر فيها منكروها أعنى وجود الله ووجود الانسان من حيث هو ارادة حرة وعقل مستقل قادر على التمييز بين الخطأ والصواب . أما الموضوعات الاربعة التالية : النبوة ، والمعاد ، والاسماء والاحكام ، والامامة فانها تدخل فى نطاق السمعيات التى لا يمكن الوصول فيها الى يقين عقلى والتى لا يعتمد فيها الا على النقل وحده ، ومن ثم فهى ظنية لا يكفر منكروها .

وهنا أيضا يبدو موقفان : الاول موقف اليمين الدينى الذى يحاول الجمع بين المجموعتين فيرد العقليات « الالهيات » الى السمعيات ، هادما الاساس العقلى اليقينى الذى تعتمد عليه ظانا أنه بذلك يدافع عن عقائد الدين وهو فى الحقيقة يزايد فيه . ولا يدرى أنه بارجاع العقليات الى السمعيات انما يرجع اليقين الى الظن ، هادما ما بناه القدماء . ثم يجعل اليمين الدينى السمعيات كلها التى شملت كل شىء

تقريبا يقينيات يكفر منكروها أو المختلفون فى تفسيرها ، وهو بهذا يساوى الله ، وهو اليقين بأمور المعاد وهى الظنيات مزايدة فى الدين ، ومغالاة فيه ، وتنطعا لا يرضاه المتدينون ولا العقلاء على حد سواء . هذا هو موقف اليمين اذ تحاول النظم اليمينية الرجعية ارجاع كل المسائل الى الدين ، وترى فى معاناة الشعب ومآسيه غضب الله وانتقامه ، وتقسم الناس الى مؤمنين وكفار ، وتخلط بين الاهم والاقل أهمية حتى يظل سيف الدين دائما مسلطا على الرقاب ، فيخشى الناس الحركة اما لفهم الامور النظرية أو للتحرك العملى من أجل المطالبة بالحقوق .

وفى مقابل ذلك ، هناك اتجاه آخر يحاول توسيع نطاق العقليات ومدها حتى يشمل اليقين الظن ويحتويه من أجل الحصول على اليقين أيضا فى السمعيات حتى يطمئن الناس الى مسائل النبوة والمعاد وحتى يعلموا حقيقة الايمان وواجبات الحاكم وشروطه . وهى موضوعات مهمة للغاية فى عصر نرى الفصل فيه بين الايمان والعمل ، ونرى حيرة الناس فيه وشقاءهم فى نظمهم السياسية الحالية ، وتساؤلهم عن السلطة السياسية ومدى شرعيتها فى البلاد . وهذا هو موقف اليسار ، اذ تحرص النظم السياسية التقدمية على ابراز أهمية العمل ، وأولويته على المنظر ، كما تحرص على ابراز المشكلة السياسية وكيف انها هى مفتاح المشاكل الاخرى ، فالاولويات فى التخطيط قرار سياسى وليس اقتصاديا ، ومحو الامية قرار سياسى وليس مجرد امكانيات مادية .

٧ — ولما كان كل دين يقوم على وحى وكل وحى يوحى الى نبى كان موضوع النبوة هو الموضوع الخامس فى علم أصول الدين القديم بعقلياته وسمعياته ، وأول موضوعاته السمعية . وهنا يبدو موقفان : الاول يجعل النبوة ضرورية ، وانه لا قوام لحياة الناس دون نبوة ،

وان الانسان قاصر عقلا عن ادراك مصالحه ، وعاجزا واقعا عن توجيه أموره ، ومن ثم فهو يحتاج الى وصايا من الخارج ، والا ظل كالحيوان ينعق وينهق أو أضل سبيلا • ودليل صدق النبــوة دليل خارجى هو المعجزة بمعناها التقليدى أى خرق قوانين الطبيعة ، وقلب الحجــر ذهبا والعصى ثعبانا • وهذا هو موقف اليمين ، اذ تقوم النظم اليمينية الرجعية بتدعيم هذا الاتجاه ، وتقوم عليه لان الانسان فيها قاصر عن ادراك مصالحه ، ومحتاج الى توجيه ووصاية من الحاكم أو من المدير أو من الرئيس أو من الشيخ ••• ومن ثم يصبح الانسان آلة طيعة فى يد قوى تسيره كيف تشاء ، ولا ضامن لها ولا مراجع أو رقيب عليها • وكما يقوم النبى بالمعجزات يقوم الزعيم السياسى أو صاحب رأس المال بمعجزات مشابهة ، يهزم الزعيم العدو فى ساعات ، ويحل المؤسسات ويعقدها فى غمضة عين ، فتثق فى أقواله الجماهير ، وتعطيه الثقة كل الثقة ، ويشيد صاحب رأس المال المصنع فى أسابيع ، يضاعف الربح فى ساعات ، ويسيطر على السوق فى دقائق ، ويقيل الحكومات ويؤلفها فى ثوان •

وفى مقابل ذلك ، هناك اتجاه آخر يرفض كل أشكال الوصايا على الانسان ، ويجعله مستقلا قادرا لا يحتاج الى عون خارجى نظرى أو عملى ، ويضع الانسان فى تطور التاريخ • كان الانسان قبل آخر مرحلة من مراحل الوحى قاصرا عن ادراك الامور النظرية ، وعاجزا عن تحقيق مطالبه العملية ، ومن ثم كان ظهور الانبياء ضرورة حتمية تحتمها ظروف العصر فى مراحل التاريخ السابقة ، وكانت الانبياء تظهر فى كل عصر ، وكان لكل قوم نبى ، وكل نبى يدفع بالتقدم الانسانى خطوة الى الامام ثم يتلوها نبى آخر يدفع التقدم خطوة أخرى حتى اذا ما تحقق استقلال

الانسان وكماله من الناحيتين النظرية والعملية ، وأصبح قادرا على ادراك الامور بعقله ، وتحقيقها بعمله ، توقف ظهور الانبياء ، وأصبحت النبوة غير ضرورية . كانت ضرورية فى الماضى وأصبحت غير ضرورية فى الحاضر بدليل توقفها فى المستقبل . والدليل على صدق النبوة ليس خرقا لقوانين الطبيعة ، فقوانين الطبيعة ثابتة ومطردة حتى تستقيم أحوال الناس ، ويثقون بالعالم الذى يعيشون فيه بل هو دليل داخلى محض ، وذلك عن طريق التصديق بالوحى ، وايجاد البراهين العقلية والحسية على صدق محتواه ، وفاعلية مضمونه ، وأثره فى اصلاح أحوال الناس ، وتدبير أمور معاشهم ، وهذا هو موقف اليسار ، اذ لا تحاول النظم التقدمية فرض أية وصايا على الانسان أو أن تعتبر الجماهير قاصرة عن ادراك حقوقها بل على العكس من ذلك يتعلم الانسان من الجماهير ، ويتخلص من وصايا التعليم الحضرى وأفكاره المسبقة . فلا ضمان الا الشعب ، ولا مراجع الا المؤسسات الديمقراطية، ولا حارس الا الحزب ، عصب الجماعة .

والحقيقة ان اليمين يؤمن بهذا الاستقلال للانسان فى عقله وارادته ولكنه يستغله لصالح الحاكم أو لصالح صاحب رأس المال أو لصالح الاقلية المسيطرة أما فيما يتعلق بالعامة أو ما يطلق عليه اليمين الدهماء أو الغوغاء فتفرض الوصايا عليهم ، وما أسهل فرض الوصايا باسم الانبياء ! ولكن يستحيل على اليسار أن يعيد تفسير موقف اليمين لصالحه لان فرض الوصايا النظرية والعملية على الناس موقف فاضح لا يمكن اعادة بناءه ، اللهم الا من التأكيد على أهمية الايديولوجية للناس ، فالدين بقاموس العصر السياسى هو الايديولوجية ، والانسان بلا أيديولوجية انسان مائث ، ولكن الايديولوجية ليست وصايا مفروضة على الانسان بل هى تعبير نظرى عن واقعه ، وتنظير مباشر لاحتياجاته ،

وتحقيق على مستوى الفكر لمتطلباته : وتخطيط دقيق لكيفية الممارسة ، وتحقيق هذه المتطلبات بالفعل ، أو أن تكـون الوصايا من القواعد الجماهيرية على قياداتها وبالتالى تأخذ معنى الرقابة والمراجعة .

٨ — واذا كانت النبوة تتناول ماضى الانسان على الاقل فان موضوع المعاد قد يكون هو الموضوع الاساسى فى السمعيات ، فلا يوجد دين الا ويتناول موضوع الاخرويات اجابة على سؤال : ماذا يحدث للانسان بعد الموت ؟ أوسؤال : ماذا آمل ؟ وهنا يبدو موقفان : الاول يجعل الله هو الذى يميت وان الموت حادث بقضاء الله وقدره ، وواقع بفعل الله وليس بفعل الامراض وحوادث الطريق أو الاغتيالات . والموت يفترض قسمة الانسان الى قسمين : بدن ونفس ، الاول فان ، زائل ، لا قيمة له ، يتحلل الى تراب ، والثانى باق ، خالد ، تتم بـه التزكية ، وينتظر الحساب . وتبدأ الرحلة بعذاب القبر ونعيمه ، ولا ندرى هل يتم ذلك بالبدن الذى يتحلل أم بالروح التى صعدت الى بارئها ؟ ثم تبدو وقائع الحساب ، واثبات الجنة والنار ، كواقعتين حسيتين ، مع اثبات الميزان والصراط ، والحوض ، وناكر ونكير ، وعلامات الساعة من انشقاق القمر وشروق الشمس من مغربها وغروبها من مشرقها ويأجوج ومأجوج ، وخروج الدابة ، والمسيح الدجال . فاذا تم الحساب فانه يحدث طبقا لارادة القاضى الذى لا يخضـع لقانون العدل بل بناء على رحمته ، قد يعفو عن المسىء ، وقد يعاقب المحسن ، ولا راد لقراره . فاذا تم الثواب فانه يحدث طبقا لاعمال الفرد ، وينال الفرد ثوابه ، وتتفاوت الجنة فى الدرجات ويعيش كل انسان فردا ، كل حسب درجته فى الثواب ، فهناك منازل وقصـور تتفاوت فيما بينها فى العظمة والثراء . وهذا هو موقف اليمين المادى ، اذ تعتمد النظم اليمينية الرجعية على أمور المعاد لترغيب الناس فى

مستقبل ليس لهم فى الحاضر ، وتمنيهم بعالم من الرفاهية ورغد العيش حرموا منه فى هذا العالم ، فيجد المحرومون تعويضا نفسيا مما حرموا منه ويتشوقون الى ما لم ينالوه ، وبالتالى تطمئن النظم السياسية الى وضعها الحالى ، والى استكانة الناس ، والى رضاهم بالوعود المستقبلة مادامت لن تتحقق فى هذا العالم . فيستغل صاحب رأس المال ويحتكر ويسيطر ، وهو مطمئن البال الى استتباب الامن وانتظار الناس اليوم الموعود !

وفى مقابل ذلك ، هناك موقف آخر ، يجعل الموت واقعا بأسبابه المباشرة مثل الامراض ، وحوادث الطريق ، والاغتيالات ، والحروب ، وبتغيير الواقع تقل أسباب الموت ويحيا الانسان ، فالواقع يمكن تغييره الى واقع أفضل ، والموت يمكن الاقلال من نسبته بالقضاء على الامراض ، وتنظيم المرور ، ونشر السلام الداخلى والخارجى . أما الانسان وحده فانه وحدة لا انفصام لها لا يهم تسميته بدنا أم نفسا أم جسما أم شعورا أم حياة أم روحا . بل ان بقاء البدن لاجدى على الانسان المتخلف من بقاء النفس ، فالبدن هو الذى يميت النفس ويقضى عليها ، والانسان يموت بسبب مرض بدنه ، وفقر بدنه ، واهمال بدنه ، وحشر بدنه ، وتحويله الى شىء طبيعى . وكيف يكون البدن فانيا ونثبت أن النفس لا تفنى ؟ أما ماذا يحدث بعد الموت فان كل ذلك تصوير فنى ومجاز عن عالم الامل الذى يعيشه الانسان ، ثقة منه فى عالم أفضل من أجل تغيير هذا العالم وليس من أجل تثبيت النظم القائمة تعويضا عن حرمان . وان المسىء سينال عقابه ، وان المحسن سينال ثوابه ، وان العمل وحده هو مصدر القيمة . قيمة الانسان ، وأن اللغة بمجازها أقدر على تصوير المعانى وايصالها لاكبر قدر ممكن من الناس بصرف النظر عن مستويات تعليمهم ودرجات ثقافتهم ،

والتأثير فى نفوسهم من أجل توجيه السلوك • وسيتم الحساب طبقا لقانون العدل ، كل حسب عمله وليس طبقا لقانون الرحمة وتبعا لارادة القاضى ، فالمسىء لابد وأن ينال عقابه ، والمحسن لابد وأن ينال جزاءه • ولا يعنى ذلك بالضرورة وجود درجات فى النعيم ، ومنازل صغيرة ، وقصور شامخة ، بل قد يأتى الخلود للعمل وللجماعة من خلال آثار الانسان وصفته الحميدة على الارض ، وذكراه الطيبة التى يتركها فى نفوس الآخرين • وهذا هو موقف اليسار ، لذلك نجد الحركات الثورية حركات مستقبلية تؤمن بأن الخلاص لابد وآت فى النهاية • وفرق بين أن يستغل اليمين هذا البعد الأنسانى ، وهذا الشوق للامل ، والتطلع الى عالم أفضل من أجل تخدير الناس ، ووعدهم بسراب وبين تحقيق اليسار لهذا الامل بالفعل ، فى حياة الناس ، وفى هذا العالم •

٩ — ولما كانت الاخرويات تعنى أن العمل وحده هو مصدر القيمة فان موضوع الاسماء والاحكام يصبح أصلا من أصول الدين ، وتعنى الاسماء والاحكام معانى الاسلام والايمان ، وأحكام الكفر والفسوق والنفاق • ويكن السؤال : ما الصلة بين الايمان والعمل ؟ وهنا يبدو موقفان : الاول يجعل الايمان مجرد الشعور الباطنى وهو ايمان عامة الناس الذى لا يتحول الى فكر أو الى قول أو الى عمل ، أو يجعله ايمان الشعور الباطنى من حيث هو فكر ، وهو ايمان المثقفين الذى لا يتحول الى قول أو الى عمل ، أو يجعل الايمان مجرد القول والنطق بالشهادتين ولا ندرى ماذا وراءهما من شعور أو فكر وماذا يتلوهما من عمل وهو ايمان المنافقين • ويكتفى هذا الموقف بانصاف الحلول ، فالشعور الباطنى كاف ، والايمان العقلى كاف ، والقول كاف ، والمطالبة بالعزيمة شىء بعيد المنال ، ويكفى فى ذلك الرخصة ! وهذا هو موقف

اليمين ، فالنظم الرجعية لا تطالب من الناس أكثر من شعورهم الباطنى حتى تأمن ألسنتهم وأفعالهم لانهم اذا تحدثوا فضحوا ، ودافعوا عن حقوقهم ، واذا عملوا ثاروا ضد الظلم الواقع عليهم ، ولا تطالب من المثقفين أكثر من الايمان العقلى ، وهو نوع من الترف الفكرى تأمن به هذه النظم ثورة المثقفين اذا ما هم تحدثوا وعبروا عن فكرهم ، واذا هم عملوا على قيادة الجماهير المضطهدة • لا تطالب هذه النظم بأكثر من التلفظ بالشهادتين حتى يظن الناس انهم مؤمنون بمجرد القول خاصة اذا كان قولا فارغا بلا مضمون • ويصبح النفاق الدينى هو أسلوب الممارسة فى النظم اليمينية الرجعية ويصبح الاستغلال هو الاساس • فتقام الشعائر الدينية من أجل التعمية والتغطية على ما يدور فى الواقع ، والتستر على ما يحدث فى حياة الناس •

وفى مقابل ذلك ، هناك موقف آخر يجعل الايمان والعمل وحدة واحدة لا انفصام لها ، وأن من لا عمل له لا ايمان له ، وأن الايمان الذى لا يتحقق فى صورة أعمال لا يكون له وجود ، فالعمل هو جوهر الايمان • ولا توجد أنصاف حلول ، فالايمان بلا عمل لا وجود له ، والايمان بلا شعور داخلى أو تصديق عقلى أيضا مجرد عاطفة هوجاء ، والايمان بلا قول يجهر بالحق ايمان ذليل مهان • وهذا هو موقف اليسار ، اذ تعطى النظم التقدمية الاولوية للعمل على النظر ، وتنقد المثقفين الذين يكتفون بالتصديق العقلى دون ممارسة فعلية ، وتجند الجماهير من أجل المطالبة بحقوقها قولا وعملا • ومعروف عن هذه النظم أنها من أنصار الحلول الجذرية فى السياسة ، ولا ترضى أنصاف الحلول أو المساومة على حقوق الطبقات الكادحة أو الموالاة للطبقات [illegible] •

وقد يحاول اليمين استغلال موقف اليسار الجذرى [illegible]

على صاحب رأس المال أو على الحاكم وحده ، فللاقلية المسيطرة وحدها أن تنفذ وعيدها وأن تعمل بما تقول ، وتنفذ ما تقرر فى سيطرتها على الطبقات الكادحة ، وتحكمها فى أرزاقها • ويمكن لليسار أيضا اعادة تفسير موقف اليمين لصالحه فى بداية الثورة ، والناس لم تتعود بعد عليها وعلى متطلباتها ، فالمتعاطف مع الثورة مقبول ، والذى يؤيدها بفكره يساهم ، والذى يدافع عنها بالقول يشارك وينصر ، والذى يضع فيها عقله وقلبه وقوله وعمله هو الثائر المناضل حقا • فتبعا لمراحل التحقيق الثورى يمكن مطالبة الجماهير بالتزامها على قدر طاقاتها الثورية حتى تنتصر الثورة • حينئذ لا يطلب بأقل من وحدة الداخل والخارج ، وهى وحدة الشعور والفكر مع القول والعمل •

١٠ — وبعد العمل الفردى يأتى العمل الجماعى ، ويظهر موضوع السياسة كآخر موضوع تقليدى فى علم أصول الدين القديم • ويظهر موقفان : الاول موقف اليمين الذى يجعل السياسة ملحقا لعلم أصول الدين ، وليست أصلا من أصوله كالتوحيد والعدل ، فهى أقرب الى الفقه والشريعة منها الى أصول العقائد النظرية ، مما يهبط حماس الناس السياسى لما كانت السياسة فرعا لا أصلا ، وكأن الدين هو العقائد ، والعقائد لا شأن لها بحياة الناس وصلبها فى السياسة • فمادام الناس قد آمنوا فلا تهم نظمها السياسية ، فقد خلق الله الجن والانس لعبادته وليس لاقامة شريعته ، وهو الموقف الى يجمد الدين ، ويحصره فى العبادة ، ويستل السياسة من الممارسة اليومية للمؤمنين ، فقد لعن الله ساس ويسوس ! وهذا يسمح للنظم اليمينية الرجعية أن تفعل ما تشاء ، تصول وتجول ، فهذا ليس من اختصاص الله ولا من حق المؤمنين !

وهو أيضا الموقف الذى يجعل المشكلة السياسية كلها مركزة حول شخص الامام أو الزعيم ، خصاله وصفاته ، فضائله ومحامده ، آثاره ومناقبه اذا صلح الراعى صلحت الرعية ، واذا حضر الامام حضر المأمومون • أمـا المؤسسات الدستورية مثل بيت المال ، والخراج ، والحسبة ، والقضاة ، والولاية ، وحق الشعب فى الرقابة فلا يدخل ذلك كله فى موضوع السياسة ، فقد انحصرت السياسة فى شخص الامام كما تنحصر العبادة فى ذات الله ، وكما ينحصر الدين فى الايمان بالله • وكما قال الفارابى من قبل سواء كنت أذكر الله أو الرئيس فاننى أعنى شيئا واحدا ! وتقوم النظم اليمينية الرجعية باستغلال ذلك أحسن استغلال فتؤله الزعماء ، وتذكر محامدهم ، وتنشد لهم ، ويرقص ممثلو الشعب طربا ومرحا ، يحمدون الله على سلامة الزعيم حتى ولو انهارت البلاد ، واحتلت أراضيها ، وانتهكت سيادتها ، وطعن شرفها •

وهو الموقف أيضا الذى يجعل الامام من قبيلة معينة وليس بناء على التزامه بمبادىء سياسية أو ببرنامج اجتماعى وكأن الانتساب العرقى أو السلالة الوراثية تشجب الالتزام والتعهد بالبرنامج • لذلك كانت النظم الملكية والوراثية أقرب الى النظم اليمينيـة من النظم الجمهورية والشعبية •

وهو الموقف الذى يجعل الحـاكم بالتعيين وليس بالانتخاب ، ويكون دور الجماهير التبعية والولاء ، والسمع والطاعة ، فالحاكم لا يخطىء ولا يضل ، لانه حاكم بأمر الله عصمه من الخطأ ووقاه من الزلل ، فتسلم الجماهير له أمرها كى يقودها الى بر الامان !

وهو الموقف الذى يعد الناس بالنصر فى المستقبل وتحمل آلام الحاضر ، وان القائد لابد وانه آت وان اختفى اليوم خوفا على نفسه فى وقت لم تختمر فيه الثورة بعد وتنتظر الجماهير جيلا بعد جيل ، وتتحمل آلامها عصرا بعد عصر والقائد لم يظهر بعد !

وفى مقابل ذلك كله ، هناك موقف آخر يجعل من السياسة أصلا لا فرعا ، وانها هى المحققة لاصول الدين ، وان الله والشعب صنوان ، فصوت الله هو صوت الشعب ، وانه لا يمكن تصور الله بدون أمة ، وخلافتها له • ويكون التوحيد حينئذ هو التوحيد بين النظام الانسانى والنظام الالهى فى حاكمية الله من خلال الدستور ، وعدم الرضا بهذا الفصم بين شريعة الارض وشريعة السماء • لذلك تحاول النظم التقدمية بقدر وسعها تحقيق نظام عادل تذوب فيه الفوارق بين الطبقات ، وتقوم على الملكية العامة لوسائل الانتاج منعا للاستغلال وللاحتكار ، وتضع أهدافها ، وبرامج تنميتها محاولة تحقيقها ، والوصول اليها •

وهو الموقف الذى يجعل الفكر السياسى يدور حول بناء المؤسسات الدستورية ، واعلان استقلالها • ومن ثم ، كانت النظم التقدمية ضد عبادة الاشخاص ، الزعماء ترحل ، والشعوب تبقى • والمؤسسات القوية لا يستطيع أى حاكم افسادها • بل انها قادرة على عزل الحكام والولاة ، فصلاح الراعى بصلاح الرعية •

وهو الموقف الذى يجعل ولاء الحاكم للمبادىء ، والتزامه بالدستور بصرف النظر عن انتسابه الطبقى أو نسبه القبلى ، فلا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى • الحكم للمبادىء ، لا للاشخاص ، وما الاشخاص الا ممثلة لسلطة تنفيذية خالصة لا تشريعية ولا قضائية •

وهو الموقف الذى يجعل الحاكم بالانتخاب المباشر أو غير المباشر ، من أهل الحل والعقد والذى يرفض كل مظاهر التعيين سلما أو قوة ، بقرارات أو انقلابات • لذلك كانت النظم التقدمية ديمقراطية بطبيعتها ، يمارس فيها الشعب حقوقه •

وأخيرا هو الموقف الذى يحقق الاستقلال الوطنى ، والعدالة الاجتماعية الآن دون انتظار لظهور المخلص فى المستقبل • اذ يستطيع الشعب بعد تجنيد قواه ، وبقيادة طلائعه أخذ حقوقه من الغاصبين ، سواء من الخارج أو فى الداخل • فالثورة ممكنة فى الحاضر ، والجماهير هى صانعتها ، ولها الحق فى مراجعة القادة ومحاكمتهم وعزلهم ، فهم مخطئون ولا عصمة لاحد • وهذا هو موقف اليسار •

وقد يستغل اليمين موقف اليسار من أجل تقليب الطبقات بعضها ضد البعض الآخر ، وضرب طبقات الشعب بعضها بالبعض حتى تتم لها السيطرة على الجميع ، ولكن اليسار بأسلوبه فى اقامة الوحدة الوطنية يمكنه الوقوف أمام انتهازات اليمين • كما يمكن لليسار اعادة تفسير موقف اليمين خاصة اذا كان الشعب متطلعا الى شخصية زعامية قيادية تثق فيها الجماهير ، ولكن درءا للاخطار يمكن تأسيس القواعد الشعبية للمراجعة ، والتأكيد على الاسلوب الديمقراطى فى الممارسة •

١١ — وبعد العمل الجماعى يأتى العمل التاريخى أى العمل الجماعى عندما يتراكم على مر الزمان ، ويعبر عن وجود الجماعة فى التاريخ • وهنا يبدو أيضا موقفان : الاول موقف اليمين الذى يقف عند حد العمل الجماعى دون تناول موضوع الامة فى التاريخ ، وبالتالى يسقط التاريخ من حسابه • ولذلك تعمل النظم اليمينية الرجعية على

طمس معالم التاريخ ، وعلى ابعاد الشعب عن مساره ، والى اتهام كل الحركات الوطنية فى التاريخ بأنها قلاقل ومشاغبات ، واضطرابات فى الامن العام ، وخروج على النظام • واذا تناوله البعض فانه يحكم على التاريخ بأنه يسير فى خط منهار نحو المستقبل ، وأن قمة التاريخ موجودة فى الماضى « خير القرون قرنى ••• » ، وكلما تقدم التاريخ انهار التاريخ حتى نصل الى عصرنا الحاضر ، يكون تقدم التاريخ قد أصبح انهيارا تاما ، وسقوطا شاملا « جاء الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ •• » ، فالتقدم الحقيقى هو رجوع الى الوراء ، واللحاق بالعصر الذهبى الذى ولى وفات ، عصر النبوة والصحابة والخلفاء • ولذلك تثنى النظم اليمينية الرجعية على عصور الاباطرة العظام ، والملكيات الغابرة ، حين شيدت القصور ، وأقيمت المتاحف الفنية ، وشقت الطرق والقنوات ، وازدهرت الفنون والآداب •

وهو الموقف الذى لا تهمه وحدة الامة بقدر ما يهمه الاعلان عن الفرقة الناجية وتكفير الفرق الضالة ، والناجية واحدة ، والضالة مجموع الامة ! والناجية هى الوريث الشرعى للخلافة التى بدورها الوريث الشرعى للنبوة • وبالتالى يتهم كل من يخرج على الصراط بالكفر والفسوق والعصيان • فاذا انتقلنا الى السياسة نجد أن هذا الموقف يجعل تاريخ الامة تاريخا واحدا ، تاريخ الملكية أو تاريخ الاسر الحاكمة ، وليس تاريخ الشعوب الضالة المتمزقة الفقيرة الجاهلة ، وحيث سيتحدد الولاء بالطاعة للامراء أو للنبلاء أو للملوك أو للاباطرة •

وفى مقابل ذلك ، هناك موقف آخر ، هو موقف اليسار ، يجعل التاريخ جزءا لا يتجزأ من كيان الفرد والجماعة ، ولذلك كان اليسار نظرة تاريخية للسياسة أو تحليلا للاجتماع أو جدلا تاريخيا للصراع •

وكلما وعى الشعب فى أى مرحلة من التاريخ هو يعيش ازداد التحامه بالثورة ، وازداد حماسه لها • وقد تكون من مآسينا الحالية أننا لا نعرف فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش ، لذلك تعثرت ثوراتنا •

والتاريخ لا يسير الى الوراء بل هو حركة تقدم نحو المستقبل ، فالمستقبل يحتوى على امكانيات ازدهار أكثر مما احتوى الماضى ، وكل جيل يدفع التقدم خطوة الى الامام حتى ولو كانت فى ظاهرها نكوصا وتراجعا ، فمرحلة النكوص تلوها مرحلة مضاعفة التقدم ، لذلك تجب مراحل الثورات عشرات المراحل قبلها بدا فيها المجتمع ساكنا واقفا جامدا • يمكن اعتبار الابطال فى التاريخ القومى والاستشهاد بقصص البطولة حوافز وبواعث لتحريك الشعوب وليس مقياسا للتقدم يتم بالرجوع الى الوراء • لقد أصبح التقدم وصفا لمعظم النظم اليسارية ، وعنوانا للحركات الثورية ، وشعارا للاحزاب المناضلة •

وهو الموقف الذى لا يعتبر هناك وراثة شرعية لفرقة على حساب الفرق الاخرى ، أو لحزب على حساب الاحزاب الاخرى ، أو لاسرة أو لقبيلة على حساب باقى الاسر والقبائل • فالامة كلها وحدة واحدة تفرز مناضليها أيا كانوا ، وتجمع فرقها واتجاهاتها كلها وحدة وطنية فى صورة تجمع أو جبهة ، فلا يكفر فريق فريقا ، ولا يتهم حزب حزبا آخر بالفسوق أو العصيان ، ويكون محك التجمع هو الرصيد الوطنى لكل حزب ، وليس مجـــرد الشعار أو الاصول النظرية التى قام عليها •

١٢ — هل تنتهى الى هذا الحد موضوعات علم أصول الدين كما ورثناه من القدماء ، ولا نزيد عليها شيئا أم أنه بالامكان زيادة جـــديدة مستقاة من أحوال العصر ؟ وهنا أيضا موقفان : الاول يريد الاقتصار

على ما قاله القدماء ، والاكتفاء به ، فقد أوفى القدماء كل شىء ، ولم يتركوا صغيرة أو كبيرة الا وتناولوها ، ولم يتركوا لنا الا الشروح والملخصات أو حصر العقائد وتقنينها فى خمسين ، وهو الموقف أيضا الذى يجعل علم العقائد قائما بذاته مستقلا لا شأن له بأحوال الناس وبظروف العصر • فالله موجود ، ليس له مضمون اجتماعى ، بل مجرد حكم صورى خالص على وجود الله ، وهذا هو موقف اليمين • فاذا انتقلنا الى النظم السياسية وجدنا أيضا أن النظم اليمينية ترى أن الوضع القائم هو أفضل الاوضاع ، وأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، وأن النظام قد وصل الى حد الكمال لا تجوز عليـــه زيادة أو نقصان ، تختص العقائد بالحياة الدينية ، والنظام الرأسمالى بالامور الدنيوية ، ويعيش الانسان حياتين ، حياة فى مصنعه أو متجره أو شركته يعمل ما يشاء طبقا للنظام الرأسمالى ، وحياة دينية فى معبده يقيم الصلاة فى أوقاتها ويمارس الشعائر •

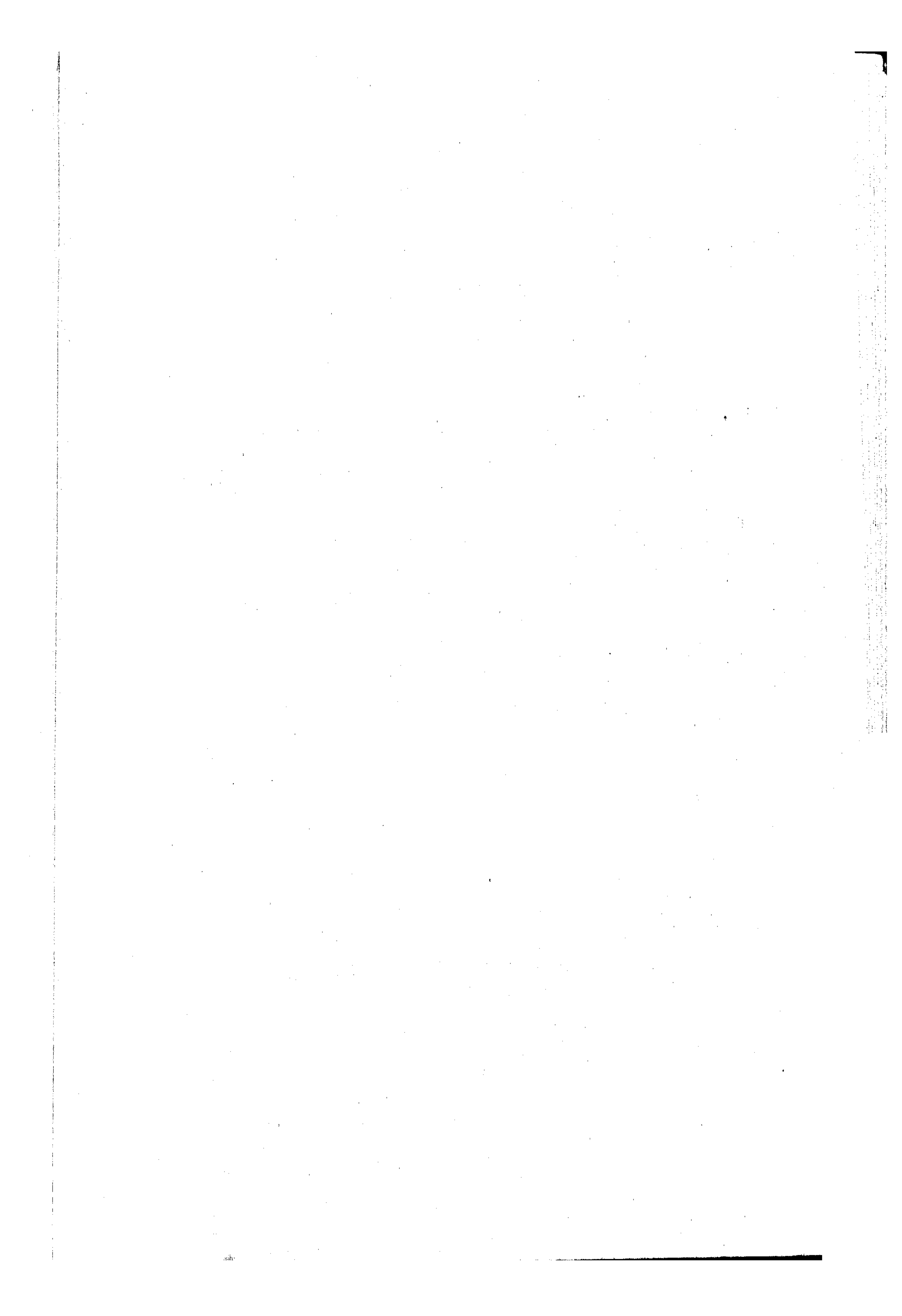
وفى مقابل ذلك ، هناك موقف آخر يجعل علم أصـــول الدين متطورا ، فالعقائد ليست أحكاما صورية بل ذات مضمون اجتماعى من وحى العصر • فالله الآن مرتبط بالارض اذا أردنا تحريرها ، الله قيمة ، والارض مطلب ، ومن ثم يعاد تفسير القيم طبقا للمطالب • والله مرتبط بالثورة ، فالله باعث ، والثورة ضرورة ، ومن ثم يعاد توجيه الباحث لتحقيق هذه الضرورة • والله غاية ، والتنمية هدف ، ومن ثم يعاد تفسير الغاية بحيث تخدم هدف التنمية وهكذا • وهــذا هو موقف اليسار • وقد حاول تأسيسه مصلحونا الاجتماعيون وعلى رأسهم الافغانى ، واقبال ، والكواكبى ، والسنوسى ، والمهدى ، ومحمد ابن عبد الوهاب ، وغيرهم من ممثلى حركات الاصلاح الحديثة • فقد حاول الافغانى ربط الله بالارض من أجل اجلاء المستعمرين عن أراضى

المسلمين ومن أجل تحرير الفلاحين من رقبة الاقطاع « عجبت لك أيها الفلاح ، تشق الارض بفأسك ، ولا تشق قلب ظالمك ؟ » • وقد حاول المهدى أيضا ربط الدين بالثورة من أجل الدفاع عن البلاد ضد غزوات المستعمرين ، كما حاول السنوسى أيضا ربط الدين بالمقاومة من أجل طرد الغزاة الاجانب ، كما حاول محمد بن عبد الوهاب توجيه العقائد الى الاصلاح الاجتماعى ، ومحاربة مفاسد العصر من شفاعة ووساطة ، وشعوذة وكهانة • كما حاول الكواكبى ربط الدين بالالتزام ، ومحاربة اللامبالاة والفتور الذى وقع فيه المسلمون ، كما حاول الربط بين الدين والتحرر من أجل القضاء على مظاهر الاستعباد فى حياتنا المعاصرة • وحاول قاسم أمين الربط بين الدين ومساواة الرجل بالمرأة من أجل استرداد المرأة لحقوقها التى تخلت عنها فى عصور الجهل والانهيار ، كما حاول اقبال الربط بين الله والذاتية من أجل اعادة تكوين الفرد المسلم ضد التقاليد ، وابراز جوانب الاصالة والابداع فى مواجهة الغرب بماديته وانحلاله — ومن ثم يمكن اضافة مادة جديدة لعلم أصول الدين تشمل لاهوت الارض ، ولاهوت الثورة ، ولاهوت التقدم ، ولاهوت التنمية ، ولاهوت التغير الاجتماعى ، ولاهوت التحرر ، ولاهوت المقاومة ••• الخ ، وباختصار لاهوت السياسة فتلك مشاكل العصر التى تكون المادة الجديدة لعلم أصول الدين ، وبالتالى تمحى التفرقة التقليدية بين العقيدة والشريعة أو بين أصول الدين وأصول الفقه •

ان مهمتنا الآن هى تطوير فكرنا الاصلاحى الحديث ، ودفعه خطوة نحو الامام ؛ فاختيار مصر بظروفها الحالية وفى مرحلتها الراهنة هو اختيار اليسار ، ومن ثم كان اختيارها الفكرى هو اليسار الدينى

الذى بدأ فى حركات الاصلاح على مستوى ثقافتها والتزامها بقضايا العصر . فمازالت كل القضايا التى أثارها الاصلاح الدينى لم تؤت أكلها بعد ، فاذا طورنا حركات الاصلاح الدينى ودفعناها خطوة الى الامام انتقلنا من دور الاصلاح الى دور النهضة ، شرط الثورة ، وهو ما نرجوه جميعا الآن .

وفى النهاية لا أريد أن أعطى مفتاحا وأقول أن اليمين واليسار فى الفكر الدينى قد مثلته الاشاعرة والمعتزلة فى تراثنا القديم ، فالاشاعرة هم اليمين فى الفكر الدينى ، والمعتزلة هم اليسار فى الفكر الدينى ، وبالتالى تكون مأساتنا أننا بتكويننا الاشعرى يمين فى حين أننا بوضعنا الاجتماعى وبدخلنا المحدود وبأرضنا الزراعية يسار ، وبالتالى يكون اختيارنا الفكرى غير واقعنا المادى . وهنا تظهر ضرورة اعادة الاختيار الفكرى حتى يتفق الفكر مع الواقع . ولكنى أترك ذلك لاستنباط القراء وحسن بصيرتهم ، لو شاءوا فعلوا ، فتلك هى مسؤوليتهم وحدهم .



هل يمكن اقامة نهضة على أسس أشعرية ؟

لا تقام نهضة الا على أسس فكرية يعاد عليها بناء القديم والا ظل القديم هو الاساس النظرى للنهضة الجديدة وغير قادر على أن يعطيها أسسا نظرية وبالتالى تفشل النهضة لعدم التطابق بين الموروث القديم كأساس نظرى وبين تحديات العصر التى تقوم النهضة استجابة لهـــا .

وتقوم نهضتنا الحالية التى بدأت مواكبة للاصلاح الدينى أو بعدها بقليل على نفس الاسس التقليدية التى بنى عليها تراثنا القديم فى معظمه وهى الاسس الاشعرية التى استقرت فى الوعى التاريخى ابتداء من القرن الخامس الهجرى حتى الآن أى بدايات القرن الخامس عشر ، وبعد أن حسم الصراع بين التيارات الفكرية لحساب الاشاعرة منذ ألف عام . ولم تكن هناك محاولات فى عصرنا الحالى لتغيير هذه الاسس الا محدودة جدا وبطريق نسبى كما فعل محمد عبده عندما بقى أشعريا فى التوحيد وأصبح معتزليا فى العدل . وبالرغم من هذا التحول النسبى فى الاسس النظرية لحركة الاصلاح الدينى الا أنها

كتب هذا المقال بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ورغبة صديقنا د. انور عبد الملك فى العودة الى مصر والقيام بدوره فى نهضتها الحديثة وتأسيس مجلة للحوار الوطنى بين الاتجاهات الفكرية التأسيسية المختلفة فى مصر بعنوان « النهضة » وهو الاسم المأثور لديه فى كتاباته العديدة منذ رسالته « نهضة مصر » . وهذه هى مقدمة المقال الذى كنت انوى كتابته فى ١٩٧٤ ولكنه لم يتم . وهذه صياغة ثانية له تمت فى خريف ١٩٨٧ .

ظلت فى مجموعها أشعرية ، وكأن استقلال الفكر وحرية الارادة أى العدل الاعتزالى لا يبقى طويلا دون استناد الى التوحيد الاعتزالى أى الله كمبدأ تتساوى فيه الذات والصفات • وأن هذين المبدأين اذا ما ارتكزا على التوحيد الاشعرى أى الله كشخص تزيد فيه الصفات على الذات • فبالرغم من أهمية تركيز الحركة الاصلاحية الحديثة على استقلال العقل وحرية الاختيار الا أنهما بقيا تحت المظلة الاشعرية • فهناك مناطق لا يستطيع العقل أن يصل اليها بمفرده ويحتاج فيها الى وحى ، وهذا الوحى هو النبى كما يقول محمد عبده • فمازالت هناك قوى خارجية تسيطر على قوى الانسان والطبيعة يحتاج اليها الانسان فى أوقات عجزه ، ويطيع لها الكون بتغيير مساره •

والاخطر من ذلك وفى مقابل هذا التحول النسـبى أو تطعيم الاشعرية السائدة ببعض الاعتزال القديم والذى لم ينجح كثيرا ولم يستمر اتحدت الاشعرية بالتصوف وازدوجت به ، فأصبح التصوف أيضا أشعريا فى أسسه ، وأصبحت الاصول الاشعرية التمهيدات الفكرية للطرق الصوفية • وسادت الاشعرية أيضا فى الفقه بسيادة المذهب الشافعى دون الحنفى أو المالكى • فقد كان معظم الاشاعرة شافعية ، وكثير من الاحناف معتزلة • كما سادت الاشعرية الفلسفة الاشراقية التى تشارك الاشعرية فى نفس الاسس النظرية كما هو واضح عند ابن سـينا خاصة • وبالتالى أصبحت الاشعرية هى الرافد الرئيسى فى ثقافتنا القومية •

ويروج بعضنا اليوم للاشعرية ، ويجعل نفسه شيخها دون مراعاة لظروف العصر وحسن الاختيار من البدائل المطروحة طبقا لمرحلتنـا الحالية وظروفنا الاجتماعية اما طلبا للشهرة والدعاية أو دفاعا عن

النفس فى شخص القديم خاصة ولو كان هذا القديم هـو الاساس النفسى والثقافى الذى تقوم عليه السلطة السياسية • فهـو مطلب سياسى فى صورة عامية ، وموقف مزدوج ينم عن الرغبة فى السـيادة فى السياسة والثقافة وفى ممارسات الطرق الصوفية •

ونظرا للفراغ النظـرى الذى يقبع تحت الاشعرية فانـه تم تطعيمها مؤخرا بالتصوف مرة ، وبالفقه مرة ثانية ، وبالفلسفة مـرة ثالثة • ففى التصوف أخذت الاشعرية السـلطة الخارجية والارادة المطلقة التى تسيطر على كل شىء • ومن الفقه أخذت مباحث العلة والاحكام وأحيانا العمليات حشوا بلا ترابط داخلى • ومن الفلسفة أخذت مباحث الجوهر والعرض وهى المقدمة الطبيعية للالهيات أو هى الالهيات المقلوبة • بل ان رفاعة الطهطاوى مؤسس النهضة الحديثة لم يتخل عن الاسس الاشعرية كما وضعها القدماء وعرض أفكار التنوير اعتمادا على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، ونظر للدولة الوطنية اعتمادا على التراث القديم ومصادره الفقهية •

ويظل السؤال : هل يمكن اقامة نهضة على أسس أشعرية ؟ هل يمكن فى نظرية العلم أن نؤسسها على أنه لا يوجد ارتباط ضرورى بين النظر والعلم وأنه مهما نظر الانسان فان العلم قد لا يتولد من النظر بل قد يأتى من مصدر آخر فى مجتمع تكثر فيه الالهامات ؟ هل يمكن فى نظرية الوجود أن نتصور أن الجواهر قد تعرى عن الاعراض أو أن الاعراض قد توجد بدون الجواهر تملقا للسلطة المطلقة ودفاعا عن حقها على حساب قوانين الطبيعة فى مجتمع تغيب فيه العلية ؟ هل يمكن اعتبار الصفات زائدة على الذات لافساح المجال للرحمة على حسـاب العدل فى مجتمع فى أمس الحاجة الى العدل ، والرحمة فيه أقرب الى

التحايل المقصود على القانون ؟ هل يمكن تصور الذات الالهية مشخصة دون أن تكون مبدأ عاما شاملا يتساوى أمامه الجميع في مجتمع يعانى من اللامساواة والتفاوت بين الناس ؟ هل يمكن تصور العقل قاصرا فى حاجة الى النقل فى مجتمع يعانى من نقص استعمال العقل ؟ هل يمكن اعتبار الانسان مجبرا فى أفعاله فى مجتمع يئن من القهر والجبر والطغيان ؟ هل يمكن تصور الانسان مازال معتمدا فى علمه وحياته على قوة خارجية فى مجتمع يعانى من ترك الاعتماد على الذات ويكثر من الاعتماد على الآخر ؟ هل يمكن التركيز على حياة الانسان بعد الموت والشفاعة على حساب الدنيا وقانون الاستحقاق فى مجتمع مغرق فى التصوف ويعتمد على الواسطة ولا يربط بين العمل والجزاء ؟ هل يمكن جعل الايمان هو القول دون عمل فى مجتمع يكثر فيه الكلام ويقل العمل ؟ هل يمكن جعل الامامة فى فئة واحدة ، قريش قديما ، والضباط حديثا على حساب الصفات الفردية وفى مجتمع يرزخ تحت الشللية والانقلابات والطائفية ؟ هل يمكن تكفير الفرق واعتبارها كلها هالكة وأن الواحدة فقط هى الناجية فى مجتمع تسيطر عليه حكومات الحزب الواحد والمعارضة فيها فى السجون ؟(١) .

---

(١) انظر بحثنا « اليمين واليسار فى الفكر الدينى » فى « الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ » الجزء الثانى ، فى اليسار الدينى .

الدين والرأسمالية

انه لمن أشد الامور عجبا أن تثار باستمرار قضية « الماركسية والدين » ويوميا .. فى جميع أجهزة الاعلام .. وكأن الماركسية هى الخطر الداهم على ديننا ودنيانا دون أن نعلم بأن هذه المعركة المفتعلة المثارة هى فى الحقيقة أثر من آثار الاستعمار الثقافى فى البلاد .. هذا الاستعمار الذى أراد ـ حفاظا على مصالحه الاقتصادية والعسكرية

---

* روز اليوسف سبتمبر ١٩٧٦ ، وقد وضع رئيس التحرير عنوان : الاسلام على الطريقة الراسمالية !

وصدر المقال بالفقرة الآتية :

الخطايا العشر فى اسلامنا اليوم مستوردة من الغرب ولصالح الراسماليين :

١ ـ البحث عن الله خارج العالم .

٢ ـ العكوف على الغيبيات والاسرار .

٣ ـ الفهم الشكلى للشعائر .

٤ ـ الصراع بين المادة والروح .

٥ ـ النزعة الاستهلاكية !

.. وخطايا اخرى فى العدد القادم .

قضية اليوم فى بلدنا ليست « الاسلام أم الماركسية » . وانما هى بالتحديد : الاسلام أم الراسمالية !

فالراسمالية هذه الموجودة فى مجتمعنا وخطرها هو الماثل امام اعيننا : بدليل ان معظم تصوراتنا الاسلامية اليوم ليست من الاسلام .. وانما هى تصورات راسمالية تسللت اليه ، والينا ، دون أن نشعر !

وعلى السطور التالية يكشف لنا الدكتور حسن حنفى ، استاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة القاهرة ، هذه الحقيقة المزعجة . ويدق ناقوس الخطر ، للذين هم حقا مؤمنون :

فى المنطقة ، ووقوفا فى وجه حركات التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى ، وتشويها لمواقف كل من يساندونها من قوى الحرية والسلام — الترويج بأن الماركسية مضادة لتعاليم الدين ومفسدة لحال الدنيا وضياعا فى الآخرة ، وينصب نفسه مدافعا عن الدين والدنيا معا • والحقيقة ليس القصد هو حماية الدين فالغرب مازال يعيش صليبيته ولكن بصور جديدة ، متعددة الاشكال ، يدافع عن الاسلام والمسلمين • والقصد من ذلك معاداة الحركات الوطنية والقوى التقدمية والنظم الاشتراكية حتى يخلو للاستعمار الجو ، ويظل فى نهبه للثروات ، وفى ايقاع البلاد فى شباك الاحلاف • وهو ما كانت النظم الرأسمالية تفعله فى الغرب منذ القرن الماضى — ومازالت تروج له الكنيسة الغربية حتى اليوم دون جدوى ، أمام تقدم الاحزاب الاشتراكية ، واتساع قواعد الاحزاب الشيوعية ، وازدياد شعبيتها بين الجماهير • وما لم تنجح النظم الرأسمالية فيه فى الغرب ، تعيد الكرة الآن فى البلاد النامية ، مستغلة عدم وضوح فكرها ، وعدم تبلور أيديولوجياتها وتدينها وايمانها ، ومرورها بفترة من التخلف الحضارى •• وتبعية مثقفيها للغرب •• وتقليدهم له •

وانه لمن أشد الامور غرابة ألا تثار قضية « الرأسمالية والدين » وهى الاخطر بالنسبة لمجتمعنا الحالى • فاذا كنا نعنى بجدية ما نقوله باستمرار •• وما سطرناه فى مواثيق الثورة عشرات المرات •• وما وقعنا عليه وأجزناه على مدى ربع قرن أعنى « حتمية الحل الاشتراكى » تكون « الرأسمالية » حينئذ هى الخطر الداهم على حياتنا • واذا كان واقعنا فى مصر بدخله المحدود •• وكثافته السكانية يفرض الطريق الاشتراكى للتنمية •• تكون الرأسمالية هى العدو الاكبر للتنمية

والمعوق الاساسى لها • ان عدم اثارة القضية ، قضية « الرأسمالية والدين » تدل على أننا لا نرى غضاضة فى أن نكون رأسماليين ومتدينين أو متدينين على الطريقة الرأسمالية •• وان الرأسمالية والدين متفقان فيما بينهما فى الاهداف والوسائل • ففى الاسلام الاول كان الاغنياء يجهزون جيوش المسلمين بأموالهم •• وكان منهم كبار الصحابة والمبشرون بالجنة •• فلا مانع أن يقوم أغنياء المسلمين اليوم بما قام به أغنياؤهم بالامس حتى يبارك الله لهم فى الرزق •• ويضاعف الاجر والثروات • واذا كانت الرأسمالية تقوم أساسا على نشاط الفرد وحريته المطلقة ، فالدين أيضا لا ينكر على الفرد حريته ونشاطه • والحقيقة أننا على هذا النحو نكون رأسماليين ونظن أننا متدينون •• رأسماليون فى الحقيقة •• ومتدينون فى المظهر •• وكثيرا ما ندافع عن الرأسمالية ونظن أننا ندافع عن الدين •• وكثيرا ما نظن أننا ندافع عن الدين •• ونحن فى الحقيقة ندافع عن الرأسمالية •

وهدفنا هنا هو توضيح هذا الخلط الشعورى أو اللاشعورى بين الرأسمالية والدين فى وجداننا القومى حتى يمكننا تخليص الدين مما علق به من آثار الاستعمار أعنى التصورات الرأسمالية للعالم ، وأن نفسر الدين تفسيرا يفرضه واقعنا الحالى ، فيكون ديننا هو الصورة أو القالب وواقعنا هو المضمون • وهذا واجبنا وواجب فقهاء المسلمين الذين نيط بهم الاجتهاد فى الدين ، وتطبيق أحكام شريعته بدل أن نكون جميعا ضحية الاستعمار الثقافى فى البلاد ، ونؤمن بالطاغوت ونظن أننا نؤمن بالله •

ومهمتنا هى تصحيح أوضاعنا الثقافية ، والكشف عن المعارك الحقيقة التى يفرضها واقعنا وتتحقق بها مصالحنا واستبدالها بالمعارك

الوهمية التى نشرها الاستعمار بيننا ابعادا لنا عن واقعنا وعن رؤية مواطن مصلحتنا الحقيقية ايهاما منه وخداعا • مهمتنا هى الوقوف أمام الاخطار الفعلية دون المتوهمة وتوضيح موقفنا الحضارى • وكثيرا ما يخطىء الغرب حســاباته ، ويظن أن الاستعمار الثقافى باق الى الابد ، وأن الجماهير فى البــلاد النامية ستظل راسخة فى تخلفهـــا الحضارى ، وأن مثقفيها سيظلون الى الابد ممثلين للثقافة الغربية فى أوطانهم ، يعملون لصالح الاجنبى ، ويستلهم الاجنبى للدفاع عن مصالحه ، واعادة حكم البلاد بطريق غير مباشر عن طريق وكلاء فى البلاد • ولكن احساسا منا بمسئولية المثقفين وهم طلائع الجمــاهير الشعبية ، فقد آن الاوان لتوضيح هذا الالتباس فى ثقافتنا الوطنية ونحن بصدد اقامة النهضة الحالية من أجل ترسيخ قواعد الثورة وأسسها النفسية والفكرية والقضــاء على جميــع معوقات التنمية والتغــيير الاجتماعى •

١ ــ تحرص النظم الرأسمالية على أن تجعل الله خارج الطبيعة ، فيما وراء العالم ، خارج الزمان والمكان ، يستحيل تصوره أو ادراكه ، ولا يمكن رؤيته أو التفكير فيه ولكن يمكن الابتهال اليه ومناجاته ، وطلب العون منه عند الحاجة • وبالتالى يتوجه شعور الجماهير الى خارج العالم ، مبتعدا عن هذا العالم ، تاركا اياه فى قبضة صاحب رأس المال بعد أن خلا له الجو من المنافسة ، وسيطر عليه واحتكره • وكلما اتجه شعور الجماهير خارج العالم ازداد احكام سيطرة صاحب رأس المال عليه • وفى ذلك يقول فلاح سودانى : كنت سعيدا فى أرضى ، أزرع حقلى ، وأرعى ماشيتى ، وفى يوم ما ، أتانى انسان متوشح بالسواد وفى يده كتاب ، وبعد مدة رحل ، فوجدت الكتاب فى يدى والارض فى يده !

فاذا تأزمت أحوال الناس ، واشتد الكرب ، وعم الفقر ، ابتهل الناس الى الله ، ودعوه لقضاء الحاجة فيفرح صاحب رأس المال ، ويتصدق ، ويفرج الهم والكرب ، ويقضى حوائج الناس ، كالخليفة يقذف بأكياس النقود يمينا ويسارا وهو فى موكبه على رافعى الايادى الى السماء ، فالله هو الواهب والعاطى ، الرازق والمنعم ، وبالتـالى يتعود شعور الناس على السؤال ، وينتظرون العطاء . وهذا ما تريده النظم الرأسمالية من بناء نفسى للجماهير . ونحن عندما ندعو الغنى ، ونسأل المعطى ، ونبتهل الى الوهاب انما نكون أسرى التصورات الرأسمالية للدين ، فى حين أننا أصحاب حق ولسنا أصحاب سؤال ، وأن لنا حقا فى رأس المال نطالب به دون استجداء ، وأن لنا حقا فى الارض ولسنا طلاب هبات أو معونات .

وأحيانا نتصور الله والعالم معا فى تصور هرمى ، كلما صعدنا الى أعلى وصلنا الى كمال أكثر ونقص أقل ، وكلما نزلنا الى أسفل وصلنا الى كمال أقل ونقص أكثر ، وفى القمة يوجد الكمال المطلق الذى ليس به نقص ، وفى القاعدة يوجد النقص المطلق الذى ليس فيه كمال ، وهكذا تتفاوت الدرجات والمراتب بين الاعلى والادنى أو بين الكمال والنقص . والحقيقة أن هذا التصور ليس من الدين فى شىء بل هو التصور الرأسمالى للعالم الذى يعبر عن البنـاء الطبقى للمجتمع ، والذى يرسخه النظام الرأسمالى فى نفوس الناس والذى يعتمد على الحركة الاجتماعية الصاعدة والهابطة ، فكلما صعدنا الى أعلى ازدادت الاقلية غنى وقلت فقرا ، وكلما هبطنا الى أسفل ازدادت الكثرة فقرا وقلت غنى ، فالصلة بين الواحد والكثير هى صلة الاقلية بالاغلبية ،

والصلة بين الله والعالم على هذا النحو هي في حقيقة الامر الصلة بين صاحب رأس المال والعمال •

وأحيانا أخرى نتصور الصلة بين الله والعالم تصورا ثنائيا يقسم الكون الى قسمين أول وآخر ، صوري ومادي ، أبدي وزماني ، باق وفان ، خالق ومخلوق ، علة ومعلول ، ونظن أن ذلك التصور هو ما يفرضه الدين وهو في الحقيقة ليس من الدين في شيء بل هو وليد النظام الرأسمالي ، أو هو صورة النظام الرأسمالي على المستوى النفسي والذهني لان ذلك من شأنه أن يجعل العالم سالبا ، لا قوام له بذاته حتى لا تعيه الجماهير ولا تشعر بقيمته ، ولا تهتم به ، وحتى يستطيع صاحب رأس المال الاستحواذ عليه ، والسيطرة على مقدراته ، واستغلال ثرواته ، واحتكار أسواقه • فاذا كان التدين قد أوعز اليه بايثار الآخرة على الدنيا ، والروح على البدن ، والخالق على المخلوق ، فان ذلك يحدث حتى يمكن للرأسمالي أن يعيش حرا طليقا في الدنيا ، يعمل في العالم كيفما يشاء ، بل يقوى الرأسمالي الوازع الديني على هذا النحو الرأسمالي عند الجماهير فيكثر لها البرامج الدينية ، وينشر المدائح النبوية حتى تجد الجماهير ما يلهيها عن الدنيا ثم لا مانع أن يشارك صاحب رأس المال في هذه الشعائر الدينية مرة كل أسبوع في المناسبات والاعياد حتى يلبس لباس التقوى ، وهو في الحقيقة يتستر وراءها ويخفي حقيقة أمره ، وهو الاستحواذ على العالم والسيطرة على ثرواته ، واستغلال القوى البشرية لصالحه •

٢ — وكثيرا ما نظن أن التدين هو العكوف على الغيبيات وعالم الاسرار ، والمعجزات والكرامات ، ونهز رؤوسنا اعجابا وطربا ، وشوقا

وعجبا • والحقيقة أن هذا ليس من الدين فى شيء بل مـا تصوره الرأسمالية لنا على أنه دين ، مغالاة منها فى التدين من أجل التستر على ما يدور فى نظامها من استغلال واحتكار ، وتصريفا لطاقات العامة ونشاطها فيما لا يقوض دعائم النظام بل على العكس فيما يدعمه ، ويقوى أركانه بالتفات الناس الى ما هو أبقى وأروع ، وطلبها السعادة فى معرفة الله والاتحاد بـه ، وفى الانفصال عن العالم واسـقاطه من الحساب ، ولذلك تكثر النظم الرأسمالية من بناء المسـاجد ، واقامة الشعائر ، وتدعيم الطرق الصوفية ، والاحتفال بالموالد ، والتآليف فى الغيبيات ، وادارة النقاش والمناظرة حولها • يجسد النظام الرأسمالى الغيبيات فى مظاهر حسية حتى يكون للدين مضمون من داخله وليس مضمونا اجتماعيا من واقع الناس •

وكل ذلك ليس من الدين فى شيء ، ففى الاسلام لا يعلم الغيب الا الله ، أما الانسان فلا يتعامل الا مع عالم الشهادة ، وكانت الشريعة الاسلامية كلها قائمة على عالم الشهادة ، بل كانت العقائد الاسلامية كلها تجد دليلها فى عالم الشهادة ، فايماننا بالغيبيات ، وحديثنا عنها ، وتصويرنا اياها ، وخلافنا حولها وتكفيرنا من ينكرها أو يؤولها ، كل ذلك ايمـان على الطريقة الرأسمالية ، حيث نكون ضـحية الافراز الرأسمالى للدين حيث نؤمن بالرأسمالية فى الدين ونظن أننا نؤمن بالدين ذاته •

ولما كان عالم الغيب والاسرار لا يمكن ادراكه بالعقل بل بالقلب ، تحول الدين الى ايمان صوفى تصبح فيه الاشراقيات موضوعا ومنهجا ، ومن ثم تكثر الطرق الصوفية ، ونظن أن التدين هو التصوف ، وكلما

أوغلنا فى الدين أوغلنا فى التصوف ، بكل قيمه السلبية ، ومواجيده وأذواقه ، وخداعه وايهاماته • وأصبح من العجيب أن يقوم النظام الرأسمالى على الترشيد فى الاقتصاد وعلى التصوف فى الدين ، وكأن الايمان على الطريقة الرأسمالية يجعل العقل وسيلة لتدبير أمور الدنيا فحسب ، بالحساب ، والكم والقياس ، والقوانين ، أما شئون الآخرة ، وأمور الدين فلها الوجدانيات ، والعاطفيات ، والاذواق ، والمواجيد ، وبالتالى يتحقق كمال الانسان واشباعه لرغبات العقل ومقتضيات القلب • فينهب صاحب رأس المال ثروات الامم ، ويبتهل ، ويتصوف ، ويتعبد ! •

وكل هذا ليس من الدين فى شىء ، فالدين لا يعتنى الا بهذا العالم الذى يسير وفقا لقانون يدركه الانسان بالعقل حتى يمكنه السيطرة عليه واخضاعه لسلطانه للاستفادة منه فى معاشه ، والعقل يشمل الحس والتجربة الداخلية والخارجية معا ، ويقوم الانسان بتنظيم العمل فى العالم بكل قواه لا فصل فى ذلك بين عقل وقلب • فالتصوف هو التصوف فى العمل ، وفى النشاط ، وفى الانتاج ، وليس التصوف الفارغ الذى لا مضمون له •

٣ — يظن الناس أن الممارسة الدينية هى اقامة الشعار ، وأن المسلم هو من أقام قواعد الاسلام الخمس : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج • فالشهادة نقولها ، والصلاة نقيمها ، والزكاة ندفعها ، والصوم نحرص عليه ، والحج نتسابق اليه • الشهادة لا تكلفنا الا عبارتين ، والصلاة لا تأخذ من يومنا أكثر من نصف ساعة من أربع وعشرين ، والزكاة لا تأخذ من أموالنا الا ربع

العشر من فائض الاموال ، ومن له ذلك الآن ! وزكاة الفطر شيء لا يذكر بجانب نفقات افطار رمضان وكمالياته المحلية والمستوردة . والحج نربح منه أكثر مما نخسر ، نربح الدعاية والاعلان ، ولباس التقوى للشهرة أو للتجارة ، أو نكتفى بالعمرة السياحية أو التجارية التى نحمل فيها ما خف حمله وغلا ثمنه . ولا مانع من كتابة الشهادتين فى ماصقات مذهبة أو فى لوحات مبروزة ، ونعلقها فى دورنا ومكاتبنا أو نشيد المساجد ونضيء مآذنها ، ونضع فيها مكبرات الصوت ، ونتألم من فوضى جمع الزكاة ، ونطالب باقامة مؤسسات متخصصة يديرها أهل البر والتقوى ورجال الدين والحكومة لجمعها وصرفها ، ونحمل هم شهر الصيام صيفا أم شتاء ، عملا أو راحة ، نفقات وتكاليف ، ونبتهل الى الله أن تصيبنا القرعة فى الحج ، وأن ييسر لنا سبل الحصول على العملة الصعبة من السوق السوداء . هذا الخلط بين الدين والتجارة، بين هموم الدنيا وهموم الآخرة هو الذى يكشف عن تسرب الفكر الرأسمالى ونخلمه فى ايماننا وفى ممارستنا الشعائر . وفى أحسن الاحوال تقام الشعائر فى تقوى وصلاح دون اعلان أو متاجرة . وفى هذه الحالة يحفظ المسلم نفسه من شرور الدنيا ويتقى متاعبها ، ويعكف على العبادة ، ويكون أقرب الى الصوفى الذى يقاسم الرأسمالى الكون ، للاول الآخرة وللثانى الدنيا ، فيطمئن الرأسمالى على أرضه ويضمن أن لا منافس له فيها .

وفى كلتا الحالتين ، نكون ضحية ، ضحية التفسير الرأسمالى للدين الذى تروج له النظم الرأسمالية والممارسة الرأسمالية للدين ، فنظن أننا نعبد الله ونطيعه ونحن فى الحقيقة نعبد رأس المال ونطيعه عن وعى أو عن غفلة . فالاسلام كما هو معروف ليس عبادات بل

معاملات بل ان المعاملات ذاتها أعلى درجة فى العبادات • هذا هو الطريق الاصعب ، والممارسة الشاقة ، فكل عمل عبادة ، الفلاح فى أرضه ، والعامل فى مصنعه ، والتاجر فى متجره ، والطالب فى معهده ، والجندى فى ميدانه • ليست العبادة ماذا يفعل الانسان فى نصف ساعة يوميا خمس مرات بل ماذا يفعل الانسان فى يومـه على مدى أربع وعشرين ساعة • ليست العبادة ماذا يفعل الانسان داخل دور العبادة ولكن ماذا يفعل الانسان خارجها ، فى منزله وفى الطريق العام • ولن يكون الحساب عن اقامة الشعائر بل عن العقل فيم فكر ؟ وعن المال فيم أنفق ؟ وعن الجهد فيم بذل ؟ وعن الوقت فيم ضاع ؟ العلم عبادة ، والعمل عبادة ، والنكاح عبادة ، وتحرير الارض عبادة ، والقضاء على التخلف عبادة ، ومحاربة الاستعمار عبادة ، والقضاء على الاستغلال والاحتكار عبادة ، والدفاع عن حقوق المستضعفين فى أى مكان عبادة • ان كل من يريد قصر العبادة وحصرها فى اقامة الشعائر لهو ضحية للاستعمار الثقافى فى البلاد وللتصور الرأسمالى للدين •

ان الشهادة تعنى رفض كل آلهة العصر المزيفة ، فنقول « لا اله » أى أننا نرفض من تصورنا أنها آلهة مثل الجاه ، والقوة ، والسلطان ، والربح •• الخ • فاذا تخلصنا منها ظهر لنا الله الحق فنقول «الا الله» ، وهو المبدأ الواحد الشامل الذى يتساوى أمامه جميع العباد • فالشهادة ليست قولا بل عملا وتضحية ، ومعارضة وثورة ، ومقاومة واستشهادا ، فآلهة العصر ما أكثرها ، ومناضلوها ما أقلهم • ان الصلاة لا تعنى الشعائر بل تعنى جهد الانسان الدائم ، وعمله المستمر من أجل تحقيق هذا المبدأ الواحد الشامل وما يتضمنه من نظم اجتماعية تجد الناس

فيها صلاحها • ولا تعنى الزكاة ارضاء لنزعة الانسان وضمان الكسب له مادام قد دفع ما طلب منه ، ففى المال حق غير الزكاة ، لا تعنى الزكاة تبرئة للذمة من حقوق الغير بل تعنى بداية تأكيد حق الغير حتى يتساوى الانسان مع الآخرين فيما بين يديه • ولا يعنى الصوم الشق على الانفس ثم ارضاءها بعد ذلك بل تعنى مشاركة الناس فيما بين يدى الانسان وأن المجتمع الاسلامى لا فقر فيه ولا جوع • ولا يعنى الحج رحلة سياحية أو تجارية أو دعائية أو تبرئة للذنوب بل تعنى مؤتمرا عاما للمسلمين جميعا للاجتهاد فى المسائل العامة التى بها صلاح الناس وعموم البلوى ، وكلنا نعلم ذلك ونوافق عليه ولكن ممارسة الدين على الطريقة الرأسمالية هى فى الغالب تقليد وسهولة وارضاء للضمير بأيسر السبل وأرخصها •

٤ ـــ ومازلنا نكرر خطأ شائعا روجه فيما بيننا الاستعمار الثقافى ، وصدره الينا الغرب بعد أن فشل فى استعماله ألا وهو الصراع بين الروحانية والمادية ، فكل من يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر يكون روحانيا ، وكل من يؤمن بالمجتمع وبالتغير الاجتماعى وبالتحليل الاحصائى وبالعوامل الاقتصادية يكون ماديا ، فندافع عن روحــانية نظرية ، وهى الروحانية التى تروج لها النظم الرأسمالية ، اذ تريدها نظرية حتى يمكنها السيطرة على النواحى العملية ، وتريدها مجردة حتى يمكنها أن تتعامل مع المحسوس وأن تستحوذ عليه ، وتريدها فارغة بلا مضمون حتى تحتكر هى المضمون وتبتلعه فى بطونهــا •• والحقيقة أن كل من يؤمن بالروحانية على هذا النحو الفارغ ، الخالى من أى مضمون يكون ضحية الفكر الرأسمالى والاستعمار الثقافى •

وفى حقيقة الامر هذه الروحانية العرجاء هى المادية بعينها لانها تجعل العالم المادى لا روحانية فيه ، ومن ثم تنشط النظم الرأسمالية فى هذا العالم ، وتفعل ما تريد ، تستغل وتحتكر ، وتسيطر وتتلاعب ، فاذا تم لها ما تريد ذهبت الى الروحانية الفارغة ووفتها حقها بالكلمات والشعارات أو الممارسة الشعائرية والطقوس ، فتطمئن النفس وتبرأ ثم تعود من جديد الى العالم تفعل فيه ما تشاء بلا قانون أو حدود •

هذه الروحانية المميتة القاتلة للروح هى التى حذر منها الاسلام مرارا بقوله « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب •• » وهى التى نبه عليها الرسول فى التطبيق ونوه بها الصحابة فى الممارسة ، فالذى يعمل بيديه ويطعم أخاه العابد فى المسجد يكون أخوه أعبد منه ، واليد السوداء المشققة من العمل الغليظ يد يحبها الله ورسوله ، والقدم التى تسعى فى سبيل الله عونا للجار أو دفاعا عن الحمى قدم تشبعت بالروحانية • فروحانيـــة الاسلام ذات مضمون ، روحانيـــة الارض والطبيعة والكون • وهنا تمحى التفرقة بين روحانية فارغة ومادية صماء، وتكون الروحانية هى المادة النشطة المتحركة ، والمادة هى الروحانية المتجسمة المتحققة ، فالعالم كله روح وكله مادة لا انفصـــام بينهما وهذا هو أحد معانى التوحيد • ولكننا حتى الآن مازلنا ضحية الروحانية العرجاء ، ونؤمن بالدين على الطريقة الرأسمالية •

٥ — ويظن الناس أن هذا العالم قد خلق لينتفع به الانســـان « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » • ومن ثم تتحول قيم الناس الى قيم استهلاكية خالصة ، يكون مطلبهم هو اقامة مجتمع الرفاهية والوفرة • ومادام الانسان قد آمن بالله ، كتبه ورسله واليوم الآخر ، وأقـــام

الشعائر وأركان الدين فان من حقه أن يتمتع بما وهبه الله من رزق ، فيتزوج أكثر من مرة ، ويسكن ، ويأكل ، ويشرب ، وينعم برزق الله ، ويكون الاخ المسلم أول من يهرع الى الموائد ، وأول من يقفز الى الصلاة ، وأول من يجمع المال ، وأول من يدفع الزكاة • وهـذا أيضا أثر من آثار الرأسمالية فى الدين • فالدين يضع كل شىء فى خدمة القضية ألا وهى تحقيق الامانة على الارض ، ويبعث على التعفف ، ويدعو الى تجـاوز الحياة الدنيا احساسا منه بالرسـالة • فالقيم الاسلامية قيم انتاجية خالصة فيها نفع للناس • وكلها تهدف الى تحقيق المصلحة العامة ، والاخلاق الاسلامية من عفة وزهد وتقشف وتقوى ، هى فى الحقيقة أخلاق اجتماعية للحد من نمط الاستهلاك لانه فى اليوم الذى يتحول فيه المجتمع من نمط الانتاج الى نمط الاستهلاك ومن مجتمع النضال الى مجتمع الرفاهية ينهار كما لاحظ ابن خلدون •

ان النعمة الحقيقية والسعادة الابدية ليست فى التنعم بمباهج الدنيا بل فى العمل على تحقيق الرسالة ، وفى آداء الواجب ، وفى أن يترك الانسان وراءه أثرا أو سنة حميدة تتناقلها الاجيال وتتبعها بعده لان « الآخرة خير وأبقى » • ولا يوجد مال حلال لانسان فى مجتمع أغلبيته عارية بلا لباس ، وفى العراء بلا مأوى ، وجائعة بلا طعام ، وأمية بلا تعليم ، ومريضة بلا استشفاء ، فكيف ينعم الانسان بالمال الحلال فى واقع كل ما فيه حرام ؟

٦ — يؤمن الناس بالفردية فى الدين ، ويدافعون عن النشـــاط الحر القائم على المنافسة وبدافع الربح ، فقـــد أكد الدين دور الفرد وأثبت المسئولية الفردية ، فلا عجب أن يكون للفرد الحق فى ممارسة نشاطه بلا حدود ، واستثمار أمواله كما يشاء ، وتأجير من يعملون له فى الارض أو فى المصنع أو فى المتجر . وهذا فى الحقيقة تفكير رأسمالى تغلغل فى الدين ، فندافع عن الرأسمالية ونظن أننا ندافع عن الدين . صحيح أن الاسلام يؤكد على المسئولية الفردية ولكن فى الاخـــلاق والعمل الصالح ، وفى الفهم والتفسير والتمييز والادراك ، ولكن ليس فى الاستغلال والاحتكار ، والمضاربة فى الاسواق والتلاعب فى الاسعار . فالجماعة لهـــا حق فى مال الفرد ، ليس عن طريق الزكاة فقط بل كل ما تحتاجه الجماعة ، وكل ما يمكن للفرد أن يقدمه من أموال للاستثمار . فاذا ما استغل الفرد أو احتكر كان من حق الدولة المصادرة للصـــالح

روز اليوسف ، سبتمبر ١٩٧٦ ، وقد وضع رئيس التحرير عنوان :

خمس خطايا رأسمالية اخرى تسللت الى الفكر الاسلامى .

فى العدد الماضى القى الدكتور حسن حنفى أستـــاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة القاهرة ، الضوء على خمس « خطايا » من الفكر الرأسمالى .. تسللت الى الاسلام فى مجتمعنا .

واليوم يواصل الدكتور القاء الضوء على خمس خطايا اخرى — يختتم بها حديثه الخطير وهى :

- حرية النشاط الفردى .
- حق الملكية المقدس .
- طاعة « أولى الامر » .
- تقديس رجل الدين .
- التحالف مع « الغرب المؤمن » .

العام ، والتأميم ورجوع الملكية للمسلمين ، كما أن من حق الدولة تحديد الاسعار والرقابة عليهـــا كما هو واضح فى وظيفة « الحسبة » فى الاســـلام •

وقد امتد هذا التصور الفردى الرأسمالى القائم على المنافسة والربح فى علاقة المتدين بالله • فهو يدفع قرشا لبناء مسجد فى الارض حتى يبنى الله له قصرا فى الجنة ، ويسابق الى الخيرات حتى ينـــال مكانا عليا فى الجنة • فالطبقات فى المجتمع لها ما يرادفها فى درجات الجنة حتى يحصل الانســـان على أعلاها بالمنافسة والتســـابق • وتقوم العلاقة أيضا على الحســـاب الكمى ، فالحسنة بعشرة أمثالها . ويضاعف الاجر الى ما لا نهاية ، ومن ثم تكون تجارة رابحة تلك التى يعقدها المتدين مع الله •

وفى مناهج الاصلاح نؤمن بأن صلاح المجتمع بصلاح الافراد ، وأن فساد المجتمع بفساد الافراد وأن الرسول قد عنى بتربية الافراد أولا على مدى ثلاثة عشر عاما ثم بعد ذلك أسس بنـــاء المجتمع فى عشرة أعوام ، ونظن أن هذا هو منهج الدين وهـــو فى الحقيقة أثر من آثار الرأسمالية فى الدين ، فالابنية الاجتماعية هى التى تحـــدد سلوك الافراد ، والطبقات الاجتماعية هى التى تفرز قادتها • وقـــد كان الافراد الذين رباهم الرسول افرازا لطبقة المضطهدين والمستعبدين والاذلاء أو لطبقـــة الرافضين لفكر قومهم ودينهم وعاداتهم ومثلهم ومعتقداتهم • وكان ذلك من أجل تربية القادة ، وهى الطـــلائع الثورية للجماهير وليس من أجل تربية الافراد لذاتها • وذلك لان الواقع كان

مختمرا بالثورة ، وكانت الجماهير تحتاج الى فكر يعبر عنها والى قادة يوجدون نفسانيا ، وهو ما أعطاه الاسلام •

ونفسر الاسلام أحيانا ونصف انتشاره بأنه دين أتى الصفوة المختارة قبل أن يأتى الدهماء ، وأن الرسول ذاته كان من قريش ، وهى قبيلة من أشرف قبائل مكة ، وانه كان يدعو القبائل أعلاها فأقلها علوا ، ويدعو وجهاء القوم ورؤساء العشائر وأغنياء الناس ، فالصفوة هى النشطة ، القادرة ، العالمة التى بها ينتشر الدين فى حين أن العامة عاجزة ، جاهلة ساكنة لا نصرة فيها أو لها • وهذا هو التفسير الرأسمالى لانتشار الاسلام • صحيح أن الرسول قد دعا رؤساء القبائل وذلك لانهم القادة ، ودعوة القادة فيها دعوة للجماهير ذاتها ، وطبقا للنظام القبلى الذى تتمع فيه القبيلة رئيسها ، اذا دخل الرئيس الدين الجديد دخلت القبيلة كلها • وفى نفس الوقت لم يمنع ذلك من دخل أفراد القبائل الدين الجديد رغما عن رئيس القبيلة • ومع ذلك فقد رفض القرآن هذا المنهج فى الدعوة فى حادثة مشهورة « عبس وتولى ، ان جاءه الاعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك الا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى •• » ، فحذر القرآن من التوجه الى علية القوم وترك دهمائهم ، وكم من القادة فيما بعد قد خرجت من الدهماء ! !

كما ندعو الى التغيير عن طريق اعطاء الاولوية للداخل على الخارج ونستشهد بقول الله : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » • وبالتالى فالاخلاق شرط السياسة ، واعادة بناء الضمائر

شرطا لاعادة بنـــاء المجتمع ، ونذكر القول المأثور « من أصلح الله جوانيه أصلح الله برانيه » . وهذا هو الفكر الرأسمالى المتغلغل فى الدين ، اذ يريد النظام الرأسمالى أن يغطى معالم البنـــاء الاجتماعى ، وعدم لفت الانظار اليه وذلك باحالة مشاكله وارجاعها الى نفوس الناس ، وخراب الضمائر ، وفســـاد الاخلاق ، فيلتفت الناس الى نفوسهم ويتركون الواقع الاجتماعى كما يريده النظام الرأسمالى ، ويقلبون النظرة من الخارج الى الداخل ، ويعكفون على طهارة النفس وتزكيتها ، ويكتشفون أن هذا العالم زائل ، فيسعد الرأسمالى بمـــا وصل اليه المتدين . وهيهات أن يتغير الواقع بتغير النفس ، فمادام الواقع كما هو فان البناء النفسى يظل أيضا كما هو . ولكن البداية بتغير الواقع ، وتحقيق الاصلاح الاجتماعى من شأنه أن يعيد بناء الافراد . وهذا لا يمنع من أنه فى مرحلة بناء القيادات ، والطلائع الثورية يمكن البدء بتوعية الافراد ، وتوعية الجماهير ، كجزء من البناء الايديولوجى للواقع كله ، وهى عملية مواكبة لعملية التغير الاجتماعى تمهيدا لوحدة الشخصية القومية ، وحتى لا يكون الواقع فى جانب والابنية النظرية فى جانب آخر .

٧ — ويؤمن الناس بالملكية الفردية ويدافعون عن الملكية الخاصة ، فالدين قد سمح بها ، والانسان هو صاحب الحق الاول والاخير فيما يملك ، وهى ملكية شرعية لا يمكن لاحد أن يصادرها أو أن يؤممها أو أن يشارك فيها آخر . والعلم يؤيدها ، فالطفل يقبض ما تناله يده ويرفض تركه ، ويرفض أن يشاركه لعبه مع الآخرين ، والمرأة تحب الخزين . وهذه هى الرأسمالية فى الدين ، واستغلال الدين والعلم من أجل تأييد النظام الرأسمالى والايديولوجية التى قام عليها ، اذ يدافع

الناس عن الدين فى صورة الملكية الخاصة ، وهم فى الحقيقة يدافعون عن الملكية الخاصة فى ثوب الدين كأثر من آثار الاستعمار الثقافى وكتعبير عن حب الدنيا التلقائى عند الناس . فالملكية ليست بالضرورة الملكية الخاصة بل هناك صور مختلفة للملكية العامة ، ملكية الله ، وملكية الدولة ، والملكية التعاونية ، والملكية اجماعية . وهى مكيات يؤيدها الدين ، وشرعها الفقهاء ، ومارستها النظم الاسلامية ، ويقول بها عديد من النظم الاقتصادية اشتراكية ورأسمالية على حد سواء .

فالاسلام لم يعرف الملكية الخاصة ولكنه جعل الملكية لله ، والانسان مستخلف فيما أودعه الله بين يديه ، له حق التصرف ، وحق الانتفاع به . فاذا أضر بالغير ، واذا اختزن دون أن يستثمر كان من حق الحاكم أن يصادره وأن يجعله ملكية عامة للمسلمين . هذا بالاضافة الى أن لفظة « مال » فى اللغة ليس اسما وبالتالى لا تشير الى شىء بل هى اسم صلة « ما » وحرف جر « ل » أى أنها لفظ مركب يدل على علاقة بين الشىء والانسان،وهى علاقة التصرف والانتفاع فحسب . والملكية المذكورة فى القرآن (حوالى ١٢٠ مرة) لا تعنى الملكية الخاصة بل الملكية المعنوية مثل ملك اليمين بمعنى الرعاية والعناية ، وملك المفتاح بمعنى الائتمان ، وملك النفس بمعنى القدرة ، وملك خزائن رحمة الله ، وملك النبوة ، وملك السماوات والارض . الملكية فى الاسلام وظيفة اجتماعية فحسب يحسن الانسان ادارتها فاذا أساء الادارة ، وظف غيره . وتاريخنا مملوء بالحالات السابقة التى حرم فيها الحكام والفقهاء الملكية الخاصة حتى لا يستكين الناس الى الارض ويتركوا الغزو فى سبيل الله ، فضلا عن أن الملكية لا تنتج عن ممارسة الاخلاق الاسلامية التى تجعل علاقة المسلم بالعالم علاقة أداء ورسالة وليست علاقة ملكية .

وما نقوله فى الملكية نقوله أيضا فى الميراث ، اذ نقاتل بعضنا بعضا من أجل الميراث ، ويفكر كل منا فى نصيبه راضيا أو كارها ، ذكرا أم أنثى اذا ما توفى الاقربون • وهذا أيضا ايما بالرأسمالية فى ثوب الدين ، ودفاعا عن الدين وهو فى الحقيقة ممارسة للرأسمالية • فالميراث ، كالملكية لله وحده فى الاسلام • ولم يرد لفظ « الميراث » فى القرآن بل ورد لفظ « الارث » بمعنى ميراث النبوة والعلم والحكمة والكتاب ، والارض ، والجنة ، ولم ترد فى أى سياق بمعنى الأرث الشخصى الذى نفرح به وننناله دون ما مراعاة لمبدأ تكافؤ الفرص • والآية المشهورة التى تنظم الميراث آية شرطية ، قد تحدث الحالة وقد لا تحدث • واذا كنا نعلم أن المال وظيفة للاستثمار لصالح الجماعة ، وأن الجماعة لابد وأنها محتاجة اليه كان الاوقع أن يترك الانسان هذا العالم دون أن يترك وراءه شيئا الا من العمل الصالح • وهل ورث الانبياء أو ورثهم أحد ؟

٨ — وكثيرا ما ندعو الى طاعة أولى الامر ، ونبرهن على ذلك بأن طاعة أولى الامر من طاعة الله « فأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الامر منكم » ، وننصب أنفسنا دفاعا عن السلطات الحاكمة ضد الشعوب • وهذا بالضبط هو الممارسة الرأسمالية للدين ، والايمان بالله على الطريقة الرأسمالية ، والايمان بالرأسمالية فى ثوب الدين ، وذلك لان طاعة أولى الامر تدفع الناس الى التسليم ، وتبعث فيهم الدعة والسكون ، وخير وسيلة لذلك هى استغلال طاعة الله التى ترضاها الجماهير • فطالما أن الجماهير مطيعة لله تكون أيضا مطيعة للنظام • ولما كانت الجماهير متدينة وستظل كذلك الى أجيال قادمة فان طاعتها للنظام تكون مضمونة على الاطلاق ، ومن ثم يتحقق النظام الرأسمالى ما يبغيه

من الابقاء على الوضع القائم ، واتهام كل صور المعارضة بالخروج على النظام ، ومن ثم ، بالخروج على طاعة الله .

وهذا خروج على الدين ، وضياع للامة ، فقد قال الدين أيضا « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ولما كان صاحب رأس المال قد عصى الله باستغلاله واحتكاره ، وسيطرته على أرزاق الشعب ، ونهبه لثروات البلاد فان الخروج عليه واجب ، وتغيير النظام ضرورة . ولقد بشر الدين أيضا كل من رفع سيفه فى وجه حاكم ظالم بالجنة ، والرأسمالى ظالم الناس باستغلالهم والسيطرة على أرزاقهم ، ومن ثم كان قلب النظم الرأسمالية وتقويضها واجبا شرعيا على كل مسلم ومسلمة ، وكذلك من الدين أيضا « عجبت لرجل لا يجد قوت يومه ولا يخرج للناس شاهرا سيفه » والرأسمالى منع أقوات الناس وكنزها ، وترك المسلمين جياعا ، ومن ثم وجب اشهار السيف فى وجهه . وقد عبر مصلحونا عن ذلك وعلى رأسهم الافغانى بقوله « عجبت لك أيها الفلاح ، تشق الارض بفأسك ولا تشق قلب ظالمك » . وملاك الارض وأمراء الاقطاع استولوا على أراضى المسلمين ومن ثم وجب على جماهير الامة أخذ حقها واسترداد الارض لذلك تنشر النظم الرأسمالية القيم الخلقية التى تدعو الى استتباب الامر واستقرار النظام ، وسيادة القانون ، وتبشر بأخلاق الشرف والامانة والاستحقاق وكلها أخلاق يستفيد منها الطبقة الحاكمة والطبقة المتوسطة درعها ومنفذ قانونها وهى التى تحرص على النظام ، وتضمن الامن ، فهى المستفيدة من الاقلية الحاكمة بقدر ما تتلقى من موائدها ، وبقدر ما ينالها من رشاويها ، وهى المستفيدة أيضا من الطبقة الدنيا باستغلالها

لحسابها كما تفعل الطبقة العليا • وتتهم النظم الرأسمالية كل النظم المعارضة بالارهاب والعنف ، واراقة الدماء ، والتعصب ، والتبعية والعمالة ، والخيانة فى حين أن الثورة على نظم الاستغلال والاحتكار جزء من الجهاد المقدس ، بحرص المؤمنون على نيل الشهادة فيه •

٩ — وكثيرا ما نقدس رجال الدين ، نطيعهم طاعة عمياء لا مراجعة فيها ولا استفسار ، ونتخذهم قدوة صالحة للسلوك ، ونسلمهم رقابنا وثرواتنا • وهذا بالضبط ما تريده لنا النظم الرأسمالية • اذ أنها تقيم لنا مؤسسات دينية ، وتدعم رجال الدين كواسطة بين الحق والخلق — وهو ما حذر منه الفقهاء جميعا — يمكن من خلالها السيطرة على المجتمعات • ورجال الدين ، فى نهاية الامر ، فئة اجتماعية من علية القوم ، ويكونون جزءا من الطبقة العليا ، يتمتعون بامتيازاتها ، ويعيشون على حمايتها ، ويتصدرون واجهة القوم ، وتأتمر فى النهاية بأمرها ، فهى ولية نعمتها ، وسبب بقائها • ومن ثم ، فالسلطة الدينية هى الحليف الطبيعى للسلطة السياسية • تستشهد السلطة السياسية برجال الدين كمثل أعلى للسلوك فى الطاعة الولاء • ولما كانت الجماهير تثق برجال الدين ، ايمانا منها بالدين ، فانها تأخذ سلوكهم قدوة ، وبالتالى يتحقق للنظام الرأسمالى ما يبغيه من طاعة الجماهير وولائهم له • واذا أراد النظام الرأسمالى اصدار قانون زيادة فى الضرائب أو توفيرا للعمالة أو تحديدا للاجور فانه يلجأ الى رجال الدين الذين يقومون بدورهم بتبليغه للشعب وتبريره وتأييده بالنصوص الدينية ، قال الله : وقال الرسول : والباسه ثوب الدين فيقبله الشعب راضيا مرضيا • فاذا ثار الشعب بقيادة طلائعه ، فان رجال الدين يقومون بامتصاص ثورته مطالبين بالطاعة والولاء ، ومتوعدينه بالويل والثبور ،

والطرد والحرمان ، ومتهمين قياداته بالخروج ، واثارة الفتن ، وبث الشقاق ، والقضاء على وحدة الامة !

وكل ذلك غريب على الاسلام ، فليس فى الاسلام رجال دين ، ومن ثم فان ادعاء أية سلطة دينية حق التفسير للدين أو التوجيه الجماهيرى فانه يكون ادعاءا باطلا لا يقره الدين ، ولا يبغى وجه الله ، وكل توسط بين الانسان والله هو توسط غير شرعى ، فلا وساطة فى الدين بين العبد وربه . والاجتهاد حق مشروع للجميع ، ولكل مسلم أن يجتهد اذا ما توافرت فيه شروط الاجتهاد ، العلم بالكتاب والسنة والوعى بمصالح المسلمين ، ولكل مجتهد نصيب ، وللمخطىء أجر ، وللمصيب أجران ، وقد حذرنا الرسول من تبعية مدعى الاجتهاد والا كان ذلك شركاً بالله .

١٠ — وعلى نطاق الاحلاف ، يظن الناس أن الغرب المؤمن أقرب اليهم من الشرق الملحد وأن الرأسمالية الغربية قائمة على الدين فى حين أن الاشتراكية الشرقية قائمة على الالحاد ، ومن ثم كان الغرب هو الحليف الطبيعى للمسلمين ، فهو وان كان يطمع فى أموالنا وثرواتنا الا أنه لا يطعن فى ديننا ، فى حين أن المعسكر الشرقى يطمع فى الاموال والثروات ويطعن فى الدين ، ويهدم العقائد ، وينشر الكفر والالحاد ، ويهدم المعابد . فالاستعمار الغربى استعمار للارض دون هدم للدين ودون قضاء على العقائد التراث فى حين أن الاستعمار الشرقى استعمار للارض وهدم للدين وقضاء على العقائد والتراث معا . الاستعمار الغربى يسهل استئصاله بالحرب أو بالسلم فى حين أن الاستعمار

الشرقى يستحيل استئصاله لانه يفرض وجوده بالقــوة • الحليف الغربى صريح فى معاملته ، يريد الارض ويؤمن بالله فى حين أن الحليف الشرقى منافق يريد الارض ويدعى الحرية ، يسيطر على الشعوب ويرفع شعار الديمقراطية • الحليف الشرقى غير انســانى فى نظامه يقهر الفرد ويكبت الحريات فى حين أن الحليف الغربى انســانى فى نظامه ، كريم فى معاملته يحترم الفرد ويدافع عن حرياته • هذا هو ما نؤمن به ونظن أنه من الدين فى حين أنه فى حقيقة الامر من ترويج الدعاية الاستعمارية فى أذهان الشعوب النامية من أجل اعادة السيطرة عليها ، وادخالها فى أحلافها العسكرية ، ومناطق سيطرتها ونفوذها •

فالغرب فى حقيقة الامر ينافق فى الدين ، ويظن أن الايمان هو تستر وتعمية وتغطية على ما يدور فى الواقع ، ويتهم كل من يضع فى الايمان مضمونا اجتماعيا بالكفر والالحاد ، ويحرص على نشر هذا التصور الضامر للدين ، أنه نظريات أو عقائد أو شعائر أو طقوس • فى حين أن المبادىء العامة للنظم الاشتراكية وأهدافها من تحقيق للعــدالة الاجتماعية ، وتذويب الفوارق بين الطبقات ، ومن قضاء على روح الاستغلال ووسائل السيطرة والاحتكار ، ومن جعل العمل وحده مصدرا للقيمة ، ومن جعل الحكم للاغلبية والتخطيط لصالحها ، كل ذلك أقرب الى روح الاسلام من التستر بالعقائد والشعائر على مظاهر الاستغلال والاحتكار • والذى يهدم العدالة الاجتماعية هو فى الحقيقة هادم للدين حتى ولو ملأ الارض تكبيرا ، وعمرها معابدا ، وتناثرت فوقها الصدقات •

ان الشعوب المتحررة حديثا بعد أن تحررت من الاســتعمار

الصريح ، العسكرى أو الاقتصادى مازالت تحت رحمة الاستعمار الثقافى الذى يبغى الابقاء على سيطرته على الشعوب وثرواتها من خلال طبقة من أهل البلاد تدين له بالولاء ، بولائها للثقافة الاجنبية وتقليدها لها . فبدل أن يحكم الاستعمار مباشرة فانه يحاول أن يحكم الآن من خلال هذه الطريقة ، وهى امتداده فى البلاد النامية . وقد آن الأوان للقضاء على الاستعمار الثقافى فى البلاد ، وتنوير الناس ، ورفع الخلط فى أذهانهم ورفع الالتباس فى نفوسهم عما يظنون أنه من الدين وهو فى الحقيقة من الرأسمالية . وهذا هو دور المثقفين الآن .

ماذا تعنى أسباب النزول ؟

ان أهم ما يميز هذا الشهر الكريم هو نزول الكتب السماوية فيه : التوراة ، والانجيل ، والزبور ، والقرآن • فهو شهر الوحى ورسالات السماء « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » •

وقد تصور الناس خطأ أن الحديث عن القرآن يتم عن طريق الحديث عن كلام الله الابدى ، فيجعلونه صفة من صفات الله كما فعل علماء أصول الدين القدماء أو يجعلونه الكتاب المدون أى المصحف المغلف بالقطيفة الحمراء ، الموشى بالذهب ان أمكن ، والمغطى بالحرير ، والمقبل بالشفاه ، والموضوع على المكاتب أو فى العربات ، وفى واجهات عرض محال التحف الشرقية ، أو المكتوب المزركش على لوحة أو على لوحة أو على حبة قمح أو على بيضة كما هو الحال فى متاحفنا الشرقية •

وكلا النظرتين خطأ ، فالقرآن وان كان كلام الله الا أنه أنزل الينا لصالحنا « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ، وحديث الله الينا ، فالمقصود هو نحن البشر ، والهدف هو مصلحتنا ، وبالتالى يكون ارجاع كلام الله الى الله ثانيا مضادا لمقصد الوحى ولغرض الله فى حديثه الينا ، فاعتبار كلام الله صفة له مضاد لكلام الله نفسه الذى أتانا ليبلغنا الرسالة ، وليشير علينا بما فيه مصلحتنا •

روز اليوسف العدد ٢٥١٩ ١٩٧٦/٩/٢٠ • وقد بدل رئيس التحرير العنوان الى « القرآن ليس تحفة شرقية » وصدره بعبارة « والاسلام يرفض الكلام فى الدين بلا مناسبة » •

والقضية ليست نزول القرآن من عند الله مباشرة أو فى اللوح المحفوظ أولا ثم بعد ذلك الينا ، فكل ذلك رجم بالغيب ، وقول بالظن : « وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » . انما القضية كلام الله هـذا الذى نسمعه ونتلوه ، ونفهمه ونفسره ، ونجد فيه تحقيقا لمطالبنا ، وحلا لمشاكلنا ، ودرءا لمآسينا .

ونخطىء عندما نشغل بالنا بكيفية التبليغ ، هل كان الرسول وهو بشر يأخذ صورة ملائكية أم هل كان الملاك يأخذ صورة بشرية ؟ هل كان الملاك يأتى وله صوت مثل صوت الجرس أم كان ينفث فى روع الرسول ؟ هل كان الملاك يأتى الرسول فى نومه أم فى يقظته ؟ كل ذلك لا شأن لنا به ، فبذلك لم نؤمر ، وعن مثل هذه الامور حرم السؤال . مهمتنا بعد وقوع الكلام وحدوثه وانزال القرآن محسوسا لدينـا نسمعه ونقرأه ونفهمه ونفسره ، ونطبقه ونستفيد منه فى حياتنا العملية .

ما يهمنا اذن هو نزول القرآن أو وقوعه ، وأهم ما يميز القرآن على الكتب المقدسة الاخرى هو أنه نزل منجما أى مفرقا طبقا للحوادث، وحسب الظروف ، وبناء على مقتضيات الواقع ومتطلباته ، وقـد استدعى ذلك انتباه المناهضين للاسلام « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » وكان الرد من القرآن أيضا « كذلك لنثبت به فؤادك » أى حتى يعيه الانسان مع واقعه ، وحتى يحفظه ولا ينساه، فالواقع هو حامل الآيات وحارس الذاكرة وحافظها .

ما يهمنا اذن هو نزول القرآن ، وهو ما وصفه علماء التفسير ، وعلماء أصول الفقه باسم « أسباب النزول » التى أصبحت شرطا من

شروط التفسير والاجتهاد • فماذا تعنى « أسباب النزول » بالنسبة للعصر الحاضر ؟

١ — الوحى والواقع :

تعنى « أسباب النزول » أن الوحى لم يفرض على الواقع ابتداء بل كان نداء للواقع ذاته ، وأن الجزيرة العربية كانت تبحث عن فكر يعبر عنها ، وعن أيديولوجية توحد قبائلها وعن زعيم أو قائد يقودها وبه تؤدى رسالتها • كانت اليهودية والمسيحية محدودة الانتشار ، ولم تكن تعبر عن واقع العرب الا فى أقل الحدود • عاش اليهود منغلقين على أنفسهم ، محصورين فيما بينهم فكيف يوحدون القبائل ؟ وعاش المسيحيون فضلاء أتقياء لا يدخلون فى معارك القبائل فكيف يتزعمونها ؟ وكان الحنفاء يحظون باحترام الجميع ، فقد كانوا على سنة ابراهيم ، جد العرب • فجاء الاسلام لنشر الحنيفية السمحة « ملة ابراهيم حنيفا » فى صورتها العامة وهو الاسلام الذى أصبح الرافد الاساسى فى الشعور العربى ، والمرحلتان السابقتان للوحى جزء من تاريخه •

أما الوثنية فلم تكن مكونا أساسيا من مكونات الشعور العربى بل كانت لا تتجاوز سطحه ، ولا يؤمن بها أحد ايمانا يقوم على التصديق والبرهان •

نستدل من ذلك اذن على أن الواقع له أولوية على الفكر ، وبالتالى يكون الاسلام بلغة العصر دينا واقعيا من الاساس وليس فقط فى التشريعات على ما هو معروف فى مبادىء الاستدلال « لا ضرر ولا ضرار » أو « الضرورات تبيح المحظورات » • وذلك يعنى أنه مطالب

من مطالب الواقع ، وأن الواقع هو الذى نادى به ، وهو الذى فرضه ، فلم يأت عنوة ، ولم يفرض غصبا .

وهذا ما قد نسيناه فى حياتنا المعاصرة ، عندما نحـاول فرض الدعوات السياسية بالسلطة ، ونشر المذاهب والاتجاهات عن طريق الدولة ، والناس تتساءل عن معنى هذا ومغزى ذاك ، حيارى ، تقلب وجوهها فى السماء باحثة عن شىء يعبر عن واقعها كما عبر الاسلام أول مرة عن واقع الناس فى الجزيرة العربية . وتكون النتيجة لامبالاة الناس أمام ما يعرض أمامها من مذاهب واتجاهات وبحثها فى ملفاتها القديمة فتجد الموروث بعبله وبكل ما فيه من حشو فتجتره بلا وعى وبلا انتقاء أو تجد اغراء الجديد فتقلده ، وتنعم بتحقيق أشواقها نحو التحديث والتجديد ، وفى كلتا الحالتين لا تجد الناس فكرا يعبر عن واقعها كما عبر الوحى من قبل .

وكذلك عندما يحاول مثقفونا فرض الافكار والمذاهب الفنية على أذواق الجماهير التى لا تتذوق هذه الافكار وهذا الابداع الفنى لعدم ثقافتها وأميتها وجهلها بقواعد الفنون الحديثة يشكون من سلبيـة الجماهير ، ولامبالاة الناس فى حين أن التغير الاجتماعى لا يأتى عن طريق فرض أفكار على الناس بل عن طريق التعبير عن واقعها بالفكر وبالفن ، وصياغة مآسيها بالنظر وبالتصوير ، والتعبير عن أشواقها فى أيديولوجية كاملة كما فعل الاسلام أولا .

٢ — النص والمصلحة :

وتعنى « أسباب النزول » أيضا أن هذا الواقع يمكن ادراكه بالفطرة ، ويمكن للآخرين الاتفاق عليه وموافقته والتصديق به . فقد

كان عمر يدرك واقع المسلمين ومصلحتهم بفطرته ، وكان يطالب النبى بوحى فى هذه المسألة أو فى تلك الواقعة ويدرك بحواسه الوحى المطلوب ، ثم يأتى الوحى مصدقا لادراك عمر ٠

وكان الرسول يثنى دائما على هذا الذى صدقه الوحى ، فعمر هو الذى أدرك بفراسته خطورة الخمر على العقل وعلى الحياة العامة فجاء الوحى محرما لها ٠ وهو الذى أدرك خطورة غواية المسلمين فى الطرق العامة فنزلت آية الحجاب ٠ وكان يدرك بفطرته متى يجب السلام ومتى تحين الحرب ، متى تعقد المعاهدات ومتى تنقض ، متى تجب الطاعة ومتى تحين الثورة ٠ كان يدرك بفطرته متى تجب الملكية ومتى يفرض الغاؤها ، متى يطبق الحد وفى أى ظرف يوقف ، ومن عمر خرج فقه عبد الله بن مسعود ، ومنه تأسس فقه مالك ، وعن مالك عرفت المبادىء العامة للاجتهاد ، المصالح المرسلة ، ما رآه المسلمون حسن فهو عند الله حسن ٠

فبنظرتنا نحن ، وبالتحامنا بالواقع يمكن صياغة حلول لمشاكلنا ، تكون بالضرورة مصداقا للوحى ٠ فواقع مصر بدخله المحدود لا يقبل الا مجتمعا لا طبقية فيه ، وواقع مصر بأرضها المحتلة لا يقبل الا توجيه موارد البلاد وطاقاتها لطرد المحتل ، وواقع العالم الاسلامى بتركيز ثرواته فى يد الاغنياء ، وشيوع المجاعة والقحط والجفاف وسوء التغذية والامراض والامية لدى عامة المسلمين لا يقبل الا باعادة توظيف المال العام لخدمة الجماعة ، ورد أموال الاغنياء الى بيت المال ٠

فالواقع هو الذى يفرض نفسه ، وهو أبلغ من كل نص ، يختلف فى تفسيره المتحذلقون ، كل على هواه ، دفاعا عن مصلحته ، الواقع

هو مصدر النص ومنبعه ، والبداية بالواقع هـو الرجوع الى المنبع والمصدر والاساس •

٣ ــ الحديث بدون مناسبة :

وتعنى « أسباب النزول » أننا نختار من الوحى فى كل مناسبة ما نجد فيه حلا لمشاكلنا مآسينا • أن كل محاولة لتفسير الوحى ككل وأخذه جملة واحدة معارضة لطريقة نزول الوحى فى البداية ، « وقرآنا فرقناه لتقرأه للناس على مكث » أى أن القرآن يحتوى على حلول لمشاكل عدة لا يؤخذ منها الا ما ساعد على حل مشاكل الناس والا اســتمع الناس الى كل شىء ولم يأخذوا أى شىء ! فالوحى قد حوى كل شىء ، وبه حلول لمشاكل قد تظهر فى أى عصر ، « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل » • فليس الهدف هو عرضها كلها واستحسانها والثناء عليها ، جمعت فأوعت ، والا كنا كمن يحفظ قاموسا للغة حتى يتقن اللغة دون أن يأخذ من المفردات ما يحتاجه فى موقف معين • ومهما حفظ فانه ينساها لانها معرفة لم توظف ولم تستخدم فى حين أن الكلمات التى يعيها الانسان فى موقف تلعثمه وبحثه عن المفردات وهو بصدد الحديث هى التى تبقى نظرا لشدة المحنة وكثرة الاستعمال •

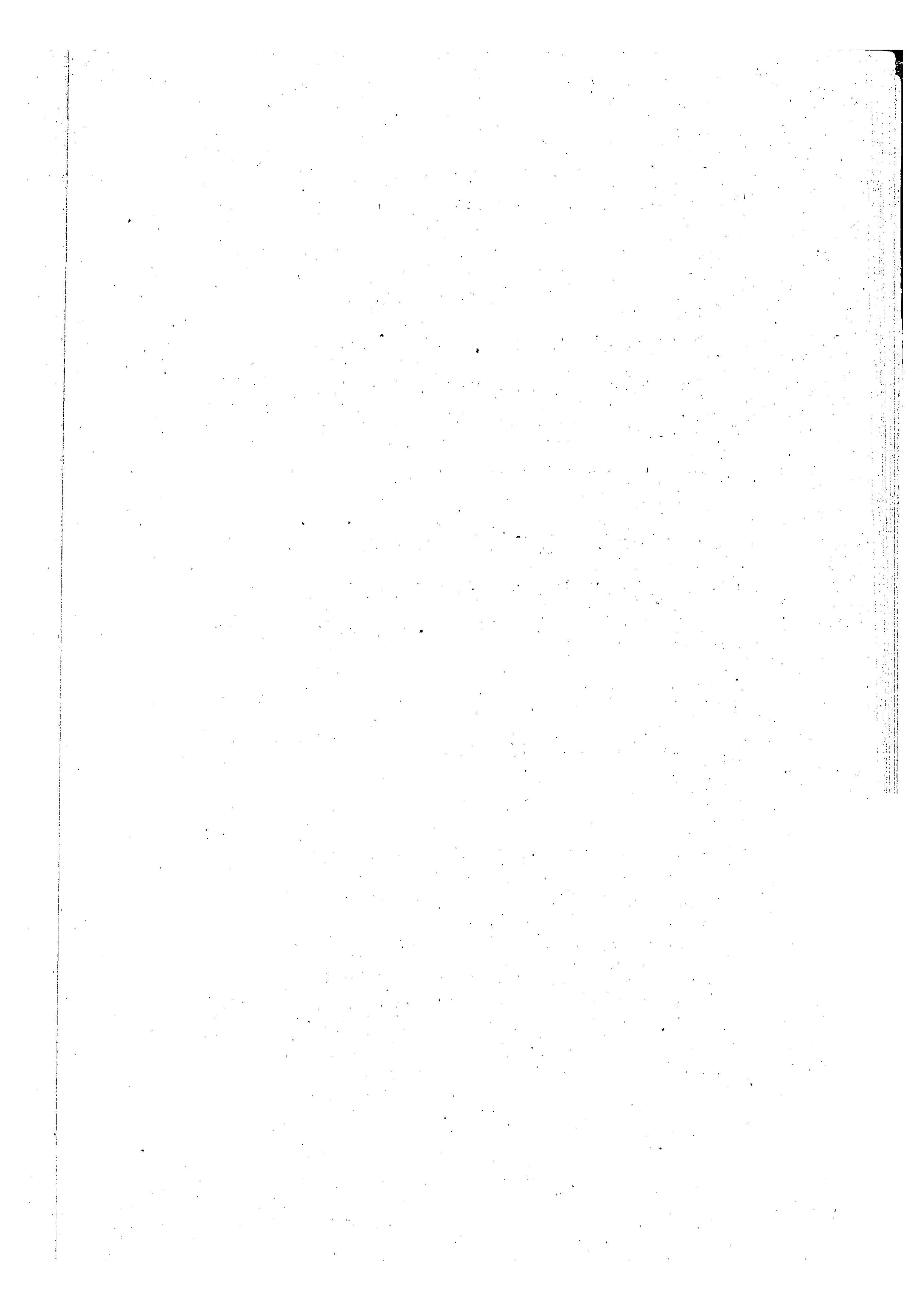
أما ما يحدث اليوم من نشر للوحى ، ما نحتاجه وما لا نحتاجه ، وكأننا نعلن عن سلعة فى أجهزة الاعلام فهى محاولات للتعمية والتغطية والتستر على ما يدور فى الواقع ، وتملق لحس الجماهير الدينى وترك لمشكلاتها وأزماتها وضنكها وهمها ، أو نخطب فى المصلين ونذكر لهم محاسن الصلاة ونحثهم على الصلاة ! وكأننا نريد اعطاءهم ما لديهم من قبل ، أو ندعو الفقراء الى الفقر ونقول « يأيها الناس ، أنتم الفقراء

الى الله والله هو المغنى الحميد » ! أو نقول للجياع « جوعوا تصحوا » ، أو نقول لمجتمع يعانى من التفاوت الطبقى وسوء توزيع الدخل القومى « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » ، أو نتحدث عن عالم الجن والملائكة فى مجتمع يعانى من الجهل والتقليد والتسليم ونحاول تأسيسه على عقلانية واستنارة ، أو نذكر الحور العين ، والجنان والانهار ، والاشجار والظلال فى مجتمع محروم لا مأوى له ولا طعام فنسكنه ونشبعه عن طريق التمنى والخيال ، ولا ندرى أن لكل مقام مقالا •

ان الحديث عن الدين بلا مناسبة ، بل لمجرد المهنة أو التجارة أو لملء الاوقات فى أجهزة الاعلام أو للتكسب أو للدعاية والاعلان كل ذلك لا يرضاه الاسلام •

أما الابتهالات والتواشيح والمدائح فكلها ليست من الاسلام فى شيء بل غناء لاناس يبكون ، وطرب لاناس مهمومين ، ومدح حيث يكثر المداحون •

لقد سمى الفقهاء من قبل « أهل التنزيل » لانهم حاولوا استنباط شريعة تصلح للناس فى حياتهم ، ونحن على درب الفقهاء نسير •



مناهج التفسير ومصالح الامة

أولا ــ مقــــدمة :

ان القرآن هو منبع تراث الامة وأساس حضارتها ومصــــدر معرفتها ، والباعث على معظم الحركات الاجتماعية والسياسية على أربعة عشر قرنا من تاريخها .

وان كل حركات التجديد المعاصرة التى أحدثت أثرا فى عالمنا الاسلامى المعاصر انما خرجت كلها من فهم القرآن ومنهج تفسيره . وقد ارتبطت الحركة الوطنية والدعوة الى الاستقلال فى المغرب العربى بالاسلام فى ثورة الريف بالمغرب ، وحركة التحرر الوطنى بالجزائر ، والسنوسية وعمر المختار بليبيا ، وبرابطة علماء الجزائر ، وبعلماء الزيتونة وجامع القرويين بتونس . كما ارتبطت به أيضا فى المشرق العربى فى الحركة المهدية بالسودان ، والوهابية بالحجاز ، وبالكواكبى فى الشام ، وبالافغانى فى مصر . وتعدى الامر الى العالم الاســلامى ككل فى باكستان وتصورها كدولة فى شعر اقبال وأخــيرا فى الثورة الاسلامية بايران .

ولما كان فهم القرآن لا يتأتى الا بمنهج فى التفسير عن وعى أو لا وعى ، فان مناهج التفسير كانت هى المقدمة الضرورية لفهم القرآن

الملتقى الخامس عشر للفكر الاسلامى فى الجزائر ، ذو القعدة ١٤٠٠ ، سبتمبر ١٩٨١ .

ولتحويله من وحى الهى الى مقصد انسانى ، ومن كلام الله المنزل على النبى الى كلام البشر الموجه الى الجماعات الانسانية المختلفة • ولما كان هذا التفسير لا يتم فى فراغ بل فى زمان ومكان معينين ، فى لحظة تاريخية محددة فرض ذلك علينا منهجا معينا فى التفسير يأخذ بعين الاعتبار مصالح الامة وحاجات المسلمين ويواجه قضايا العصر الاساسية • لذلك ارتبط منهج التفسير الجديد بالمنهج الفقهى القديم لما كان الفقه هو استنباط الاحكام ومواجهة الواقع الجديد • كذلك ارتبط بحركات الاصلاح الدينى ، يشد أزرها ويقويها ويعيد صياغتها ويطورها • كما ارتبط بحركات التجديد المعاصرة التى تود نقل الاصلاح خطوة أخرى ، من الاصلاح الدينى الى النهضة الشاملة ، ثم من النهضة الشاملة وما يتبعها من عقلانية وتنوير الى الثورة الاجتماعية والسياسية •

وتستعمل الفاظ اتجاه ، ونظرية ، ومنهج بمعنى واحد تقريبا خشية الدخول فى تفريعات نظرية خالصة لا ينتج عنها أثر عملى • والحقيقة أن التفسيرات القديمة اتجاهات لم تتحول بعد الى نظريات محكمة أو مناهج مرتبة ، تقوم كلها على مبدأ واحد هو التأويل قبولا أو رفضا وما يتبعه من قول بالمأثور أو بالرأى واعتماد على النقل أو العقل ووقوع فى التشبيه أو دفاع عن التنزيه • وسيتم الاشارة اليها كمناهج فى التفسير ، أملا فى أن تتحول على أيدى الباحثين من اتجاهات الى نظريات الى مناهج محكمة • وقد كتب هذا البحث بطريقة الترقيم للافكار امعانا فى الوضوح والدقة ، وتجنبا لفصاحة الخطباء واحساسات الشعراء وبلاغة الادباء وحتى تسهل مراجعتها ومناقشتها وتأسيسا لعقلانيتنا المعاصرة ، وحرصا على بداهة الرؤية وصدقها •

ثانيا ــ مناهج التفسير فى تراثنا القديم :

ويمكن احصاء اتجاهات التفسير ونظرياته فى تراثنا القديم فى عدة مناهج رئيسية هى :

١ ــ المنهج اللغوى :

وقد ظهر هذا المنهج فى عدة تفسيرات لغوية نظرا لان العصر كان عصر لغة وبلاغة وفصاحة وبيان[١] ٠ وكان العرب أهل خطابة وشعر ٠ فكان من الطبيعى أن يظهر التفسير اللغوى كطابع للعصر خاصة وأن القرآن نفسه كتاب بلاغة ، ويمكن استعماله كشواهد لغوية مثل الشعر العربى القديم وخطب العرب وأمثالهم٠ وقد آمن بعض المسلمين بالاسلام ابتداء من اللغة وفصاحة القرآن ، وظهرت نظريات اعجــاز القرآن للباقلانى والجرجانى وغيرهم ابتداء من الاعجاز اللغوى ٠ وقد قام بهذه التفسيرات اللغويون وليس المفسرين ، باعتبار أن القرآن كتاب بلاغة ٠ ويمتاز هذا المنهج بالآتى :

(أ) التأكيد على أهمية اللغة كمدخل لفهم الوحى ، فالوحى ليس تاريخا مقدسا أو واقعة مميزة فريدة أو شخصا أو حادثة بل هو كلام مكتوب ومقروء ومسموع ومدون بلغة انسانية معنية هى اللغة العربية ٠ فالوحى كلام يحمل معانى تحملها الكلمات ٠ وهنا تبدو أهمية الكلام واللفظ ٠

---

(١) الزجاج : اعراب القرآن ، ثلاثة اجزاء ، تحقيق ودراسة ابراهيم الابيارى ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٢/١٣٨٤ هـ ١٩٦٣/١٩٦٥ م ٠

(ب) الحرص على الدقـــة فى فهم الالفاظ ، ومعرفة معـــانى العبارات ، مما يجعل المفسر متمكنا من النص ، وهو الاصل • لذلك اشترط القدماء معرفة اللغة العربية كأحد شروط التفسير ، وبالتالى أمكن تحاشى الاهواء والانفعالات من تفسير النصوص •

(جـ) معرفة دقيقات المعانى بمعرفة أساليب البيان العربى فى التقديم والتأخير ودلالات الحروف وأنواع الاسماء والافعال ، والمعانى الاشتقاقية للالفاظ مما يجعل اللغة مدخلا دقيقا ومضبوطا للمعانى ، والمعانى رؤى للاشياء والوقائع • واللغة على ما يقول المعاصرون « منزل الوجود » •

(د) الحفاظ على سلامة اللغة العربية وعلى حيويتها واستمرارها فى التاريخ ، ودوام لغة القرآن « بلسان عربى مبين » (٢٦ : ١٩٥) ، وقوفا أمام مظاهر الانهيار اللغوى والاهمال والتسيب التى أدت الى نشأة العامية وسيادتها فى الاسواق واستعمالها فى الحيـــاة اليومية وانزواء لغة القرآن فى المساجد والزوايا والمعاهد الدينية •

(هـ) الاقتراب من الصور الفنية ووظيفة « التخييل » فى القرآن الكريم ، وادراك أهمية ما سماه المحدثون « التصوير الفنى » فى القرآن ، وظهور البعد النفسى وأهمية ايصال المعانى عن طريق احداث الاثر والتأثير فى النفوس عن طريق الصورة الفنية واستعمال الخيال •

ومع ذلك فان هذا المنهج له عدة عيوب أهمها :

(أ) الوقوع فى التفسيرات الحرفية التى تغفل المعنى كليـــة وتجعل المعركة كلها تدور حول الالفاظ ودلالات الالفاظ ودقيقـــات المعانى اللفظية وتغفل المقاصد الكلية للوحى ، ونحن معروفون بثقافة

اللفظ وبحضارة الكلمة ، وبسياسة الخطاب الاجـوف ، وبخلافات الكلمات الرنانة ، وبنظم « الميكروفونات » العالية وبدخول الدروب بمنطق الناى والربابة وبالعنتريات التى ما قتلت ذبابة •

(ب) الوقوع فى المماحكات اللفظيـة ، والشواهد التاريخيـة المتعارضة ، والخلاف بين النحاة ، بين البصريين والبغداديين ، والاعتماد على لهجات القبائل ، والاحتكام الى لهجة قريش ، وبالتالى استحالة فهم القرآن الا من اللغويين والنحاة ، ولما بعد العهد علينا لم يبق أمامنا الا بدو الصحراء والعربان •

(ج) ان اللغة ليست ألفاظا فقط بل هى أيضا معانى • بل أن الالفاظ مجرد وسائل لحمل المعانى • فبالرغم من أهمية ألفاظ القرآن وعباراته الا أنها مجرد أدوات للتعبير عن المعانى المستقلة التى يمكن ادراكها مباشرة فيما وراء الالفاظ • فالمنهج اللغوى يعطى الاولوية للالفاظ على المعانى من حيث الفهم فى حين أن المعانى من حيث الادراك لها الاولوية على الالفاظ •

(د) اغفال الواقع الاجتماعى والتاريخى الاول الذى نزلت فيه النصوص وهى المسماة فى علوم القرآن باسم « أسباب النزول » ، واغفال تطور الشريعة والمسمى أيضا فى علوم القرآن باسم « الناسخ والمنسوخ » وكأن النص لا زمان له ولا مكان ، واغفال الفرق بين المكى والمدنى ، ودلالات علوم القرآن •

(هـ) اغفال واقع المسلمين الحالى وكأن النص ليس خطابا موجها لهم ، وكأن حياة المسلمين ليس هو موضوع الخطاب ومقصده ، وكأن

الناس تأكل اللغة وتسكن فى البلاغة ، تحل مشاكلها وأزماتها بالكلمات حتى حل الشعر الحديث محل ألفاظ القرآن لانه يصور مآسى الناس .

(و) استحالة تطبيق المنهج اللغوى اليوم نظرا لان ابداع العرب الآن لم يعد فى اللغة بل ربما فى حركات التحرر الوطنى وثوراتهم ضد الاستعمار وسعيهم للوحدة ، وبدايتهم للنهضة ، وأصالتهم كشرط لابداعهم ، وتميزهم وهويتهم التى لم تتميع أو تتغرب بعد .

٢ — المنهج التاريخى :

وهو المنهج السائد فى كتب التفاسير الضخمة والتى غلب عليها منهج النقل والرواية[1] . ومعروف عن القدماء باسم « التفسير بالمأثور » . وقد ظهر هذا الاتجاه فى عصر كانت المعرفة فيه تأتى عن طريق النقل والرواية ، وتبجيل الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، وأهمية الاوائل على الاواخر ، وفضل السلف على الخلف ، والحرص على التدوين ، وذكر المآثر وحفظ التراث . وتمتاز هذه التفسيرات بالآتى :

(١) ابن جرير الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٣٢٣هـ . الحسين بن مسعود البغدادى : معالم التنزيل ، القاهرة ، المنار ١٣٤٥هـ . الحافظ عماد الدين بن كثير : تفسير القرآن العظيم ، المطبعة التجارية ، القاهرة ١٣٥٦ هـ . عبد الرحمن الثعالبى : الجواهر الحسان ، الجزائر ١٣٢٣هـ . جلال الدين السيوطى : الدر المنثور ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ١٣١٤ هـ أبو طاهر الفيروزبادى : تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ، المطبعة الازهرية ، القاهرة ١٣٤٤هـ . أبو الليث السمرقندى : بحر العلوم ، مخطوطة بدار الكتب رقم ٣ . أبو اسحق الثعالبى : الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، مخطوطة بالازهر رقم (١٣٦) ٥٥٦١ . أبو عطية الاندلسى : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، مخطوطة بدار الكتب رقم ٣٥٦/١٠ .

(أ) المعلومات التاريخية الواسعة فى موضوعات الوحى وتدوين القرآن والسنة وحياة الرسول والصحابة ، وكيفية نشأة الدولة الاسلامية والفتوح حتى أنه ليصعب التمييز بينها وبين كتب التاريخ • وقد قام بها المؤرخون مثل الطبرى وابن كثير ، وكأن التفسير هو اعطاء أكبر قدر ممكن من المعلومات حول الموضوع •

(ب) الموضوعية والنزاهة والحياد والتقوى الباطنية نظرا لانهم كانوا يروون عن الصحابة والتابعين ، فلا يوجد أثر كبير للخلافات المذهبية والعقائدية الا القليل • وظهرت الثقافة العربية الممثلة فى الشعر القديم كأحد شواهد التفسير • وكانت تظهر به أحيانا بعض الجوانب الفقهية واللغوية •

ولكن عيوب هذه التفسيرات أكثر فمنها :

(أ) احتمال وقوع الخطأ فى منهج الرواية والنقل وبالتالى يكون التفسير كله خطأ ، وعدم وجود مقياس آخر لصدق المعرفة مثل العقل أو الحس والمشاهدة لصحة النقل ، بالرغم من أنها مقاييس موجودة سلفا فى شروط التواتر • فالاعتماد على الصدق الخارجى وحده لا يكفى لايجاد الصدق الداخلى •

(ب) دخول كثير من الاسرائيليات نتيجة للنقل والرواية ونظرا لعدم التمييز بين مصادر النقل وبالتالى دخول كثير من أساطير الاولين وقصص الانبياء وتفصيلات لم يذكرها القرآن وفى كثير من الاحيان موضوعة من الادب الشعبى •

(ج) تحويل الوحى الى أشياء ووقائع وحوادث وشخصيات فى حين أن الوحى حقائق وتجارب بشرية • ويصاب الانسان سريعا بالملل

والضجر من هذه التفسيرات نظرا لعدم وجود أى بناء روحى ذاتى كما هو الحال فى التفسير الصوفى . وكثير من المعلومات غير موجهة لغاية أو لهدف وكأن المعلومات وسيلة وغاية فى نفس الوقت .

(د) ربط القرآن بظرف تاريخى واحد فى حين أن التاريخ متجدد وحوادثه متغيرة ، وبالتالى تحويل الوحى الى تاريخ حقبة معينة من الزمان لشعب معين فى منطقة جغرافية بعينها وهذا انكار لحقائق الوحى العامة .

(هـ) عدم الاعتماد على العقل والنيل من التفسير بالرأى واعتباره هوى ، وبالتالى يكون أقل قيمة من التفسير بالمعقول ، واغفال المعانى المستقلة عن التاريخ التى يدركها العقل وتكشف عنها التجارب الانسانية.

(و) اغفال الواقع التاريخى الحالى والذى لا يمكن للمؤرخ المفسر القديم أن يتنبأ به ، فالتفسير هنا يتعامل مع الماضى وليس مع الحاضر ، ويتعامل مع التراث القديم وليس مع الابداع الحالى ، فكأن الوحى موضوع القدماء لا شأن للمحدثين به .

٣ — المنهج الفقهى :

وهو المنهج الغالب على التفسيرات الفقهية للقرآن لرصد أحكام الشريعة[1] . وقد نشأت فى وقت تدوين الشريعة وذكر الخلافات بين

---

(١) الجصاص : احكام القرآن ، الهيئة المصرية ، القاهرة ١٣٤٧ هـ (حنفى) . أبو بكر بن العربى : أحكام القرآن ، السعادة ، القاهرة ١٣٣١ هـ (مالكى) . القرطبى : الجامع لاحكام القرآن ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٣٥ ...
=

المذاهب ، وظهور فقه الفرق الدينية ومحاولا تأسيس دويلات مذهبية فى حاجة الى نظام سياسى واجتماعى . وتمتاز هذه التفسيرات بالآتى :

(أ) اعطاء أهمية قصوى للجانب التشريعى فى الوحى وبيان أن الوحى ليس مجرد عقيدة بل شريعة ، وأن الشريعة ليست فقط من استنباط الفقهاء بل منصوص عليها فى الوحى ، وأنها قادرة على تنظيم مجتمع وتأسيس دولة .

(ب) تجاوز الخلاف المذهبى العقائدى الى نوع من وحدة التشريع للامة الاسلامية ومحاولة الاجتماع على الحد الادنى من الاتفـاق العملى على تسيير حياة الناس بعد الوقوع فى الحد الاعلى من الخلافات النظرية .

(جـ) تنوع التفسير الفقهى طبقا للمذاهب الكلامية وبيان كيف أن الشريعة بالرغم من أنها نظام عملى الا أنها تخضع لفلسفة التشريع أى للعقائد النظرية . فالقانون أساسا تصور للقانون يقوم على غاية ويخدم مصلحة .

=

١٩٤٥ (مالكى) . مقداد السيورى : كنز العرفان فى فقه القرآن ، تبريز ١٣١٤هـ (اثنا عشرى) . الكيا الهراسى : احكام القرآن ، مخطوطة بمكتبة الازهر رقم (٣٩٨) ٧٨٦٦ (شافعى) . الجلال السيوطى : الاكليل فى استنباط التنزيل ، مخطوطة بمكتبة الازهر رقم ١٧٨٥ (شافعى) . يوسف التلانى : الثمرات اليانعة ، مخطوطة بدار الكتب رقم ٤١ (زيدى) .

ومع ذلك فلهذه التفسيرات بعض العيوب منها :

(أ) ابتسار الوحى وتقليصه ورده الى أحد جوانبه وهى الشريعة ، والوحى عقيدة وشريعة ، تصور ونظام ، نظر وعمل .

(ب) سيادة الخلافات المذهبية والعقائدية على التفسير ، وتوريث هذا الخلاف حتى الآن لعشرات الاجيال ، وبالتالى ضياع الوحدة الباطنية فى الشريعة التى تعبر عن وحدة الامة . لقد اختلفت الآراء وكشفت عن درجة من التعصب والتحامل . وأصبح يضرب بها المثل الآن على التشتت والتفرق بقولنا سخرية لحل أى معضلة « فيها قولان » !

(ج) عدم بيان الحكمة من الشريعة ومقاصد الوحى والوقوع أحيانا أحيانا فى الصورية الفقهية وكأن القانون لا هدف له ولا غاية ، وبالتالى غياب التفسير بالمقاصد والغايات ، ومن ثم ظهرت بعض القوانين منتفية للحكمة ، ضارة بالناس خاصة فى فقه الفرق .

(د) ارتباط الشريعة بالظروف التاريخية القديمة التى كانت وراء استنباطها وتغير هذه الظروف الآن ووجود ظروف تاريخية أخرى تجعل الفقه القديم بغير ذى دلالة أو نفع فى كثير من الحالات .

(هـ) عدم تطوير الشريعة طبقا لظروف كل عصر ، وبقائها فى نفس الظروف القديمة وتثبيتها على ذلك حتى تحولت من فقه تاريخى خاص الى فقه كلى وشامل لكل العصور فتحجرت ، وضاعت حياتنا وبحثنا لمجتمعاتنا عن نظم وشرائع أخرى أكثر تطورا أو ملائمة .

(و) اختلاف الحكم النظرى الفقهى عن الواقع العملى مهما حدث تجديد فى الجانب الاول مثل قانون الاحوال الشخصية ، وقوانين

الربا وتشريعات العمل ، وكأن الواقع يفرض تشريعه الخاص طبقا للمصلحة العامة ويجب كل تشريع مستنبط سلفا .

٤ ــ المنهــج الصــوفى :

وقد ظهر هذا المنهج فى التفسيرات الصوفية الكلية أو الجزئية(١) . وقد ظهرت هذه التفسيرات فى ظروف تاريخية خاصة بعــد تكوين جماعات الرفض السلبية وانتهاء جماعات الرفض الفعلية وتصفيتها واستئصال مقاومة آل البيت والشيعة والخوارج ، والجوئها الى الرمز والاشارة تخفيا عن الاعين ، وانقاذها النفس دون الغير ، والباطن دون الظاهر ، ووقوعها فى الحب الالهى كتعويض عن الكره الانسانى ، وقد امتاز هذا المنهج بعدة أشياء منها :

(أ) البدء بالتجربة الحية وليس بالنص ، وتجاوز منهج النقل والرواية الى منهج التجربة الباطنية : عن قلبى عن ربى أنه قال ... ، والبحث عن التجربة الحية وراء النص والتى خرج منها حتى يمكن تأويله باعادة نفس التجربة وفهمه ابتداء منها .

(ب) تحويل الوحى الى تجارب انسانية عامة بصرف النظر عن ايمان الفرد ومذهبه وملته وهى التجارب التى تشارك فيها الانسانية

---

(١) سهل التسترى : تفسير القرآن الكريم ، السعادة ، القاهرة ١٣٠٨هـ. ابو محمد روزبهان : عرائس البيان فى حقائق القرآن ، الهند ، ١٣١٥ هـ . عبد الرازق القاشانى : تفسير ابن عربى (تأويلات القاشانى) ، الاميرية ، القاهرة ١٢٨٣هـ . ابو عبد الرحمن السلمى : حقائق التفسير ، مخطوطة بمكتبة الازهر رقم ١٠٩٣ . نجم الدين داية وعلاء الدولة البيابانكى : التأويلات النجمية ، مخطوطة بدار الكتب رقم ٣٦ .

جمعاء ، حقائق وجدانية بديهية تكشف عن جوهر الانسان والحياة وتكون معادلة للوحى ، فالوحى كشف للطبيعة ورؤية للوجود وليس قهرا لها أو ادانة له •

(ج) النظر بعين الوحدة الى كل شيء ، الى قوى الانسان النظرية والعملية ، اللغوية والفكرية ، القولية والفعلية ، النظرية والوجدانية ، الذاتية والموضوعية ، الانانية والغيرية ، والوصول الى نظرية عامة فى الوحدة ، وحدة الشهود ، وحدة الوجود ، وحدة الاديان تكشف عن أحد معانى التوحيد •

(د) اعطاء الاولوية للجانب العملى على الجانب النظرى ، والبداية بالعمل من أجل الوصول الى النظر ، والتركيز على أهمية الرياضة والمجاهدة مما يجعل الصوفى نشطا متحمسا فاعلا عاملا مؤثرا مجاهدا •

(هـ) أهمية الارتقاء والحركة والتطور والاتجاه نحو القصد والهدف أو ما يسمى بالغائية ، وتحقيق هذا الهدف على مراحل وتدبر بناء على خطة يتم انجازها فى الزمان ، والقدرة على الانتظار ، والتخطيط البعيد المدى •

(و) أهمية الصراع والتنافس والتقابل والتعارض فى أحوال النفس ، ومن هذا الصراع ينشأ جدل العواطف والانفعالات من غيبة وحضور ، صحو وسكر ، هيبة وأنس ، خوف ورجاء ، فقد ووجد •

ومع ذلك فالمنهج الصوفى له بعض العيوب منها :

(أ) الوقوع فى التأويل بلا شروط من اللغة أو أسباب النزول حتى ابتعد التفسير عن واقعه الاصلى وأصبح غاية فى ذاته يهدف الى

اشباع الذوق النظرى والوجدانى ، واستحالة المعنى الواضح ، وتحويل الحكم الى متشابه ، والظاهر الى مؤول ، والمبين الى مجمل ، والحقيقى الى مجازى •

(ب) الايغال فى التحليلات النظرية خاصة فى التصوف النظرى ، وتحويل الوحى الى تأملات الهيئة ونظريات ميتافيزيقية ابتعدت عن الحياة العملية وليس لها أى أثر على الاوضاع الاجتماعية والسياسية •

(ج) التطرف فى الجانب الوجدانى فى التصوف العملى بعد تحوله الى علم لبواطن القلوب حتى أصبح التصوف تيارا معاديا للعقل والنظر ، وغلب عليه الكشف والالهام والعلم اللدنى ، وحل الخيال محل الفعل ، والوهم محل الواقع ، وتخيل الصوفى واهما أن التوحيد قد تحقق فى الوحدة بالفعل •

(د) اعطاء الاولوية المطلقة للداخل على الخارج والباطن على الظاهر ، وللقلب على الجوارح ، وللذاتية على الموضوعية ، وللاخلاق الباطنية على النظم السياسية والاجتماعية الخارجية حتى استحال العمل فى العالم الخارجى •

(هـ) الوقوع فى العزلة وترك المشاركة ، واعطاء الاولوية للفرد على الجماعة وللأنا على الآخر ، وبالتالى استحال العمل مع الجماهير وفى التاريخ باستثناء الطرق الصوفية كجماعات مغلقة •

(و) اسقاط التدبير ، والوقوع فى الجبرية المطلقة ، واسقاط الشرائع والتكاليف ، ومحو الفروق بين الاحكام الشرعية طبقا لمنظور الوحدة الشاملة ، تحريم المباح ، ورد المكروه الى المحرم ، والمندوب الى الواجب ، ثم اسقاط المحرم والواجب فى حالة الفناء •

٥ ـ المنهج الفلسفى :

ويظهر هذا المنهج فى التفسيرات الفلسفية والاعتزالية التى تقوم على العقل دون النقل،وتشارك المنهج الصوفى فى التأويل وان كانت تختلف معه فى منهج التأويل العقلى أم الباطنى(١) • وقد ظهرت هذه التفسيرات بعد عصر الترجمة واطلاع المسلمين على الثقافات المجاورة ، ثم تمثلها وفهمها والرد عليها بالاعتماد على العقل والنظر وليس على النص الحرفى • وشارك فى ذلك المعتزلة أولا ثم الفلاسفة ثانيا نظرا لما بينهما من اتفاق حول منهج العقل والنظر •

وقد كان لهذه التفسيرات عدة مزايا أهمها :

(أ) تجاوز منهج النص والنقل والرواية ، ومحاولة التعرف

---

(١) من تفسير الفلاسفة :

الفخر الرازى : مفاتيح الغيب ، الاميرية ، القاهرة ١٢٨٩هـ • البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، دار الكتب العربية ، القاهرة ١٣٣٠هـ . النسفى : مدارك التنزيل وحقائق لتأويل ، السعادة ، القاهرة ١٣٢٦ هـ . الخازن : اللباب التأويل فى معانى التنزيل ، التقدم ، القاهرة ١٣٢١ هـ . أبو حيان : البحر المحيط ، السعادة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ . الجلال المحلى والجلال السيوطى : تفسير الجلالين ، دار احياء الكتب ، القاهرة ١٣٤٥هـ . النيسابورى : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، الاميرية ، القاهرة ١٣٢٢هـ . الخطيب الشربينى : السراج المنير ، الاميرية ، القاهرة ١٢٩٩ هـ . الالوسى : روح المعانى ، ادارة الطباعة المنيرية ، القاهرة

ومن تفسير المعتزلة :

القاضى عبد الجبار : تنزيه القرآن عن المطاعن ، الجمالية ، القاهرة ١٣٢٩هـ . الشريف المرتضى : آمالى الشريف المرتضى ، السعادة ، القاهرة ١٣٢٥هـ . الزمخشرى : الكشاف ، مطبعة محمد مصطفى ، القاهرة ١٣٠٨هـ .

على المعانى المستقلة وادراكها وايجاد الادلة على صدقها من داخل المعنى وليس من خارجه ، حتى أصبح الوحى مرادفا للفلسفة ، لا فرق بين الدين والفلسفة أو بين النبوة والعقل .

(ب) البعد عن التعصب وتكفير الخصوم وايثار التسامح واتساع الافق والنظرة الشمولية ، وضم الخصوم كحالات جزئية فى تصــور أعم وأشمل بل والدفاع عنهم ومحاولة اقالتهم من عثراتهم وايجــاد الاعذار لهم .

(جـ) القدرة على التعامل مع الحضارات الاخــرى واحتوائها وتمثلها والرد عليها وأخذ الحقائق من أى حضارة ومن أية أمة بل والدفاع عن فلسفة الامم الاخرى ومفكريهم وشرحهم وتعميقهم وجعلهم روادا للفكر البشرى .

ومع ذلك فهناك بعض العيوب مثل :

(أ) الوقوع فى التأمل النظرى الخالص والشطحات الفلسفية والنظريات البعيدة عن التصديق اذ أن العقل قادر على تبرير كل شىء وعلى السير فى كل طريق وأصبح البحث عن الحكمة غاية فى ذاتها .

(ب) الايغال فى تحليلات العقل حتى أصبح حاويا لكل شىء مقياسه الاتساق . تحول الواقع كله الى معقول ، ولم تعد هناك تجربة أو واقعة أو أمر يند عن العقل . المنطق عقلى ، والطبيعيات عقلية ، والالهيات عقلية ، والشر عقلى ، والموت عقلى .

(جـ) تسرب بعض آثار الفلسفات القديمة من الحضارات المجاورة

من فارس واليونان وتحويلها الى نظريات اسلامية مما أحدث تغييرا فى بعض محاور الحضارة الاسلامية ومراكزها مثل الالوهية ، وخلق العالم ، وخلود النفس ، فى حين أنها حقائق واضحة بذاتها فى الوحى لم تكن بحاجة الى كل هذا العناء .

(د) ظهور بعض الجوانب الاشراقية بالرغم من سيادة العقل كما ظهر فى نظريات الاتصال بالعقل الفعال ونظريات الفيض أو الصدور التى تكشف عن الاشراق فى المعرفة وفى الوجود ، ثم انتقال ذلك الى السياسة والمجتمع فنشأ الاشراق الاجتماعى والسياسى فى « المدينة الفاضلة » من القمة الى القاعدة .

(هـ) سيادة التصور الحيوى فى الطبيعة والفلك ، وظهور نظريات العقول العشرة والنفوس والافلاك ، وشوق الطبيعة وسعيها نحو معشوقها . الافلاك لها عقول ونفوس ، وبتحركاتها وأدوارها تتحكم فى كل شىء على الارض ، تسجد لله ، وتسبح بحمده ، وهو من نتائج الاشراق العلمى .

(و) غياب الواقع الاجتماعى والمشاكل اليومية ، وكأن هذه النظريات كانت فلسفة للخاصة الدائرة فى بلاط الحكام وحلقات العلماء لا شأن لها بفلسفة العامة وبمشاكل الناس . تنشأ فى فراغ ، وتدور فى فراغ كما كانت فلسفات القدماء .

٦ — المنهج العقائدى :

وهو المنهج السائد فى تفسيرات المتكلمين وعلماء أصول الدين وكتب

العقائد والفرق[١] • وقد نشأت هذه التفسيرات كجزء من المعـارك السياسية والتى أخذت طابعا عقائديا طالما كانت العقيدة فى المجتمعات الاسلامية تقوم بوظيفة الايديولوجية السياسية • وتمتاز هذه التفسيرات بالآتى :

(أ) الالتزام بالقضايا السياسية والاجتماعية دون أن تقع فى النزاهات النظرية والتأملات الميتافيزيقية ، وتوجيه العقيدة للعمـل السياسى وفرض العمل السياسى نفسه على العقيدة •

(ب) التعبير عن المواقف السياسية التى تعبر بدورها عن صراع القوى الاجتماعية فى المجتمع الاسلامى ، والكشف عن تاريخ الصراع الاجتماعى فى أسسه النظرية فى العالم الاسلامى •

(ج) صياغة مبادىء الايديولوجية الاسلامية وظهور ارهاصات هذه الصياغات فى الاصول الخمسة عند المعتزلة أو فى مبادىء التوحيد والعدل عند الخوارج أو فى عقائد الشيعة الامامية •

(د) استطاع البعض منها تكوين دول مثل الدولة الاموية على

---

(١) (تفسيرات الامامية الاثنى عشرية) :

عبد اللطيف الكارزانى : مقدمة مرآة الانوار ومشكاة الاسرار ، طبع العجم ١٣٠٣هـ . الحسن العسكرى : تفسير العسكرى ، طبع تبريز ١٣١٤ هـ . أبو على الطبرسى : مجمع البيان ، طبع طهران ١٣١٤ هـ . ملا محسن الكاشى : الصافى ، طبع فارس ١٢٤٤هـ . السيد عبد الله العلوى : تفسير القرآن ، طبع طهران ١٣٥٢هـ . سلطان الخراسانى : بيان السعادة ، طبع طهران ١٣١٤هـ . الشوكانى : فتح القدير ، الحلبى ، القاهرة ١٣٤٩هـ (زيدى) . محمد اطفيش : هميان الزاد الى دار المعاد ، زنجبار ١٣١٤هـ (خارجى) .

عقائد المرجئة ، والدولة الفاطمية على عقائد الشيعة ، والدولة الحجازية اليوم على الدعوة الوهابية ، والجمهورية الاسلامية بايران على الثورة الاسلامية •

ومع ذلك يعاب على هذه التفسيرات عدة أمور منها :

(أ) الوقوع فى الشيئية فى العقائد والتفسير الحرفى للنصوص وتصور العقائد على انها أشياء وليست بواعث للسلوك ، والجنة والنار على أنها أماكن ، واليوم الآخر على أنه نهاية للزمان ، والتقوى على أنها شعائر ، والايمان على أنه مظاهر •

(ب) الاعتماد على النص ، وجعل العقل لاحقا للنص كما هو الحال عند الحشوية وأهل الظاهر خاصة وأهل السنة عامة مما جعل وظيفة العقل فى تبرير المعطيات اعتمادا على سلطة الكتاب وليس فى تحليل الواقع اعتمادا على نفسه •

(ج) الدخول فى معارك نظرية لا ينتج عنها أثر عملى مباشر مثل الذات والصفات وخلق القرآن ، ولو أن دلالاتها الحضارية معترف بها مما دعا البعض الى « الجام العوام عن علم الكلام » واعتباره هوى ، يبعد الانسان عن العمل ويوقعه فى المحظور منه أو المشكوك فيه •

(د) اخراج بعض النظريات لتبرير النظم القائمة مثل القضاء والقدر لتبرير شرعية الدولة الاموية والرضوخ لها والتسليم بها ، وعقائد الامامة من قريش ، وتأجيل العمل على الايمان استبعادا للمعارضة القومية أو لترك العمل السياسى •

(هـ) تركيز المشكلة السياسية كلها حول موضوع الزعيم أو الامام وصفاته دون التعرض للجوانب الاخرى مثل التنظيمات الشعبية والمؤسسات الدستورية وكأن السلطة السياسية هى محور الدولة وأداة التغيير دون غيرها •

(و) القضاء على وحدة الامة من خلال التفرق والتشيع والتحزب « كل حزب بما لديهم فرحون » (٣٠ : ٣٢) ، وتكفير بعضها البعض ، فاستحال الحوار ، وسالت الدماء ، أخذ أصحابها لقب أهل الاهواء والبدع والزيغ وليس أهل الفكر والنظر والبرهان •

(ز) سادت فرقة واحدة هى فرقة أهل السنة التى تتصور التاريخ على أنه انهيار مستمر من الوحدة الى الفرقة ، ومن الايمان الى الكفر ، ومن الهداية الى الضلال ، فالسلف خير من الخلف مما دفع بالشيعة الى التصور المعارض وهو الخلاص فى المستقبل على يد المهدى المنتظر ، فالتاريخ تقدم وازدهار وتفجر وثورة •

٧ ـ المنهج العلمى :

وهو المنهج الذى ظهر أخيرا بعد أن بدأت الامة الاسلامية دورتها الحضارية الثانية فترجمت عن الغرب من جديد • ولما كان الغرب قد أقام حضارته هذه المرة على العلم فقد بدأت ترجمات الكتب العلمية والترويج للنظريات العلمية حتى أصبح العلم أحد المحاور الجديدة فى حياتنا الثقافية تقليدا للغرب وتمثلا لنظرياته العلمية وليس تأصيلا للعلم القديم • فكان من الطبيعى أن تنشأ التفسيرات العلمية للقرآن متبنية بعض نظريات العلم ورافضة للبعض الآخر بناء على تصورنا

الاسلامى المحافظ للاسلام ونقلنا للعلم الغربى دون الحصول على مقدماته وشروطه(١) .

ولهذه التفسيرات بعض المميزات أهمها :

(أ) الرغبة فى التحديث والجرأة على الجديد والاقبــال على منجزات العصر ، وخروج من التقوقع على الذات ، واعادة التعلم من الغير ، وأخذ الحكمة من أى مصدر كانت حتى ولو كانت من الامم القاصية عنا مما يعطى هذا التفسير ميزة على تفسير القدماء .

(ب) احترام العلم نسبيا وتوجيه العقل نحو العلم مما يساعد على اعادة التوازن فى حياتنا القومية بين العلم والدين ، ومواجهة لون آخر من ألوان الفكر البشرى من جهد العلماء وليس فقط من عطاء الانبيــاء .

(جـ) اللحاق بآخر انجازات العلم واعادة التفسيرات طبقا لآخر النظريات العلمية ، وبالتالى الاتجاه أكثر فأكثر نحو التفسير الزمنى التاريخى المتغير فى مقابل التفسير الابدى الدائم الصالح فى كل زمان ومكان .

ومع ذلك فان عيوب هذه التفسيرات كثيرة منها :

(أ) البداية من الآخر وليس من الذات احساسا بالدونيــة

---

(١) طنطاوى جوهرى : الجواهر فى تفسير القرآن الحكيم ، مصطفى الحلبى ، القاهرة ١٣٤٠ — ١٣٥١هـ . أبو زيد الدمنهورى : الهــداية والعرفان ، مصطفى الحلبى ، القاهرة ١٣٤٩هـ .

أمامه فينشأ مركب النقص لدينا أمام الغير ، ونتحول الى مستهلكين لحضارة الغير لا مبدعين ، ناقلين لا مكتشفين ، تلاميذ الى الابد دون أن نكون أساتذة .

(ب) استمرار النقل المستمر الى فترة طويلة دون اللحاق بالنظريات العلمية لان معدل انتاج الحضارة العلمية أسرع بكثير من معدل الترجمة عنها ، فنظل لاهثين ، وتصيبنا الصدمة الحضارية ، وكلما ترجمنا تتسع الفجوة بين الانا والغير ، ويكون التخلف هو قدرنا .

(ج) اقتلاع العلم من جذوره فى الغرب وأخذ آخر منجزات العلم دون التصور العامى للعالم الذى ينشأ بناء على تطور العلم وظروف نشأته وتغييره للوعى الاجتماعى القومى لدى الشعوب ، والشهادة فى سبيله . فأخذ العلم دون التصور العلمى يجعل العلم مجرد ترجمات ومعارف دون أن تحدث اعادة بناء لتصورنا العالم على أساس تصور علمى ، ونكون كالحمار يحمل اسفارا ، مثقفين وعلماء يحملون المعارف وعاجزين عن تحليل الواقع علميا .

(د) الانقطاع عن تراث الامة العلمى والجهل به والانفصال عنه وهو الذى قام على تصور علمى للعالم لم يقدر له أن يعيش فى وعينا القومى ، وهو الذى ساهم فى تطور العلم الغربى وفى احداث التصور العلمى المصاحب له ، ولا يكفى فى هذه الحالة مجرد الفخر بالانجازات العلمية للآباء والاجداد صناع الحضارة ، ومعلمى البشرية .

(هـ) الاعجاب بالعلم دون غيره من انجازات الحضارة الغربية فى الفن والسياسة والاقتصاد والاجتماع وأساليب الحياة ، فى حين أن

العلم الغربى أحد مظاهر الحضارة الغربية ، ومرتبط بها ارتباط الجزء بالكل ، فأخذنا العلم دون حضارة العلم وزرعناه فى بيئة ثقافية ليست بيئته فحدث التجاور فى حياتنا بين الحاسب الآلى وضريح الولى •

(و) البداية بالعلم وتفسير الدين طبقا لآخر اكتشافاته يعطى العلم زمام المبادرة ويجعل الدين مجرد لاحق بالعلم • فيكون الفضل للعلم على الدين ، ويكون السبق للعلماء على الانبياء ، ويكون النبى هو العامل المحرك للمطلق ، مما يعطى العلم أكثر مما يستحق والدين أقل مما يستحق •

(ز) التوفيق بين الدين والعلم وأخذ من العلم ما يتفق مع الدين ورفض ما يخالفه (التفسير المحافظ) أو أخذ من الدين ما يتفق مع العلم (التفسير التقدمى) وبالتالى ابتسار العلم والدين معا ، وتأويل أحدهما بالآخر مما يؤدى الى سوء فهم للدين والعلم على حد سواء •

(ح) سوء فهم العلم حتى يمكنه تأييد الدين خاصة الايمان بالغيبيات وسوء فهم الدين لتأييد العلم الذى يسمح بتأويل الغيبيات وسوء تفسير العلم واتهام بعض نظرياته بالالحاد أو الكفر وسوء تفسير الدين لادانة العلم أو لإعلان برائته ، والوقوع نهائيا فى ازدواجية المعرفة والمنهج •

(ط) تحويل الامر كله الى مكسب وتجارة من أجهزة الاعلام فى مجتمعات أمية أنصاف متعلمة تتعجب من حكمة الله فى المخلوقات ومن ايمان العلماء بالغيبيات ، فيرسخ ايمانها المحافظ الذى يؤيده العلم ولا ترى فى العلم الا تأييدا لعقائد الايمان •

(ى) اغفال القضايا الاجتماعية والسياسية التى تشغل بال الجماهير والتى عليها يتوقف حياتهما وتزييف الوعى القومى بشغله بموضوعات تبعده عن واقعه الاجتماعى والسياسى وكأن الله لا يظهر الا فى الطبيعة دون المجتمع •

٨ — المنهج الاصلاحى :

وهو المنهج الذى ظهر فى تفسيرات المصلحين الدينيين منذ القرن الماضى تعبيرا عن أوضاع الامة الاجتماعية والسياسية ومحاولة تغييرها والنهوض بها والقضاء على مظاهر التخلف فيها من احتلال وتفكك وتسلط وفقر وجهل وفتور ، وهو آخر المناهج صياغة وتقدما وارهاصا وتجاوزا لمناهج القدماء(١) • ويمتاز هذا المنهج بالآتى :

(أ) الالتزام بقضايا الامة الاسلامية ومحاولة النهوض بها والمساهمة فى عمليات التغير الاجتماعى وعدم تحويل التفسير الى مهنة أو وظيفة بل هو رسالة ودعوة وقضية ، وسلاح ضد التسلط والقهر والفقر وجميع مظاهر التخلف •

(ب) كان أصحاب هذا التفسير من النشطين سياسيا فى مجتمعاتهم مثل محمد عبده ورشيد رضا وبالتالى نشأت تفسيراتهم من خضم

---

(١) الشيخ محمد عبده : تفسير جزء عم ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٣٤١ هـ الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا : تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ، المنار ، القاهرة ١٣٥٣هـ . الشيخ رشيد رضا : تفسير المنار ، القاهرة ١٣٤٦هـ . الشيخ محمد مصطفى المراغى : الدروس الدينية ، مطبعة الازهر ، القاهرة ١٣٥٦ — ١٣٦٤هـ . الامام الشهيد سيد قطب : فى ظلال القرآن ، مطبعة الشروق ، القاهرة .

تجاربهم السياسية والاجتماعية ومن خبرات كفاح طويل ونضال ضد الاستعمار والتخلف والتجزئة .

(ج) تجاوز التفسيرات القديمة اللغوية والتاريخية والفقهية والكلامية والصوفية والفلسفية والعقائدية وظهور التفسير الاجتماعى والسياسى فيها مما جعل هذه التفسيرات صورة حية لأوضاع الامة الاسلامية .

(د) الارتباط بجيل معين ، وبلحظة تاريخية محددة ، وفى زمان ومكان معينين ، فبطل الادعاء بوجود تفسير صالح لكل زمان ومكان وبالتالى اكتشاف أهمية التاريخ وقوانين التاريخ وحركة المجتمعات وتطورها ، والتحق التفسير من جديد بعلم العمران .

ومع ذلك فقد ظلت هذه التفسيرات ناقصة لعدة أسباب منها :

(أ) لم تكن للقضايا الاجتماعية والسياسية الاولوية المطلقة على الموضوعات العقائدية ومازالت أحد موضوعات التفسير وليس موضوعه الرئيسى بالاضافة الى الحاقها بالاخلاق وبالايمان دون تحليلها كموضوعات اجتماعية مستقلة لها أبنيتها المستقلة .

(ب) مازال منهــج النص غالبا عليها مما نــال من استقلال الموضوعات العلمية كظواهر انسانية مستقلة عن النص ، وبالتالى لم يكن الواقع هو البداية المطلقة ، وكان التفسير مقدمة للواقع وليس الواقع مقدمة للتفسير .

(ج) مازال يغلب عليه التفسير الطولى وليس الموضوعى ، سورة

بسورة ، وآية بآية ، مما يشتت الموضوعات ويجزؤها ويجعلها متناثرة دون أى بناء نظرى أو مادى يجمعها وكأن الغاية هو التفسير وليس معرفة الواقع •

(د) انها اصلاحية محدودة الاثر لم تتحول بعد الى نهضة شاملة تقوم على مبادىء التنوير من عقل وحرية وديمقراطية وطبيعة وانسان وتاريخ ، وبالتالى ظلت قابعة فى ميدان العقائد حتى نشأت حركات نهضة علمانية من خارجها •

(هـ) انها حركات اصلاحية وليست ثورية تهدف الى الفهم الصحيح للعقائد وليس الى احداث انقلاب أساسى فى البنية الاجتماعية لذلك قامت الثورات الاجتماعية من خارجها أو حاولت الانتساب اليها فى لحظات تعثرها •

(و) مازال بعض جوانب المحافظة الدينية التقليدية سواء فى العقائد أو فى التشريعات مثل « الرد على الدهريين » مما فتت الحركات الوطنية الاجتماعية وجعل أمر الوحدة الوطنية عسيرا بل وانتهى الامر الى الصدام الدموى بينها وبين الحركات الوطنية الاخرى •

(ز) لم يستمر قادتها فى الثورة الى ما لا نهاية ، وتراجع البعض منهم ونكص على عقبيه (محمد عبده) ، كما تحولت بعض الحركات الاصلاحية الى نظم دينية محافظة مثل الوهابية فى الحجاز والمهدية فى السودان والاخوان فى مصر •

(ح) لم تتم صياغتها بعد صياغة علمية فى نطاق العلوم الاجتماعيه والانسانية والتاريخية وظلت أقرب الى الدين منها الى العلم ، تنبع من الحركات الدينية وليس من الحركات الاجتماعية •

ثالثا — المنهج الاجتماعى فى التفسير :

وقد أفادت مناهج القدماء فى ظروف عصرهم وفى مواطن ابداعهم : اللغة والرواية والفقه والتصوف والفلسفة والعقائد • ولكن هذه الظروف قد تغيرت ، ولم يعد عصرنا عصر لغة أو رواية أو فقه أو تصوف أو فلسفة أو عقائد بل عصر علوم اجتماعية وفى مقدمتها العلوم السياسية والاقتصادية التى بدأ المنهج الاصلاحى فى الانتباه اليها مهمة جيلنا اذن هو تطوير هذا المنهج وأن يبدأ بواقع الامة وبمصالح المسلمين •

ويتصف هذا المنهج الاجتماعى فى التفسير بالآتى :

١ — انه تفسير جزئى القرآن الكريم وليس تفسيرا كليا له على الاقل فى هذه المرحلة ، أى أن المطلوب تفسيره هو رؤية حاجات المسلمين داخل القرآن وليس تفسير القرآن كله ، بصرف النظر عن حاجات المسلمين ومطالبهم • فاذا كانت مشكلتنا الرئيسية حتى الآن هو تحرير الارض ومواجهة الاستعمار فان آيات الجهاد والقتال والحرب والاعداد هى التى يكون لها الاولوية فى التفسير وليست آيات الدعة وحسن العيش والتمتع بزينة الحياة الدنيا • واذا كانت مشكلتنا اليوم هو التسلط والقهر والطغيان فان آيات الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهر بالحق والتمسك به ، ورفض النفاق والثورة على الذلة والمهانة ، يكون لها الاولوية المطلقة فى التفسير على آيات الطاعة والامر بالعبودية واذا كانت مشلكتنا أيضا هى الفقر والجوع والبؤس والشقاء والحرمان وسوء التغذية والعرى والبطالة ، مشاكل المعذبين فى الارض ، فان آيات القرآن عن الملكية العامة والغنى والفقر ومنع تداول المال بين الاغنياء والاستخلاف وحق الفقراء فى أموال الاغنياء والمساواة والعدالة

الاجتماعية هى التى يكون لها الاولوية المطلقة على آيات التجارة والربح والرزق والطبقات والدرجات والكسب الحلال • واذا كانت مشكلتنا الرابعة هى لا مبالاة الناس وفتور الجماهير وخنوعهـا واستسلامها وكسلها ورضوخها واستكانتها وترك مصائرها بيد غيرها وقدرتها ، فان آيات الحث على النهوض ورفض الاثقـال الى الارض والدعوة الى الهجرة فى أرض الله الواسعة وخلافة الانسان لله فى الارض ، والشهادة ، والعزة للمؤمنين ، والعلو للامة ، تكون لها الاولوية المطلقة على آيات القضاء والقدر والتسليم والتفويض والارجاء والانتظار والتوفيق والهداية والدعاء وطلب البركات • نقرأ اذن حاجاتنا فى القرآن ، وما لا نحتاجه لا يقرؤه جيلنا بمعنى لا يفسره لانه لن يفهمه ، فالفهم لا يتم الا طبقا لحاجة أى تجربة اجتماعية وأزمة معاشه • فاذا كنا ندعو الى العلم فاننا نفسر آيات العلم وليس آيات الفيض والالهام والكشف والفتح والبصر الحديد • واذا كنا ندعو الى الواقع فاننا نعطى الاولوية لآيات التنزيل وليس لآيات التأويل ولعالم الشـهادة وليس لعالم الغيب • واذا كنا ندعو الى العقل فانا نعطى الاولوية المطلقة لآيات العقل • واذا كنا ندعو للعمل فاننا نبرز فى حياتنا آيات العمل قبل آيات الايمان والتفكر والتدبر والتأمل والنظر •• واذا كـانت التنمية هى مشكلتنا الرئيسية بغزو الصحراء واستخراج المياه الجوفية ، وبتخزين لمياه الامطار ، واقامة السدود والخزانات والبحث عن ثروات الارض ، فان آيات الارض والماء والزراعة والخضرة والفواكه والاعناب والشجر الباسقات والاوراق والثمار تكون لها الاولوية المطلقـة فى وجداننا الدينى القومى • واذا كانت مأساتنا فى نقص الثروة الحيوانية اللحم واللبن والبيض ، فان آيات الانعام والاسماك واللحم الطرى والطير تبرز فى وجداننا القومى تحثنا على زيادة الثروة الحيوانية •

واذا كانت مشكلتنا هى أزمة الاسكان ، فان آيات السكن والبيت المستقر تجد صدى فى نفوسنا . وهكذا نجد فى القرآن حاجاتنا ونفسر آياته طبقا لها ، وبالتالى يصبح القرآن كتابا مقروءا فى الاسواق فى حياة الناس اليومية ، ويأخذ معنى فى جيلنا ويوفى بالغرض .

٢ — والتفسير الموضوعى للقرآن هو الاقدر على الوفاء بمقتضيات المنهج الاجتماعى وليس التفسير الطولى ونعنى به تفسير القرآن جزءا بعد جزء ، حزبا بعد حزب ، سورة بعد سورة ، آية بعد آية ، لفظا وراء لفظ ، حرفا اثر حرف ابتداء من الفاتحة والبقرة حتى سورة العلق والناس(١) . نفسر ما نعرفه وما لا نعرفه ، ما نحتاجه وما لا نحتاجه ، تفسير لا فى زمان ولا فى مكان . وبالتالى يكون الاعتماد أساسا على المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم وتفسير الآيات كلها حول موضوع واحد نحتاجه فى عصرنا ويسبب لنا أزمة ويجثم على صدورنا كهم ثقيل يكتم الانفاس . ويبنى الموضوع بطريق تحليل المضمون للآيات من حيث :

(أ) البناء الصورى والشكل اللغوى للآية وذلك من حيث ذكر

---

(١) ظهر عند القدماء بدايات التفسير الموضوعى مثل « التبيان فى اقسام القرآن » لابن القيم ، « مجاز القرآن » لابو عبيدة ، « مفردات القرآن » الراغب الاصفهانى ، « الناسخ والمنسوخ » لابى جعفر النحاس ، « اسباب النزول » للواحدى ، « أحكام القرآن » الجصاص . ولكنها تفسيرات لا تظهر فيها الموضوعات الاجتماعية والسياسية . وظهر عند المحدثين كثير من هذه الموضوعات دون تحليل شامل لآيات القرآن وبنائها فى اكثر ما كتب عن الاقتصاد الاسلامى ، والنظم المصرفية فى الاسلام ، وملكية الارض والثروة فى الاسلام ، واحكام الربا ، وقوانين العمل والعمال ، وفى الاجتماع والسياسة ونظم الحكم .

الموضوع اسما وفعلا ، مرفوعا أو منصوبا أو مجرورا ، ، مذكرا أو مؤنثا ، مفردا أو جمعا ، مضافا أو غير مضاف ، وكيفية الاضافة بالضمائر أم بالاسماء ، والضمائر متكلم أو مخاطب أو غائب ، ومدى تكرار اللفظ حتى يمكن تحديد الموضوع ابتداء من الشكل ، فالفعل غير الاسم ، الفعل حركة والاسم ثبات ، والرفع غير النصب غير الجر ، فالرفع فاعلية ، والنصب المفعولية ، والجر اللحاق والتبعية ... الخ .

(ب) تحليل المعانى وتصنيفها فى مجموعات رئيسية حتى يمكن بناء الموضوع ، والتمييز بين المعانى الرئيسية والمعانى الفرعية ، بين الايجابية والسلبية ، بين الالهية والانسانية ، بين المعنوية والمادية ، بين الفردية والاجتماعية حتى يمكن معرفة رأى الوحى فى الموضوعات الرئيسية .

(ج) اعطاء الاولوية للموضوعات التى تلبى حاجة العصر مثل : الارض ، المال ، الفقر ، الغنى ، التقدم ، التخلف ، الامة ، العمل : الانسان ، الجهاد ، اسرائيل . بحيث يتحول وجداننا المعاصر الى نظريات وتصورات قادرة على تحليل أزمات العصر .

(د) تكوين الموضوعات كلها فى نسق عقلى محكم واحد بحيث يكون تصورا اسلاميا للعالم وحتى يمكن لمنهج اسلامى واحد أن يظهر ويتكون يدور حول الانسان والمجتمع والطبيعة والتاريخ ، وهو يلبى حاجة المسلمين فى البحث عن منهاج مستقل وتصور للكون ومنهاج للحياة ونظام اجتماعى وسياسى(١) .

---

(١) انظر نموذجا لذلك فى مقالنا « المال فى القرآن » قضايا عربية ، ١٩٧٨ . وهو منشور ايضا فى هذا الجزء .

٣ ــ التفسير الزمنى قادر على اعطاء صورة القرآن لجيل بعينه وليس لكل الاجيال ، وفى عصر بعينه وليس فى كل العصور • فالقرآن الابدى الذى يتجاوز العصور والاجيال موجود فى العلم الالهى ولكن لاوجود له فى صدور الناس أو فى حركة التاريخ أو فى كتب المفسرين أو فى أقوال الخطباء أو فى نظريات العلماء • التفسير الزمنى هو تفسير العصر ولا شأن له بالعصور السابقة ولا يلزم الاجيال اللاحقة ، فمثلا هو تفسير أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر مهمته الدفاع عن الانسان فى عصرنا وليس عن الله فى كل العصور ، ليس فقط فى العمليات بل أيضا فى النظريات • ولما كانت مشاكل الحيـــاة متجددة فان التفسيرات القديمة وليدة عصرها كما أن تفسيرنا وليد عصرنا ولا تلزم الاجيال المستقبلة بأى حال • وأى دعوى أخرى دون ذلك ادعاء باطل وغرور انسانى ، ورغبة فى التسلط على رقاب الناس واحتكار معارفهم واجتهاداتهم ، ونفاق وارهاب وتعصب وجهل يخفى أخطاء التفسير أكثر مما يبين صدقه •

والتفسير على هذا النحو له غاية عملية وليس غاية نظرية ، يهدف الى تغيير أحوال المسلمين وليس الى اكتشاف حقائق نظرية ، فالصدق فى التفسير هو التغيير والاثر « فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » (١٣ : ١٧) • فالتفسير مرتبط بالمسلمين فى التاريخ ولا يبحث عن الاسلام كحقيقة أبدية خارج التاريخ فهذه الحقيقة لا توجد الا فى بطون المسلمين • لقد نشأ الوحى نفسه فى الزمان ، وتطور فى الزمان ، من اليهودية الى المسيحية الى الاسلام ، وتطورت الكتب المقدسة فى الزمان من صحف ابراهيم ومزامير داود

وتوراة موسى وانجيل عيسى والقرآن الذى نزل على محمد • كما أن القرآن نزل منجما على ثلاث وعشرين عاما بادئا بالعقيدة ثم الشريعة ، بالآيات المكية ثم المدنية • بل ان الشريعة ذاتها بها ناسخ ومنسوخ طبقا للقدرة • والزمان داخل فى الشريعة الاسلامية فى العبادات : الصلاة فى أوقات ، وجوبا أو قضاء ، على الفور أو على التراخى ، والصيام فى أوقات معلومة ، والحج فى أشهر معلومة ، والشهادة فى كل وقت ، والتكليف فى الحياة وما نحتاجه هو تفسير زمنى لجيلنا ، ينفعنا ، ويحل مشاكلنا ، ويتوجه الى مآسينا •

٤ — التفسير الواقعى الذى يبدأ من واقع المسلمين وحياتهم ومشاكلهم ومآسيهم وأحزانهم ومصائبهم وهزائمهم لا يبدأ من فراغ بل يبدأ من مشكلة • فالوحى لا يعطى مجانيا بلا فائدة بل لحل قضية حارت فيها العقول والافهام ولم يقدر الا القليل على حلها برؤية صائبة وحس مرهف كما كان الحال مع عمر بن الخطاب • وهذا مشهود فى « أسباب النزول » أى أولوية الواقع على الفكر ، والحركة على الثبات ، فالحل مغير للواقع وليس مثبتا له أو مبررا اياه • والتفسير الواقعى لا يتحدث عن الاسلام العام الخالد الذى ليس له مكان ولا زمان والذى يطير فوق الواقع ولا يحل مشاكل الناس • التفسير الواقعى لا يقوم بالدفاع عن الله ، فالله غنى عن العالمين أو عن الاسلام فان لهذا الدين ربا يحميه ، بل يدافع عن المسلمين الذين لا يدافع عنهم سواهم • فما أسهل الحديث عما ينبغى أن يكون وما أصعب تغيير ما هو كائن • وقد يهدف التفسير العام الى التعمية والتغطية والتمويه على ما يدور فى الواقع ، وعلى ايثار السلامة والحرص على لقمة العيش خشية وخوفا وسلامة • كما قد يدل على العجز عن المواجهة مادامت

البضاعة لا تتعدى الكلام ، ويضع الناس فى نظام مثالى ينعمون بـه ويرنون اليه يجدون فيه تعويضا وعزاء عن واقعهم المضنى الاليم •

٥ — التفسير بالمعنى والقصد وليس بالحرف واللفظ • فالوحى مقاصد كما يقول الاصوليون القدماء ، وبواعث واتجاهات وأهداف كما يقول المحدثون • فالكليات الخمس ، المحافظة على النفس والعقل والدين والعرض والمال هى مقومات الحياة الخمس • فالمصلحة أساس التشريع ؛ لا ضرر ولا ضرار ، والضرورات تبيح المحظورات ، والاشياء فى الاصل على الاباحة ، والاشياء قبل ورود الشرع على البراءة الاصلية ، والانسان خير بالفطرة ، والاسلام دين العقل والطبيعة ، ودين الحرية والمساواة ، وان ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، وأن العمل وحده مصدر القيمة ، وأن البشر سواسية كأسنان المشط ، وأن لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى والعمل الصالح ، وأن الانسان حر ومختار ومسؤول وأنه قادر على ادراك الحقائق بالعقل ، وأنا قادر على التمييز بين الخير والشر •• الى كل ذلك من مبادىء انسانية عامة وحقائق موحى به تطابق العقل والطبيعة وتكون أساسا للتفسير وتقوم فيه مقام البديهيات والاوليات والمصادرات • فما الفائدة من تناول التحسينات أو الحاجيات دون الضروريات باصطلاح القدماء ؟ وما الفائدة فى المماحكات اللفظية والتفريعات الجزئية والكليات الاساسية غائبة عن الاذهان ؟

٦ — التفسير بالتجارب الحية التى يعيشها المفسر ، فالتفسير جزء من الحياة والحياة مادة علم التفسير ، ولا تفسير ان لم يكن لدى المفسر تجارب ، يعيش حياته ، ويحياها بصدق ، يتأزم ويتألم ، يفرح ويحزن ، يشقى ويسعد • فالتفسير ليس مهنة أو بضاعة أو تجارة بل

هى أزمة فى المعرفة ، وحيرة فى السلوك ، وبحث عن المعنى ، وتغيير للاوضاع • لذلك كانت تفسيرات الصوفية بالرغم من عيوبها تفسيرات صادقة تتم بناء على تجارب • وهنا أيضا تأتى أهمية التفسيرات الاصلاحية التى تعبر عن تجارب الاصلاح والثورة والتغير الاجتماعى • والنصوص الدينية فى أصلها تجارب معاشة ، استشهاد الانبياء ، وخوف الانبياء ، وطغيان الملوك والامراء ، وصراع القوى الاجتماعية المتعارضة، والشد والجذب بين قوى التخلف وقوى التقدم • فيعقوب تبيض عيناه من الهم فهو كظيم ، ويوسف فى غيابات الجب ، ومع امرأة العزيز ، وفى السجن ، وموسى هارب يترقب ، ويونس فى بطن الحوت ، وعيسى نفسه حزينة حتى الموت ، ونوح يدعو على قومه ، وابراهيم فى النار ، ومحمد باخع نفسه على أن يؤمن قومه ، والمؤمنون يمسسهم القرح ، يحزنون ويخافون • وقد عبر الصوفية عن ذلك أصدق تعبير فى الاحوال والحالات النفسية المتعارضة مثل القبض والبسط ، الخوف والرجاء ، الصحو والسكر ، الهيبة والانس ، الغيبة والحضور •• الخ • أما التفسير المهنى الوظيفى الذى يتم من فوق المنابر ومن أعلى المصاطب ، ويملأ الصفحات لاظهار المعارف والعلوم كلها تفسيرات لا تخرج من القلب ، ولا تكتب بالدم ، ولا تغير قيد أنملة من حياة الناس •

٧ — رصد مشاكل الواقع حتى يمكن بدأ التفسير منها • ويحدث ذلك على النحو الآتى :

(أ) اذا كان نهج التفسير الاجتماعى يبدأ من واقع المسلمين ، دفاعا عن مصالح الامة وحلا لازماتها ، ومواجها قضاياها الاساسية ، كان لابد أولا من رصد مشاكل الواقع • ولا يتم ذلك الا بتعاون علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد أى باشتراك العلوم التى تقوم باحصاء

مشاكل الواقع الاجتماعى وهو بالنسبة لنا : تحرير الارض من الصهيونية والاستعمار ، الحرية والديمقراطية ضد التسلط والطغيان ، التنمية ضد التخلف والفقر ، تجنيد الجماهير ضد السلبية والفتور .

(ب) وضع نظام للاولويات لهذه المشاكل دون أن يمنع ذلك من السير فى جميع الجبهات . فمثلا يأتى أولا تحرير الارض وما يتطلبه ذلك من اقامة جبهة وطنية وتأجيل الصراع الاجتماعى الى حين . فحركة التحرر الوطنى تحتاج الى جهد الجميع . ثانيا الحرية والديمقراطية مما يسمح بحرية الرأى والتعبير للجميع ، والسماح بتعدد الآراء واختلاف وجهات النظر ، ويكون المحك فى النهاية لاكثر الحلول قدرة وشمولا وعمقا وبقاء . ثالثا ، التنمية ضد جميع مظاهر التخلف من فقر وأمية وجهل وما يتطلبه ذلك من اعادة توزيع ثروة البلاد وتحقيق أكبر قدر ممكن من المساواة والعدالة الاجتماعية . رابعا ، تجنيد الجماهير ضد السلبية والفتور واللامبالاة ، وأخذ مصائرها بأيديها ، وتوجيه حكامها ، وقيامها بمهمة المراجعة والرقابة .

(ج) الاعتماد على التحليل العلمى وتبنى الحلول الواقعية التى تقوم على التطور والتدرج ، والاقتداء بالمنهج الاصولى فى تحليل العلل ، والبحث عن العلة الفاعلة أو المؤثرة أو الملائمة أو المناسبة ، واتباع طرق السبر والتقسيم ، وهو أكثر المناهج علمية ويقوم على التجريب والاحصاء كما وضعه علماء الاصول القدماء .

(د) السماح باختلاف الآراء ، وتعدد الاتجاهات ، وعادة ما يكون الرأى الاسلامى أوسع الآراء أفقا وأشملها نطاقا ، وأبقاها زمانا ، وأكثرها عمقا ، وأقواها أثرا وفاعلية ، وأقصرها وقتا ، وأقلها

جهدا • وتعدد الحق فى العمليات وارد على رأى القدماء • فالوحدة الوطنية يرعاها الاسلام ويقويها ويحرص عليها •

(هـ) تحقيق ذلك بالفعل ، فلا فرق بين باحث ومناضل ، بين عالم ومكافح ، النظرية العمل والنظر للتطبيق • وقد كان الفقهاء من هذا الطراز ، رجل علم وعمل ، فقيه دين وقائد أمة •

٨ — الوضع الاجتماعى للمفسر هو فى النهاية الذى يحدد نوعية التفسير فالخلافات بين التفسيرات هى فى نهاية الامر اختلافات بين الاوضاع الاجتماعية للمفسرين • فكل مفسر ينتمى الى طبقة اجتماعية ، وكل تفسير يكشف عن ولائه لطبقته • والذى يحدد موقفه الكلى هو الآتى :

(أ) موقف المفسرين من الواقع ، هل هو مبرر له أم ثائر عليه ؟ يبغى التعايش والارتزاق أم له رسالة وعليه مسؤولية قيادة الامة ؟ يرتكن اليه ويؤثر السلامة وحسن الختام أم يتصدى لمصالح المسلمين مدافعا عنها لا يخشى فى الله لومة لائم ؟

(ب) هل هو جزء من النظام السياسى مستفيد منه باعتباره موظفا أم هو خارج النظام غير مرتبط به ؟ هل هو موظف أم مواطن ؟ يأخذ من الدولة أم يعطيها ؟ تفرض عليه من حتميتهـا أم يفرض عليها حريته ؟

(جـ) هل هو من الطبقة العليا أم من الطبقة الدنيا ؟ هل يدافع عن مصالح طبقة أو فئة أوقوم أو انه يعبر عن مصالح المسلمين ويلبى احتياجات جماهير الامة ؟ وهذا لا يمنع من أن ينتسب بدخله الى طبقة

وبوعيه الى طبقة أخرى ، فليس المهم هو الدخل الطبقى بل الوعى الطبقى .

(د) هل يبغى جاها أو منصبا أو شهرة أو مالا أم يبغى التجرد التام ورعاية مصالح الامة والنزاهة المطلقة والعمل لوجه الله ؟ فالعلماء ورثة الانبياء ؟ هل يبغى الرئاسة فى الدنيا أم الخلود فى التاريخ ؟

رابعا — خاتمة :

قد يقال ان المنهج الاجتماعى فى التفسير عليه عدة محاذير أو يؤدى الى عدة مخاطر أو تثار عليه بعض الشبهات أو توجه اليه بعض الاتهامات(١) . وهى كلها أوهام تعلق بذهن العامة من جراء أجهزة الاعلام وآثار الثقافة الغربية فى بلادنا وتخويفنا من مفاهيم التقدم حتى يبقى مفهومنا للدين محافظا تقليديا تستغله النظم الحاكمة لصالحها ضد مصالح الشعوب . وأهم هذه المخاطر :

(أ) العلمانية . وذلك لان المنهج الاجتماعى يبدأ من واقع المسلمين ولا يبدأ من الدين ، ويغوص فى مشاكل الدنيا ، ويعتبر العقائد كتصورات للعالم وكبواعث للسلوك ، ويجعل الاسلام فى خدمة المسلمين . والحقيقة أن هذه ليست علمانية بل ليس الوحى الاسلامى الذى لا يفرق بين الدين والدنيا . العلمانية لفظ غربى خالص يعبر عن مسألة غربية خالصة وهو رفض سلطة رجال الدين . والاسلام

---

(١) انظر كتابنا : « التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم » ص ٥٦ — ٧٤ ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨٠ .

دين علمانى منذ البداية لانه ليس به رجال دين • علمانية معطاه من الداخل بوضع الهى وليست مكتسبة من الخارج بجهد انسانى •

(ب) الالحاد • وذلك لان المنهج الاجتماعى لا يتطـرق الى موضوعات دينية مستقلة عن الاوضـاع الاجتماعية ، ولا يتنـاول موضوعات الله والايمان واليوم الآخر بل لا يتعرض الا لموضوعات تحرير الارض والحرية والديمقراطية والمسـاواة والعدالة الاجتماعية وتجنيد الجماهير • لا يتعرض لعالم الغيب ويقتصر على عالم الشهادة ، وينظر الى الدين من منظور انسانى خالص • والحقيقة أن الالحاد ؛ كالعلمانية ، مفهوم غربى خالص ، الهدف منه العودة الى الدنيا واكتشاف عالم الحس والشهادة بعد أن غالت الديانات التى سادت الغـرب، ممارسة أو ثقافة فى عالم الغيب والاسرار • الاسلام منذ البداية دين يقوم على الحس والمشاهدة ومجرى العادات وليس بـه أسرار أو غيبيات تند عن العقل ، وليس به آخرة منفصلة عن الدنيا أو روح منفصل عن المادة •

(جـ) الماركسية • وذلك لان المنهج الاجتماعى فى التفسير يبدأ من المشاكل الاجتماعية للناس ، ويواجه قضايا التحرر الوطنى ، والمساواة والعدالة الاجتماعية والتحرر من القهر والتسلط ، ويعمل على تجنيد الجماهير فى حزب طليعى ، ويعى معارك القوى الاجتماعية وصراع الطبقات ومراحل التاريخ ، وأهمية العوامل المادية فى تفسير سـلوك الافراد والجماهير ، والحقيقة أن هذه ليست ماركسية • ولماذا نعطى الماركسية أكثر مما تستحق ونعطى مفكرينا القدماء من علماء أصـول الفقه أقل مما يستحقون وهم الذين بحثوا عن العلل المادية المؤثرة فى

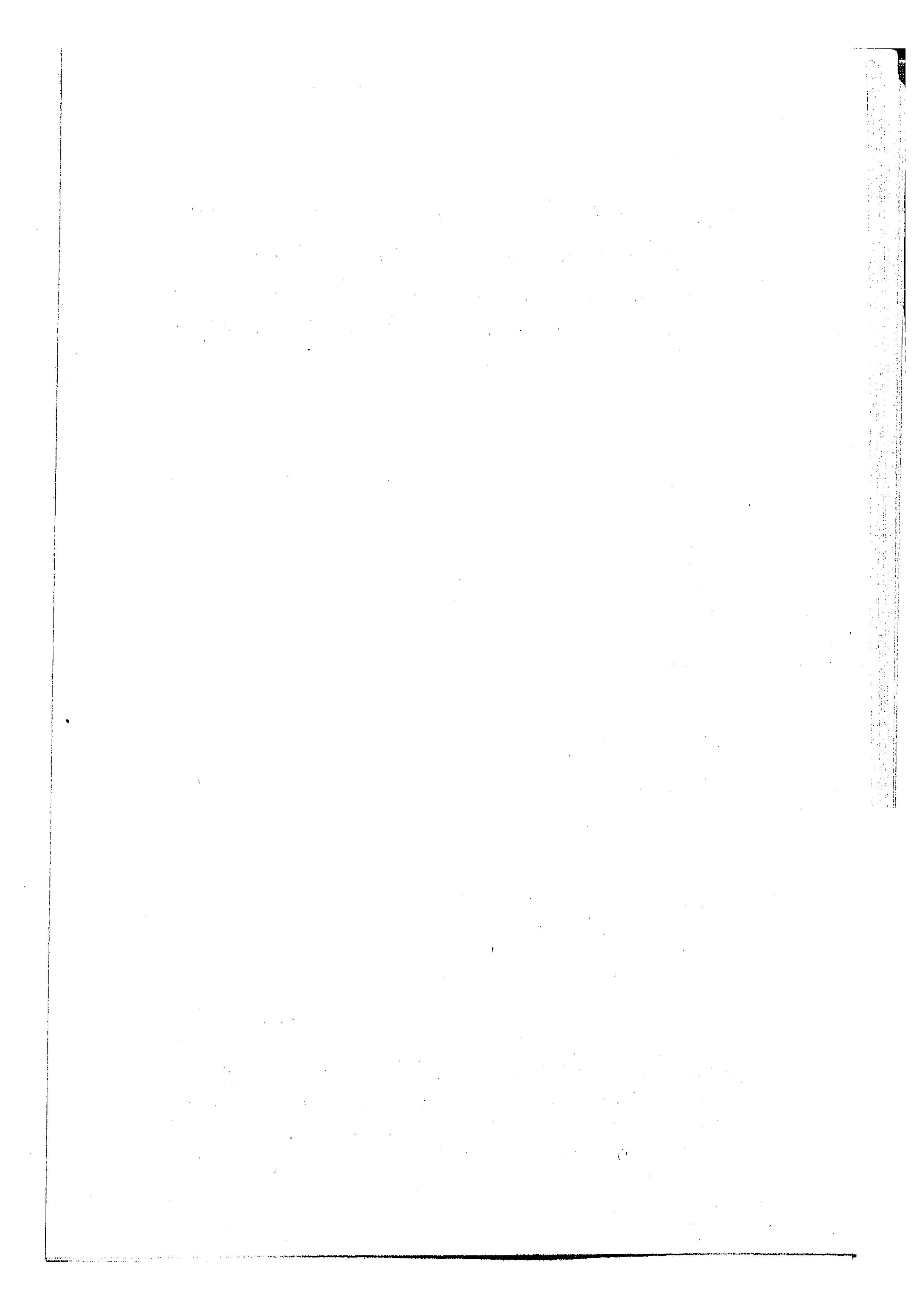
السلوك ؟ لقد كان أول من اعتنق الاسلام هم العبيد والفقراء والمساكين والمعذبون فى الارض ، فقد وجدوا فى الاسلام الحرية والعدالة والمساواة ، وحررهم من الخوف والتسلط والقهر من أشراف مكة وأغنيائها ، وجندهم فى جيوش المسلمين لفتح البلدان وتحرير البشر من الطاعون .

(د) التغريب . طالما أن المنهج الاجتماعى له هذه الصفات فانه يكون مماثلا لما تم فى الغرب من حركات علمانية والحادية وماركسية وعقلانية وحرية وطبيعية وديمقراطية ، وان ذلك مناف لما عليه مجتمعاتنا من تدين وايمان وروحانية والهامية وغيبية وطاعة لاولى الامر . والحقيقة أن كفاح الغرب فى العصور الحديثة ضد التسلط الفكرى والدينى فى العصر الوسيط الذى دفع ثمنه من دماء العلماء والمفكرين هو كفاح فى سبيل مثل الاسلام ومبادئه التى وضعها قبل ذلك بأربعة عشر قرنا من الزمان . فاذا كان الغرب قد بدأ نهضته بالاحياء فى القرن الرابع عشر وبالاصلاح الدينى فى الخامس عشر ، وبالنهضة فى السادس عشر ، وبالعقلانية فى السابع عشر ، وبالتنوير فى الثامن عشر ، وبالعلم والثورة الصناعية فى التاسع عشر ، وبالوجود الانسانى والثورة التكنولوجية فى القرن العشرين فان الاسلام قد ضم هذه المبادىء كلها فى الوحى . فاعترف بالآداب والديانات القديمة ، وأنكر سلطة رجال الدين والرهبانية والكهنوت ، وجعل الانسان فى علاقة مباشرة بينه وبين الله دون وساطة ، وجعل الانسان خليفة الله فى الارض ، وجعل للعقل سلطانا على كل شىء ، وأقام المجتمع الاسلامى على مبادىء الحرية والعدالة والمساواة ، واعترف بقوانين الطبيعة

وقدرة الانسان للسيطرة عليها وتسخيرها لمنفعته فى الدنيا ، وأثبت رسالة الانسان فى الحياة وبأنه محور الكون وصورة الحقيقة فى الوجود « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (١٧ : ٧٠)(١) .

---

(١) انظر دراستنا الثلاث السابقة عن التفسير : « هل لدينا نظرية فى التفسير ؟ » ، « أيهما اسبق : نظرية التفسير أم منهج فى تحليل الخبرات ؟ » ، « عود الى المنبع أم عود الى الطبيعة ؟ » قضايا معاصرة (١) فى فكرنا المعاصر ص ١٧٥ — ١٧٦ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ .



اختلاف فى التفسير أم اختلاف فى المصالح ؟

يخطىء من يظن أن تفسيرا معينا للدين هـو الدين فى ذاته . فالتفسيرات متعددة ولكن الدين واحد وكلها شرعية لانها تعتمد على نصوص الدين ، ولا احتكار فى التفسير ، ولا تكفير لاحدها دون الآخر .

ولكن كيف تكون التفسيرات مختلفة والدين واحد ؟ هل ترجـع التفسيرات الى خلاف فى وجهات نظر مجردة أم أنها ترجع الى اختلاف فى المصالح ؟

والحقيقة أن قارىء النصوص الدينية ليس عقلا مجردا بل هو انسان ، يعيش فى مجتمع ، وله مشاكله وظروفه ومصلحته . ولا يمكن أن يقرأ النص الا من خلال هذا الوضع النفسى الاجتماعى سـواء فى اختيار النص أو فى فهمه . ولما تعددت المواقف والظروف والمصالح والطبقات للمفسرين ، تعددت أيضا تفسيراتهم . فليس الخلاف حول معنى موضوعى للنص المستقل بل هو اختـلاف المواقف الاجتماعية والمصالح الطبقية للمفسرين . اختلاف التفسـيرات يرجع أساسا الى اختلاف المصالح ، واختلاف المصالح يرجع فى النهاية الى التركيب الطبقى للمجتمع .

كتب هذا المقال أيضا فى ١٩٧٨ لجريدة الاهالى ، وأعيدت صياغته من المسودة الاولى فى خريف ١٩٨٧ . انظر ايضا « مناهج التفسير ومصالح الامة » فى هذا الجزء .

فاذا كان فى المجتمع ثلاث طبقات ، لكل منها مصلحته الخاصة تكون لدينا ثلاث تفسيرات :

١ — تفسير الطبقة العليا ، وينتقى من النصوص ما يدافع به عن التركيب الطبقى للمجتمع مثل : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » ، « ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات » ، مخرجين النص من السياق • فقد تعنى الدرجات هنا درجات العلم وليس درجات الربح • وهو التفسير الذى يدافع عن الملكية الفردية ، وعن النشاط الاقتصادى الحر مادام الانسان يكسب بالحلال ، ويخرج الزكاة حتى ولو وصل ربحه الى المليون وتجاوزه • وهو التفسير الذى يتبناه رجال الاعمال وأصحاب رؤوس الاموال ، بناة المساجد ، ودعاة التقوى والايمان ، وأصحاب برامج العلم والايمان وتفسير القرآن الذين يسرق من منازلهم بعشرات الالوف من الجنيهات المجوهرات والحلى الثمينة !

٢ — تفسير الطبقة المتوسطة ، وهو التفسير الذى يدعو الى حفظ النظام ، وعدم التغيير ، والابقاء على الوضع القائم ، « وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » • والطبقة المتوسطة بطبيعتها انتهازية ، تبغى مصلحتها ، تستفيد من الطبقة العليا ، فهى المنفذة لاوامرها والمبررة لافعالها ، والمتطلعة لانماط سلوكها فى حركة صاعدة سلمية كمكافأة لها على بذل الخدمات • وتستفيد أيضا من الطبقة الدنيا فهى التى تقضى لها المصالح وتحقق لها الرغبات ، وتطبق أو لا تطبق لها القوانين • فتأخذ الرشاوى والعمولات ، وتستغل حاجات الناس ، وتعيش على مآسى الآخرين •

٣ — تفسير الطبقة الدنيا ، وهى طبقة الاغلبية ، الطبقة الكادحة ، وهو تفسير يعتمد على ابراز حق الاغلبية ، دعاته قليلون ، وأنصاره مضطهدون ، وفكره معاصر ، ومتهمون بالشيوعية والالحاد ، وبالكفر والانحلال ، وبالدموية والخروج على القانون ، وبقلب نظم الحكم بالتنظيمات السرية وبعملاء الاتحاد السوفيتى ، وبمنفذى المؤامرات الدولية ! وهم الذين يعودون الى مصالح الناس كأصل التشريع كما يقرر الشرع ، ويرون العقائد متصلة بحياة الناس • فالايمان بالله أمان من الجوع والخوف « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » • تنهار المجتمعات بتشييد القصور فوق الآبار المعطلة ، « وبئر معطلة ، وقصر مشيد » • وهو التفسير الذى يقول بملكية الدولة لوسائل الانتاج (الماء ، والكلأ ، والنار) وبالاصلاح الزراعى ، وبسياسة للاجور تتناسب مع الجهد فى العمل ، وبالاعتماد على الذات ، وبالتخطيط لصالح الاغلبية •

ولما كان لا يوجد مقياس نظرى لمعرفة التفسير الصحيح ، وكان الخلاف فى التفسيرات النظرية هو فى الحقيقة اختلاف فى المصالح ، فان التفسير الصحيح انما ينتج عن صراع القوى الاجتماعية • ويكون السؤال هو : لصالح أية طبقة يتم حسم الصراع الاجتماعى ، الطبقة العليا أم الطبقة المتوسطة أم الطبقة الدنيا ؟ وما هى القوى الاجتماعية القادرة على حسم هذا الصراع ؟

المال فى القرآن (تحليل المضمون)

ان طريق التنمية اللارأسمالى فى البلاد النامية مرتبط أشد الارتباط بتراثها القديم وبثقافتها الوطنية . ولما كان هذا التراث وهذه الثقافة فى جوهرها دينية ، أصبح من الضرورى معرفة موقف الدين من التنمية ، وكيف يمكن أن يساهم فى تكوين نظام اقتصادى يرعى مصالح الاغلبية . وتزداد الاهمية اذا ما عرفنا كيف يستغل الدين فى البلاد النامية لصالح النظم الرأسمالية بالتركيز على التفاوت فى الرزق كمظهر من مظاهر القدر الالهى ، وعلى الاستثمار القائم على الربح ، وعلى الملكية الخاصة بلا حدود أو شروط ، وعلى النشاط الاقتصادى الحر مادام صاحب رأس المال يؤدى ضريبة المال أو العقار فى صورة الزكاة . فأصبح الدين وسيلة لتدعيم النظام الرأسمالى أمام أعين الجماهير ، ولا تستطيع له دفعا .

مهمتنا هنا هى تقديم بديل آخر عن تصور الدين لاحد مظاهر النشاط الاقتصادى ألا وهو المال لمعرفة ما اذا كان تصور الدين للمال أقرب الى التصور الرأسمالى أم الاشتراكى أم أنه تصور خاص يمكنه تطوير المجتمع وتنمية موارده الاقتصادية على نحو رأسمالى بالضرورة دون الوقوع فى التصورات الاشتراكية الطوباوية أو الدينية أو الخلقية . قد يحتوى الدين على تصور علمى للمال ووضعه فى المجتمع وصلته

قضايا عربية ، السنة السادسة ، العدد الاول ، يناير — ابريل ، كانون الثانى — نيسان ١٩٧٩ . وكان قد كتب أولا لنشره فى مجلة « الفكر الاشتراكى » التى كانت تزمع دار الثقافة الجديدة نشرها فى عددها الاول الخاص عن الطريق اللارأسمالى للتنمية فى البلاد النامية .

بالنشاط الانسانى ، وقد يكون هنا التصور أكثر تطابقا مع وجداننا القومى أكثر من أى تصور نظرى آخر فى أحد النظم الاقتصادية • وعلى هذا النحو ، لا يتهم هذا التصور بأنه مستورد أو دخيل أو أنه لا ينبع من تراثنا وتربتنا وأخلاقنا وروحنا كما هو معروف فى التهمة الشائعة التى تلصق بكل تصور لا رأسمالى للدين •

وسنعتمد على تحليل لفظ « المال » فى القرآن دون ما دخول فى نظريات الفقهاء فى المال خشية الوقوع فى قيل وقال ، وخشية ضياع وحدة التحليل فى خضم اختلافات الفقهاء ، وحتى لا تأخذ الدراسة طابعا تاريخيا سيكون حتما ناقصا(١) • سيكون الاعتماد الاساسى على اللغة العربية وعلى بداهة العقل وعلى الاحساس بالعصر والشعور بمتطلباته ، أى أننا سنصف آيات المال باعتبارها تجارب شعورية جماعية فى وجداننا القومى • سأحاول أن أعيد بناء تراثنا الدينى القديم ممثلا فى مصدره الاساسى وهو القرآن طبقا لحاجات العصر وعلى رأسها التنمية بالطريق اللارأسمالى ، وهو الطريق الذى يفرضه أيضا الدخل القومى المحدود ، وغياب رؤوس أموال كبيرة تكون دعامة للتنمية بالطريق الرأسمالى ، وكأن تراثنا القديم فى جوهره ومنشئه يطابق واقعنا ، ويتفق معه فى طريق التنمية •

وسأبدأ أولا بتحليل لصورة الآيات أعنى أشكالها اللغوية ثم أثنى بتحليل المضمون أى معانيها من أجل الانتهاء الى تصور عام للمال فى « القرآن » أى فى آخر مرحلة من مراحل الوحى الذى اكتمل فيها وأصبح أيديولوجية •

---

(١) انظر فى ذلك ابو عبيد القاسم بن سلام : كتاب الاموال ، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م •

أولا : تحليل الصورة :

١ — ذكر لفظ « المال » فى القرآن فى صوره المختلفة ٨٦ مرة أى أنه موضوع مهم تناوله الوحى بالبيان والتفصيل وليس موضوعا عارضا ، ويعادل موضوع النبوة (ذكر لفظ « النبى » بصوره المختلفة ٨٠ مرة) كما يعادل موضوع الوحى (ذكر لفظ « الوحى » بصوره المختلفة ٧٨ مرة) • فالحديث عن « المال » فى الوحى حديث أصيل وليس اسقاطا من مذاهب معاصرة عليه ، وليس شدا للوحى الى مذاهب مغايرة له ، وليس استعمالا للوحى ، حتى يقول ما يريده صاحب مذهب أن يقـول •

٢ — وقد ذكر لفظ « المال » فى القرآن فى صورتين مختلفتين : مرة غير مضاف الى الضمائر (المال ، مالا ، الاموال ، أموالا) ٣٢ مرة ، ومرة أخرى مضافا الى الضمائر (ماله ، ماليه ، أموالكم ، أموالهم) ٥٤ مرة ، مما يدل على أن المال قد يكون له وضع مستقل فى العالم عن النشاط الانسانى ، لا يضاف الى أحد ، فردا أو جمعا ، وقد يدخل فى علاقة مع الآخرين ، فى صورة نشاط وجهد واستثمار • والمال المستقل عن النشاط ينبىء عن أنه وضع طبيعى ، لا يمتلكه أحد ، بل موضوع فى الطبيعة أو واقعة مستقلة • فكل مال لا يمتلك بالضرورة بل هـو موجود قبل نشاط الانسان فى مقولة الوجود وليس فى مقولة الملكية • فكل محاولة لاثبات ملكية المال تغفل وضع المال المستقل غير المضاف الى الضمائر ، وتجهل وضع المال كظاهرة طبيعية فى العالم فى صورة ثروات طبيعية فى الارض قبل أن تدخل فى أية علاقة مع الانسان ، المال هنا مجـرد امكانية للعمل وللنشاط وليس فقط واقعا دافعا على هذا النشاط • ولما كانت الاضافة أكثر شيوعا من عدم الاضافة (٥٤ — ٣٢)

كانت علاقة المال بالآخرين هى محور نظرية المال ، أى المال المستغل ، المستثمر ، بعد أن أصبح طرفا فى علاقة مع الانسان . المال لا يختفى فى بطن الطبيعة بل يستغله الانسان ، لذلك لا يمكن اكتناز المال أو تخزينه أو منعه من السيولة والحركة ، فالمال للاستعمال وليس للاكتناز ، المال حركة وليس سكونا ، المال طرف فى علاقة مع الانسان من حيث هو نشاط وحركة ، وفعل وجهد ، وطاقة وتولد . فاذا كانت البلاد النامية تعانى من نقص فى الاستثمار الداخلى بالرغم من وجود المال فى أيدى الطبقات العليا بما يتمتعون به من قوة شرائية ضخمة تسمح لهم باستهلاك الاموال أو بتهريبها أو باستثمارها فى عقار غير منتج أو مضاربة أو عمولة أو سمسرة ، فكل ذلك اكتناز للمال دون جهد ونشاط . ومن هنا أتى تحريم الربا ، لان المال لا يولد المال تلقائيا بل الجهد هو الذى ينمى المال ويكثره .

٣ — ويذكر لفظ « المال » غير مضاف فى صورتين : مرة نكرة (مالا ، أموالا) ١٧ مرة ، ومرة معرفة (المال ، الاموال) ١٥ مرة مما يشير الى أن المال معروف وليس مجهولا ، وأنه معلوم وليس خفيا (هذا بالاضافة الى المال المعرف بالاضافة الى الضمائر) . فالمال يدخل فى نظام اقتصادى ونعرف مصدره واستثماره وتنميته ومآله . لا يترك المال هباء لا ندرى من أين أتى ؟ وكيف تكاثر ؟ وأين انتهى ؟ بل يدرس ، ويتقنن مساره . فالمال له نظرية يقوم عليها وليس مجرد موضوع أو شىء يخفى ويستتر . وقد يكون التعريف بألف ولام التعريف (المال ، الاموال) ٧ مرات وقد يوكن بالاضافة (مال الله ، مال اليتيم ، أموال اليتامى ، أموال الناس) ٨ مرات مما يدل على أن التعريف بالمال لا يأتى من كونه موضوعا طبيعيا معروفا فى العالم

بل يكون تعريفه بنسبته الى الآخرين ، والاخرون هم الناس أولا (ذكرت « أموال الناس » ٤ مرات) ثم أموال اليتيم واليتامى ثانيا (ذكر مال اليتم مرتين ، وأموال اليتامى مرة) ثم مال الله ثالثا (ذكر مال الله مرة واحدة) • فالمال للناس أى للجماهير وللعامة وللاغلبية ولاصحاب المصلحة الحقيقية وعلى رأسهم اليتامى والمحتاجون ومن لا عائل لهم وليس للمكتفين الذين تفيض الاموال عن حاجتهم • فالمال لا يكون الا عند صاحب الحق ، والحق يتحدد بالحاجة • والمال هو أيضا مال الله وليس ملكا لاحد ، ولم يظهر فى القرآن ولو مرة واحدة أن المال هو مال الاغنياء والمترفين !

٤ — ويذكر لفظ « المال » غير المضاف فى صيغتين : مرة مفردا (المال ، مالا) ١٨ مرة ، ومرة جمعا (الاموال ، أموالا) ١٤ مرة • فالمال قد يكون مفردا وقد يكون جمعا عندما يتراكم ، ولكن المال فى صيغة المفرد أكثر شيوعا من المال فى صيغة الجمع ، مما يدل على أن تراكم المال فى أموال يكون أقل حدوثا • فاذا حدث فانه يكون للاستثمار ، وتكون أموال الناس ، فالتراكم لا يكون للفرد ، خاصة وأن كل الحالات التى أضيف فيها المال فى صيغة « أموال » كانت لنسبتها الى الناس فى صيغة « أموال الناس » •

٥ — ويذكر لفظ « المال » غير مضاف فى حالات الاعراب الثلاث ، مرة مرفوعا (مرتين) ، ومرة منصوبا (١٧ مرة) ومرة مجرورا (١٣ مرة) • فالمال لا يأتى مرفوعا الا فيما ندر ، أى أن المال لا يمكن أن يكون فاعلا أو مبتدأ أو خبرا ، لان المال لا يفعل من تلقاء ذاته بل يفعل من خلال الجهد الانسانى ، (تحريم الربا) ولا يكون مبتدأ أو خبرا لان المال ليس موضوعا ولا محمولا فى قضية خبرية بل هو

موضوعا للنشاط والجهد • وفى المرتين اللتين ذكر فيهما « المال » مرفوعا أخذ معنى سلبيا مثل « المال والبنون — زينة الحياة الدنيا » (١٨ : ٤٦) أى يكون المال لا قيمة له ، يكون ظاهرا خادعا ، وعرضا لا جوهرا أو مثل « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (٢٦ : ٨٨) فالمال هنا ليس بذى منفعة فى المواقف المصيرية حيث يتحدد فيها عمل الانسان ، وحيث يتم فيها تقييم جهده ونشاطه ومسار عمره ، فالمال ليس مقياسا للتقييم بل العمل هو المقياس ، ولا يغنى الكم عن الكيف ، ولا الموضوع عن الذات ، ولا الامكانية عن التحقق •

فاذا أتى لفظ « المال » مجرورا فانه يكون أكثر شيوعا من وروده مرفوعا (١٣ — ٢) فان الجر يأتى اما بالاضافة مثل « ذا مال » أو بالعطف مثل « وأموال اقترفتموها » • والاضافة والعطف لا يدلان على وضع اللفظ ، فالمضاف اليه يرجع الى وضع المضاف ، والمعطوف يرجع الى وضع المعطوف عليه • ولكن الاهم هو ورود اللفظ مجرورا بحروف الجر (١١ مرة) مما يدل على أن المال فى حركة مستمرة منه واليه • وذلك لان حروف الجر المستعملة قبل اللفظ هى اما « من » (٥ مرات) ، واما « ب » (٣ مرات) ، واما « فى » (٣ مرات) ، فالجر بالحرف « من » هو الشائع وهو يدل على سحب المال وأخذه واسترجاعه مثل « ولم يؤت سعة من المال » (٢ : ٤٧) أو « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الاموال » (٢ : ١٥٥) أو اعطائه للآخرين مثل « وآتوهم من مال الله » (٢٤ : ٣٣) أو أخذه أو سحبه من الآخرين ظلما وعدوانا مثل « لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (٢ : ١٨٨) • والجر بالحرف « ب » يدل على اعطاء المال وعدم استبقائه أو حجزه • وقد يكون هذا العطاء لشراء الذمم والافساد

كالرشوة مثل « أتمدونن بمال » (٢٧ : ٣٦) أو لامتحان الشعور ومعرفة صلابة الذات واختبار القدرات من أجل التوعية لها وتقوية نشاطها مثل « وأمددناكم بأموال وبنين » (١٧ : ٦) أو « ويمددكم بأموال وبنين » (٧١ : ١٢) • اما الجر بالحرف « فى » فانه يشير الى أن المال يجمع بين الحركتين معا ، الاخذ والعطاء ، الدفع والجذب من والى ، وهو ما يسمى بالمشاركة مثل « وشاركهم فى الاموال » (١٧ : ٦٤) ، وهى حركة المال الخارجية ، أو التكاثر وهى حركة المال الداخلية • وحركة المال الداخلية سلبية مثل « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس » وهو التكاثر بلا جهد ونشاط وعمل واجتهاد ومثل « وتكاثر فى الاموال » (٥٧ : ٢٠) أى تكاثر الاموال بلا غاية أو هدف بل من أجل التكاثر والاكتناز وليس من أجل التنمية والتطوير •

أما اذا أتى المال منصوبا فهو أكثر حالات الاعراب شيوعا من الرفع والنصب (٢ — ١٣ — ١٧) وهو يدل على أن المال موضوع للنشاط وانه يقع عليه الفعل ، وأنه طيع فى يد الانسان • وقد يأتى أولا بمعنى سلبى ، وضعا لارتباط الشعور بالمال ، وادانة له مثل « وتحبون المال حبا جما » (٨٩ : ٢٠) حتى يظل الشعور الانسانى مستقلا عن طرفه الآخر وهو المال • فجمع المال ليس هدفا فى ذاته دون استثمار « الذى جمع مالا وعدده » (١٠٤ : ٢) وليس صرفه هدفا فى ذاته فذلك استهلاك بلا انتاج « يقول أهلكت مالا لبدا » (٩٠ : ٦) ، وليست كثرة المال فى ذاتها قيمة للانسان ، بل القيمة فى نشاطه وعمله « وقال لاوتين مالا وولدا » (١٩ : ٧١) أو « وجعلت له مالا ممدودا » (٧٤ : ١٢) • كما أن كثرة المال أو قلته ليست زيادة فى القيمة الذاتية للانسان أو نقصانها ، فالكم ليس مقياسا للكيف « أنا

أو أكثر منك مالا » (١٨ : ٣٤) أو « أنا أقل منك مالا » (١٨ : ٣٩)
أو « وأكثر أموالا » (٩ : ٦٩) أو « زينة وأموالا » (١٠ : ٨٨) أو
« أكثر أموالا وأولادا » (٣٤ : ٣٥) • وقد يأتى ثانيا بمعنى عدم
الاقتراب من أموال الآخرين وهم المحتاجون واليتامى والناس ، وليس
من بينهم الاغنياء ، مثل « ولا تقربوا مال اليتيم » (٦ : ٣٤) أو
« ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما » (٤ : ١٠) أو « وأكلهم أموال
الناس بالباطل » (٤ : ١٦١) أو « ليأكلون أموال الناس بالباطل »
(٩ : ٣٤) • فالمال للحاجة ، ومكانه الطبيعى عند المحتاج ، وأخذ المال
من المحتاج هو قضاء على الحياة ، والمال من أجل المحافظة على الحياة
واستمرارها • وقد يأتى ثالثا بمعنى اعطاء المال ، والتخلى عنه ،
واعطائه لمن هم أشد حاجة من الانسان مثل « وآتى المال على حبه
ذوى القربى واليتامى والمساكين » (٢ : ١٧٧) أو القيام بالافعال
تحقيقا لرسالة وليس انتظارا لاجر مثل « يا قوم لا أسألكم
عليه مالا ، ان أجرى الا على الله » (١١ : ٢٩) • هذه المعانى الثلاثة
للفظ « المال » فى حالة النصب تثبت أولا استقلال الشعور الانسانى
عن المال ، ثم تؤكد ثانية ضرورة محافظة الانسان على هذا الاستقلال
وذلك باعطاء المال من هو فى حاجة اليه ، ثم تبرز فى النهاية ضرورة
اعطاء المال لمن هو فى أشد حاجة من الانسان ، وايثار الآخر على
النفس • فاستقلال الشعور ليس واقعة فقط بل هو واقعة يحافظ عليها
بالحركة والنشاط ، وبمقاومة الرغبة فى الاستحواذ على ما لدى الآخرين،
وبايثار الآخر على الذات • فالحاجة هى التى تحدد اتجاه المال وحركته
بين الناس • فيتجه المال الى من هو فى حاجة اليه •

٦ــ أما « المال » المضاف الى الضمير فانه يذكر مرة مضافا الى ضمير المفرد (ماله ، ماليه) ٧ مرات ، ومرة أخرى يذكر مضافا الى ضمير الجمع فى صيغة الجمع (أموالكم ، أموالنا ، أموالهم) ٤٧ مرة أى أن المال لا يدخل فى علاقة كثيرة مع الفرد بل انه علاقة جماعية (٧ ــ ٤٧) ، فاذا ما دخل فى علاقة مع الفرد فانه يكون مالا مفردا وليس أموالا بالجمع ، فالفرد لا يمكنه أن يجمع المال ، بل أن تراكم الاموال يكون من عمل الجماعة ٠

٧ ــ ويكون « المال » مضافا الى ضمير المتكلم مرة واحدة (ماليه) أو الغائب (ماله) ست مرات ولكنه لا يكون أبدا مضافا الى ضمير المخاطب فى صيغة « مالك » ٠ وكأن الذى له المال اما أنا المتكلم بنسبة ضئيلة أو هو الغائب بنسبة كثيرة تربو على ستة أضعاف ٠ فالمخاطب لا مال له والمتكلم له مال نسبى أما الغائب فهو الذى له كل المال تقريبا وبالتالى تكون هناك طبقات ثلاث :

١ ــ طبقة المعدمين ، وهم المخاطب ، الذين لا يملكون شيئا ، وهم الجماعة الحاضرة الموجودة التى تحتاج الى من يخاطبها والتى هى مهيأة لحياة الوعى والادراك ٠

٢ ــ طبقة الفقراء ، وهم المتكلم ، الذين يملكون أقل القليل ، وهى الطليعة الواعية التى بالقدر الذى تملك تكون فى تحالف مــع الطبقة الادنى ، طبقة المعدمين ٠

٣ ــ طبقة الاغنياء ، وهم الغائب ، الذين يملكون كل شىء تقريبا ، والذين يكونون طبقة مناقضة لطبقتى المعدمين والفقــراء ، فالطبقــة

المتوسطة اذن أقرب فى تحالفها الى طبقـــة الفقراء منها الى طبقـــة الاغنيـــاء •

فاذا ما أضيف « المال » الى ضمير المتكلم (ماليه) فانه يشير الى استقلال شعور الانسان عن المال ، وأن قلة المال أو كثرته لم تؤثر فى وعى الانسان « ما أغنى عنى ماليه » (٦٩ : ٢٨) •

واذا ما أضيف الى ضمير الغائب (ماله) فانه مرة يكون فاعلا (٣ مرات) ومرة يكون مفعولا به (٣ مرات) ولكنه لا يكون مجرورا أبدا مما يدل على أن احتفاظ الفرد الغائب بماله بصورة ثابتة لا يؤخذ منه شىء هو أمر غير طبيعى • فالمال لا يسكن بل هو فى حركة دائبة منه واليه طبقا لنشاط الانسان وفعله • وفى حالة كونه فاعلا فانه يكون قيمة سلبية ولا يكون بديلا عن شعور الانسان واستغلاله ولا عن عمله ونشاطه « ما لم يزده ماله وولده الا خسارا » (٧١ : ٢١) أو « وما يغنى عنه ماله اذا تردى » (٩٢ : ١١) أو « ما أغنى ماله وما كسب » (١١١ : ٢) • وفى حالة كونه مفعولا به فانه يشـــير أيضا الى نفس الحقيقة السابقة وهى أن خلود الانسان لا يكون بما جمع من مال بل أيضا بما عمل بالمال وكيف استثمره « يحسب أن ماله أخلده » (١٠٤ : ٣) • فاذا ما تم الانفاق منه رغبة فى دفع المال وتحريكه فان هذا الانفاق يكون فى صورة نفاق ورياء ، تسكينا للجماهير أو مزايدة فى الدين أو تأجيلا لثورة ، هذه « كالذى ينفق ماله رئاء الناس » (٢ : ٢٦٤) ، ولكن السبيل الى الانفاق هو اعطاء حق الآخر من المال فى الزكـــاة « الذى يؤتى ماله يتزكى » (٩٢ : ٢٨) •

٨ — أما لفظ « المال » المضاف الى ضمير الجمع فى صيغة الجمع

(٤٧ مرة) فانه يضاف الى ضمير المتكلم مرتين (أموالنا) ، والى ضمير المخاطب ١٤ مرة (أموالكم) والى ضمير الغائب ٣١ مرة (أموالهم) مما يدل على ان المتكلمين ليس لديهم أموال وأن المخاطبين يأتون فى الدرجة الثانية ولكن الغائبين هم الذين يكتنزون الاموال (٢ — ١٤ — ٣١) • هناك اذن طبقات ثلاثة :

١ — طبقة الفقراء ، وهم نحن،المتكلمون ، الذى لا يملكون مالا تقريبا الا فى أقل القليل ، فالمال لا يوجد فى أيدى من يطالبون به ، ومن لا مال لهم هم الذين يتكلمون ، وطلب المال حق لمن لا مال له • وحتى فى هذين الاستعمالين ، مرة يكون المال مرفوعا ليدل على استقلال الشعور عنه « شغلتنا أموالنا » (٤٨ : ١١) ، ومرة يكون مجرورا اعلانا عن المشاركة فى الاموال « أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » (١١ : ٨٧) •

٢ — الطبقة المتوسطة ، وهم أنتم ، المخاطبون الذين يملكون بعض الاموال • فالتوجه بالخطاب الىّ الحاضرين ضرورة من المتكلمين الذين لا يملكون شيئا • فالخطاب الاجتماعى كلام ممن لا مال له الى من له مال • وفى استعمال هذه الصيغة يأتى مرة اللفظ فاعلا أو مبتدأ (أربع مرات) لاثبات استقلال الشعور عن المال ، وان المال لا يكون بديلا عن قيمة الشعور المثلة فى الجهد والنشاط « انما أموالكم وأولادكم فتنة » (٨ : ٢٨) ، (٦٤ : ١٥) • كما أن المال ليس سـبيلا للرقى والتقدم بالضرورة بل قد يؤدى الى التخمة والترف « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى » (٣٤ : ٣٧) • وكل مشروع يجعل من كثرة المال وسيلة للرفاهية والترف وبديلا عن الالتزام بمبدأ والدفاع عن قضية يكون مشروعا مفلسا « يا أيها الذين آمنوا ، لا تلهكم

أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » (٦٣ : ٩) • ثم يظهر اللفظ مرة أخرى مفعولا به (٥ مرات) مبينا حق الآخر فى المال وعدم الاعتداء على أموال المحتاجين ، وعدم أخذها زورا وبهتانا ، سرقة ونصبا واحتيالا بالتلاعب بالاسعار أو باحتكار الاسواق ، « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (٢ : ١٨٨) ، (٤ : ٢٩) ، فذلك اكتناز للمال ، واضافة مال الى مال ، وتجميع لرؤوس الاموال « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم انه كان حوبا كبيرا » (٤ : ٢) •كما تبدو أهمية استثمار المال دون صياغة ، واستثماره فيما هو منتج وليس فيما هو مستهلك ضائع ، فضياع المال فى الاستهلاك سفه ، واستثماره فى الانتاج زيادة ونماء ، « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » (٤ : ٥) فقيام المال بالاستثمار ، وضياع المال بالاستهلاك • فاذا ما حدث الاستثمار بنشاط الانسان وجهده ينمو المال ويكثر ، ويصبح الاجر مطابقا الجهد « وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم » (٤٧ : ٣٦) • وأخيرا يظهر اللفظ أيضا مجرورا (٥ مرات) للتأكيد مرة ثانية على ضرورة عدم استغلال رأس المال لجهد الآخرين ، وعلى الكف عن هذا الاستغلال عندما يولد المال المال بلا جهد ، وعلى ارجاع رأس المال للانسان والا صادرته السلطة الشرعية « وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم تظلمون ولا تظلمون » (٢ : ٢٧٩) ، وذلك من أجل اعادة استثمار المال بلا استغلال لجهد الآخرين « أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين » (٤ : ٢٤) • وأفضل استثمار للمال هو بذله فى قضية عامة تهم مصالح المسلمين وعلى رأس القضايا جميعا ، الجهاد « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » (٩ : ٤١) ، « وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » (٦١ : ١١) فذلك هو الاختبار

الحقيقى لطريقة استعمال الانسان للمال « ولتبلون فى أموالكم وأنفسكم» (٣ : ١٨٦) .

٣ ـ طبقة الاغنياء ، وهم الغائبون الذين يملكون المال والثروة : كالملاك الغائبين ، والمرابين ، وأصحاب رؤوس الاموال ، وهم الطرف المقابل للطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة ، وهم الذين يشار اليهم باصبع الاتهام ، بأنهم كنزة الاموال . ومن حيث الاستعمال يأتى لفظ « أموالهم » مرفوعا (٥ مرات) للاشارة الى أن كنز المال ليس بديلا عن جهد الانسان ونشاطه وعمله « لن تغنى عنهم أموالهم » (٣ : ١٠) ، (٣ : ١١٦) ، (٥٨ : ١٧) ، والى أن كثرة المال لا تدل على قيمة فى ذاتها « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم » (٩ : ٥٥) ، (٩ : ٨٥) . ويأتى اللفظ مرة أخرى منصوبا (١٢ مرة) للاشارة الى استحالة أخذ أموال اليتامى ، وهم المحتاجون ، وأن من يكنزون الاموال انما قد كنزوها حتما من أموال المحتاجين « وآتوا اليتامى أموالهم » (٤ : ٢) أو « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم » (٤ : ٢) أو « فادفعوا اليهم أموالهم » (٤ : ٦) أو للحث على انفاق المال وعدم اكتنازه ، وضرورة سيولته واستثماره ، فالمال للمحتاج ، والمال للانفاق « مثل الذين ينفقون أموالهم » (٢ : ٢٦١) ، (٢ : ٢٦٥) أو « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله » (٢ : ٢٦٢) . هذا الانفاق من أجل قضية ، ومن أجل تحقيق هدف والحصول على نتيجة « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » (٩ : ١١١) . فاذا حدث ذلك أتت أموال الاغنياء الى من ينفقها فى سبيل الغاية « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم » (٣٣ : ٢٧) . أما الانفاق من أجل التظاهر الاجتماعى أو من أجل

المزايدة فى الدين وادعاء التقوى ، أو من أجل الحصول على مصلحة أكبر فهو نفاق ورياء « والين ينفقون أموالهم رئاء الناس » (٤ : ٣٨) • وكذلك الانفاق من أجل هدم المبدأ واعاقة تطبيقه ومن أجل استغلال الناس واستبعادهم فهو مقاومة للحق واستعمال المال ضد الامانة وليس من أجلها « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » (٨ : ٣٦) • وأخيرا يأتى اللفظ مجرورا من أجل بيان سيولة المال وحركته وعدم ثبوته وسكونه فى خزائن أصحاب المال • فالمال للانفاق من أجل القضية « وبما أنفقوا من أموالهم » (٤ : ٣٤) ، والمال للجهاد فى سبيل الله وليس تكسبا بقضايا الدين « والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم » (٤ : ٩٥) ، « فضل الله المجاهدين بأموالهم » (٤ : ٩٥)، « وجاهدوا بأموالهم » (٨ : ٧٢) ، (٩ : ٨٨) ، (٤٩ : ٢٥) ، « وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم » (٩ : ٢٠) ، « أن يجاهدوا بأموالهم » (٩ : ٤٤) • والذين لن يجاهدوا بأموالهم ستضيع أموالهم اما بالخسائر الطبيعية أو بثورات المعدمين ضدهم « ربنا اطمس على أموالهم » (١٠ : ٨٨) • والمال للمشاركة ، وهو ملك للجميع ، لكل فرد حق فيه • « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » (٧٠ : ٢٤) ، « وفى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » (٥١ : ١٩) • وذاك أمر تشريعى وليس متروكا للصدقة أو للزكاة أو للاحسان « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (٩ : ١٠٣) • فمال الملاك الغائبين هو فى نهاية الامر مال الجماعة لا يجوز لاحد أن يستحوذ عليه أو أن يمتلكه •

ثانيا : تحليل المضمون ٠

وينتهى تحليل المضمون ، تحليل معانى الآيات بصرف النظر عن صورتها الى نفس النتيجة السابقة ٠ ويمكن حصر هذه المعـانى فى مجموعات ثلاث :

١ ـ المال مال الله يورثه لمن يشاء من عباده الصالحين ٠ فملكية المال فى الاسلام لله وحده ، وضعه الله بين أيدينا وديعة نصرفه فيما أمر الله له أن يصرف ، للمحتاجين والفقراء أى لمن لا مال لهم ، « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (٢٤ : ٣٣) ، المال وديعـة بين يدى الانسان لا يجوز له الاستحواذ عليه « فاذا آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم » (٤ : ٦) ٠ ويتم نقل المال الى المحتاج علنا ، فذاك حقه العلنى « فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشـهدوا عليهم » (٤ : ٦) ٠ فحركة المال ليس فيها سر ، ولا تتم عن طريق التسرب أو الخفاء أو ما يسمى بلغتنا عن طريق « التهليب » ٠ فالمال مال الله يوجه الى الآخرين ، وليس ارثا أو احتكارا أو ملكا لاحد ٠ حركة المال وانتشاره تخضع لقوانين اجتماعية وليست حقا مكتسبا لفرد دون فرد ، فاذا ما خضع المال لهذه القوانين أصبح فى يد الجماعة التى تستثمره لصالح الجماعة « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها » (٣٣ : ٢٧) ٠ وبتعبير آخر ، المال مشاركة بنص القرآن « وشاركهم فى الاموال » (١٧ : ٦٤) وليس استحواذا ٠ المـال يتحرك بين الافراد كتحرك الماء بين الاوانى المستطرقة طبقا للحاجـة وليس من أجل الزيادة ، وطبقا للاستثمار وليس من أجل الاكتناز ٠ فاذا ما حاول أحد أو جماعة وقف حركة المال تدخلت السلطة الشرعية وفكت حصار المال ، وأخذت حق الآخرين فيه « خذ من أموالهم صدقة

تطهرهم وتزكيهم بها » (٩ : ١٠٣) ، والصدقة ليست احسانا أو تصدقا أو تفضلا بل هى حق الآخر فى مال الفرد ، واعادة انتماء لشعور الفرد وعودته الى وضعه الطبيعى ، وقضاء على اغترابه عن المجتمع وانحرافه عن القانون الطبيعى للمال وهو حركته الاجتماعية ، وهو ما يسمى بلغة الاخلاق أن الصدقة طهارة للنفس وتزكية لها • والزكاة نفسها فى العبادات هى تأكيد على حق الآخر فى المال « ويتجنبها الاشقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى » (٩٢ : ١٨) • وليس المقصود منها رشوة اجتماعية وسياسية حتى يترك الانسان بماله يفعل ما يشاء ما دام قد دفع ٥ر٢٪ من ماله المخزون الذى مر عليه الحول دون حركة ، بل المقصود هو التأكيد على حق المجتمع فى المال وعلى ضرورة استثماره دون خزنه واكتنازه • بل أن حق الآخر فى مال الفرد نص صريح لا يحتمل تأويلا أو تخريجا « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٧٠ : ٢٤) ، ومرة أخرى « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٥١ : ١٩) • ومشاركة الاموال بين الناس ، وحق الآخر فى مال الفرد هو الغاية من العبادات وعلى رأسها الصلاة ، والصلاة احساس بالآخر غير المتعين وهو الله ، ومشاركة المال هو احساس بالآخر المتعين وهو الذى لا مال له « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » (١١ : ٨٧) •

لذلك استحال أن يضيف الغنى الى أمواله مال الفقير ، أو أن يأخذ من له مال حق من لا مال له « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم انه كان حوبا كبيرا » (٤ : ٢) حتى لا يتراكم رأس المال وحتى يظل المال سائلا بين أيدى الناس ، متحركا فى الجماعة • فاضافة مال الآخر الى مال الفرد اثم وعدوان ، وظلم وبهتان « لتأكلوا فريقا من أموال

الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (٢ : ١٨٩) • فالاثم والزور والبهتان والبطلان ليس فى العبادات وحدها بل أيضا فى خروج المال على نظام استعماله وعلى مساره الاجتماعى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (٢ : ١٨٨) ، أو « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (٤ : ٢٩) • فالايمان مساو لاستعمال المال حسب الشرع ، وحركة المال بين الناس دون استحواذ تعبير عن الايمان •

ولا فرق فى الاستحواذ على أموال الناس بين رجال الدين ورجال الدنيا ، بين السلطة الدينية والسلطة السياسية ؛ فكلاهما قد يوقفان حركة المال « ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال النـــاس بالباطل » (٩ : ٣٤) ، وهو ما يفسر تاريخيا باستمرار تواطؤ السلطتين الدينية والسياسية على أكل أموال الناس مما يسبب الثورة الاجتماعية التى تعيد الحركة الى المال •

والآخر هو الفقير المحتاج الذى لا عائل له ، الممثل باليتيم • فاليتيم هو الذى فقد عائله ولم يعد له سند الا من الجماعة • هـذا اليتيم له حق فى ماله ، ان كان له مال ، وهو حق الحاجة والفاقة ، ولا يمكن الاقتراب من ماله ، فالمال يستعمل عند الحاجة ، الحاجة هى التى تحدد الملكية ، وليست الملكية هى التى تحدد الحاجة • لا توجد ملكية مجردة بل توجد حاجة ملموسة يجوز عندها استعمال المال وتصريفه « ولا تقربوا مال اليتيم » (٦ : ١٥٢) ، (١٧ : ٣٤) • وأكل مال المحتاج الذى لا عائل له هو أكل للنار فى البطون أى كسب حـرام « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا » (٤ : ١٠) • ومن يفعل ذلك يستبدل الخبيث بالطيب ، والحرام بالحلال « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » (٤ : ٢) •

ويتم استثمار المال بالجهد والنشاط وبالعمل ، فالمال امكانية حركة ونشاط ، وسيلة للانسان كى يظهر بها قواه ، ويحقق بها امكانياته • ولكن المال لا يولد المال • ولهذا حرمّ الربا لانه أكل لاموال الناس بالباطل ، وزيادة فى المال بلا جهد أو عمل أو كد أو نصب « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل » (٤ : ١٦١) • فزيادة المال كما لا تعنى نماء الانسان كيفا ، وذلك لان النشاط هو الذى يغير الكيف « وما أتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله » (٣٠ : ٣٩) • فالربا استغلال لحاجات الآخرين ، وتكاثر فى المـــال بلا زيادة مقابلة فى الانتاج ، وتسرب الاموال من المحتاجين الى الذين لديهم فائض فى الاموال • والتوبة من الربا تعنى استرداد الفـــرد لرأسماله وارجاع ربح المال الى المستدين « وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (٢ : ٢٧٩) • استثمار المال اذن يتم بنشاط الانسان ، وبعرقه وكده « ان تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين » (٤ : ٢٤) ، ويتم الاستثمار بالترشيد والتنظير وحسن التصرف « ولا تؤتوا أموالكم التى جعل الله لكم قياما » (٤ : ٥) • فالمال من أجل القيام أى الانتاج والزيادة وليس من أجل الاستهلاك والنقصان • فاذا كان الربا أجرا بلا عمل فان نشاط الانسان قد يكون عملا بلا أجر لان نشاطه يهدف الى تحقيق رسالة ولا يهدف الى تحقيق ربح • فالربح ليس هو الدافع على النشـــاط بل الدفاع عن قضية ، والانتصار لمبدأ « يا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله » (١١ : ٢٩) • فاذا عمل الانسان من أجل قضية ، تحقيقا لهدف ، وتأدية لرسالة فانه لن يعدم ما يقيم به حياته « وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم »(٤٧ : ٣٦) •

٢ — تأكيدا على المشاركة فى الاموال ، وتطبيقا لحركة المال فى المجتمع ، كاما ذكر المال ذكر الانفاق له ، والجهاد به ، والبذل منــه فى سبيل الله أى فى سبيل المصلحة العامة ، وخدمة للقضية التى بهـا عموم البلوى كما يقول الفقهاء • « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء » (٢ : ٢٦١) • والانفاق لا يعنى الصدقة بل يعنى استثمار المال وذيوعه وحركته وعدم اكتنازه أو خزنه « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة » (٢ : ٢٦٥) • فالانفاق هنا أيضا لا يهدف الى الربح بل الى خدمة القضايا العــامة • ويتم هذا الانفاق سرا وعلانية فقط بغية الشهرة أو الحصول على مصلحة أكبر « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار ، سرا وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم » (٢ : ٢٧٤) • فما أكثر الانفاق الذى يتم رياء ونفاقا أو من أجل الحاق الاذى والاضرار بالآخرين واستغلالا لهم ، على عكس « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم » (٢ : ٢٦٢) • وفى الانفاق يتميز فرد عن فرد ، ويتفاضل مؤمن عن مؤمن ، فالتفاضل والتمايز ليس فى قدر المال بل فى قدر الانفاق أى المساهمة بالمال من أجل المصلحة العامة • وبهذا المعنى وحده يفضل الرجال والنساء بما أنفقوا من أموالهم « بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » (٤ : ٣٤) • أما الانفاق ضد المصلحة العامة وصدا عن سبيل الله فهو الكفر بعينه « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » (٨ : ٣٦) • فالكفر ليس هو الكفر النظرى بل هو كيفية انفاق المال فى تخريب الذمم والضمائر ، رشوة للناس ، وفى غرس قيم الترف والنعيم التى هى أبعد ما تكون عن قيم النضال ، وتحقيق الرسالة •

وانفاق المال هو جهاد فى سبيل الله مقرون بجهــاد النفس : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » (٩ : ٤١) . والجهاد بالمال وصف لواقع مثل « وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » (٦١ : ١١) . كما هو تقرير لسلوك ماض « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » (٨ : ٧٢) . كما هــو أمر فى الحاضر . فالجهاد بالمــال لا يعرف وقتا ولا زمنا . والذى يريد التشبه بالرسول فليفعل بالجهاد وبالمال وليس فقط باقامة الشعائر واطالة اللحى « لكن الرسول والذين معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم » (٩ : ٨٨) . والجهاد بالمال يتم عن اقتناع وليس عن ريبة فى نتيجة الجهاد ومآل المال ، فالعمل التاريخى عمل طويل ، والاستثمار التاريخى قد لا يبدو فى التو واللحظة « ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » (٤٩ : ١٥) كما أن الايمان بالقضية ايمان يقينى لا ريبة فيه حتى يتم الجهاد بالمال عن يقين أيضا . ويكون الجهاد بالمال على قدر الطاقة ، وقليل المال يعظم بتكرار البذل والعطاء من الآخرين « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الاخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم » (٩ : ٤٤) . وكما يتفاضل الناس بالانفاق فانهم يتفاضلون أيضا بالجهاد بالمال « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » (٤ : ٩٥) . فالتفاضل ليس فى الطبقات الاجتماعية أو فى المناصب الادارية أو فى الوجاهة الاجتماعية بل فى الجهاد بمال الفرد فى سبيل القضية العامة ، التحرر للبلد المحتل ، والتنمية للبلد المتخلف « فضــل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » (٤ : ٩٥) . وقد يصل حد الجهاد بالمال الى الجهاد بكل المال عن طريق تركه كلية والسعى فى سبيل

الله تحقيقا للرسالة ، ودفاعا عن القضية ، فالانسان لا يرتبط الا بالهدف « الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله » (٥٩ : ٨) . وهنا لا يكون فقد المال خسارة بل يكون وجودا للذات ، وانتصارا للمبدأ ، ودفاعا عن الحق ، واعلانا عن استقلال الانسان « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » (٩ : ١١١) .

٣ — بعد التأكيد على شيوع المال ، وعلى ضرورة الانفاق له والجهاد به ، تأتى الحقيقة الثالثة وهى اعلان استقلال الشعور الانسانى . فالذى يحب المال مدان لانه يربط شعوره بشىء آخر غير القضية « وتحبون المال حبا جما » (٨٩ : ٢٠) . فاذا ما أحب الانسان المال أكثر من التزامه بالمبدأ ودفاعه عن القضية انهار البناء الاجتماعى وتوقفت حركة التاريخ « قل ان كان ... وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ... فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » (٩ : ٢٤) . فالشعور السوى هو الذى ينفق المال ويجاهد به على حبه للمال « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين » (٢ : ١٧٧) . وهو الشعور الذى لم يغتر بالمال ولم يرضخ له .

والمال ليس قيمة فى ذاته بل قيمته من الجهد المبذول فى استثماره « الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده » (١٠٤ : ٢ — ٣) أى فى استقلال الشعور عن المال . كما أن المال ليس بديلا عن التصور الصادق للحياة ، فالمال لا يغنى من الادراك والمعرفة والا لاصبح الانسان « غنى حرب » ! « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لاوتين مالا وولدا » (١٩ : ٧٧) . فالكم ليس بديلا عن الكيف ؛ والموضوع ليس بديلا عن الذات ، والمادة ليست بديلا عن الشعور . والمال لا يعصم من الانهيار ، فالبناء لا يتم الا بالكيف « ذرنى ومن خلقت وحيدا ،

وجعلت له مالا ممدودا ... سأرهقه صعودا » (٧٤ : ١٢ — ١٧) .
المال ليس بديلا عن بناء الشعور واتجاهه ، وجمع المـال لا يعنى
بالضرورة زيادة الوعى أو قيمة العمل أو تطور المجتمع . ونقص المال
ليس نقصا فى القيمة نظرا لاستقلال الشعور عن المال « ونحن أحق
منه بالملك ، ولم يؤت سعة من المال » (٢ : ٢٤٧) . فالمـال فى حركة
دائبة ، يقل ويكثر ، لا يثبت على حال معين ، هو شىء عارض محض
لا تتوقف عليه قيمة الانسان . قلة المـال اذن قد تعنى عظم قيمـة
الشعور ، واستقلال الانسان « ان ترنى أنا أقل منك مالا وولدا فعسى
ربى يؤتينى خيرا من جنتك » (١٨ : ٣٩) . بل ان نقص الاموال قد
يكون وسيلة لازدهار الشعور ، وطريقة لاعلان استقلاله ، وشحذا
لهمته ، « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الاموال »
(٢ : ١٥٥) . فنقص المال دافع لحركة الجماعة واشارة بالبنان الى من
لديهم المال الفائض « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم » (٣ : ١٨٦) .
فذلك جزء من التجربة الاجتماعية . وبالتالى يستحيل الفقر الدائم
كما يستحيل الغنى الدائم .

وكما ان نقص المال ليس بديلا عن استقلال الشعور ، فان كثرة المال
لا تعنى بالضرورة استقلال الشعور وقيمة عمله ، اذ الكم لا يغنى عن
الكيف « فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » (١٨ :
٣٤) . المال مجرد زينة للحياة أى شىء عارض فى مقابل الشعور وهـو
الشىء الثابت الجوهرى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (١٨ : ٤٦) .
المال كالنسل مظاهر خارجية للحياة « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو
وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد » (٥٧ : ٢٠) . وكما
يكون نقص المال شحذا للشعور تكون زيادة المال ضياعا للشعور ، ولتمثله

للمبدأ والتزامه بالقضية « أمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا » (١٧ : ٦) . وتكون كما بلا كيف « ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات » (٧١ : ١٢) . فكثرة المال قد تعنى النهاية والفناء كما حدث الآن فى مجتمعات الوفرة والرفاهية « أيحسبون أنما نمدهم من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات » (٢٣ : ٥٥) . وبتعبير قرآنى ، قد تكون كثرة المال فتنة كما أن قلة المال ابتلاء « واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة » (٨ : ٢٨) . وقد تصبح كثرة المال نقمة لا نعمة اذا ما اعتبرها صاحبها بديلا عن العمل ، وقيمة فى ذاتها . « عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذال مال وبنين » (٦٨ : ١٤) . وكلما زاد المال زادت الخسارة بزيادة الطغيان ، والعمى الذهنى « ربى انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا » (٧١ : ٢١) . وقد كان فرعون كثير المال ولكن هذه الكثرة لم تغنه عن العقل والفضيلة « انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحيـــاة الدنيا » (١٠ : ٨٨) . فكثرة المـــال وكثرة النسل ما هى الا ظاهر فى الدنيا لا يجوز الحكم عليه طبقـــا للجوهر « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم » (٩ : ٥٥) . كثرة المال قد تزيد من قسوة القلب وتبعد الانسان عن طريق الوعى والفضيلة « ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم » (١٠ : ٨٨) .

والمال ليس سبيلا للخلاص ، وليس بديلا عن العمل الصالح ، فالكم لا يغنى عن الكيف ، والموضوع ليس بديلا للذات ، والمادة لا تغنى عن المعنى ، والشىء ليس بديلا عن النشاط « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (٢٦ : ٨٨) . المال ليس بديلا عن الوعى « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقـــال لاوتين مالا وولدا » (١٩ : ٧٧) . والمال ليس بديلا عن الرؤية الصادقة والادراك السليم

والحس البديهى « ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » (٣ : ١٠ ، ١١٦) • واستهلاك المال لا يغنى الانسان عن بذل طاقته فى العمل الصالح « يقول أهلكت مالا لبدا » (٩٠ : ٦) • ولن يستطيع المال حفظ صاحبه من السقوط والتردى « وما يغنى عنه ماله اذا تردى » (٩٢ : ١١) •

والمال كالسلطان لا يغنيان عن العمل الصالح « ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه » (٦٩ : ٢٨ — ٢٩) • والتاريخ شاهد على انهيار الشعوب التى اعتمدت على قوة المال وحده « كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا » (٩ : ٦٩) • لن تغنى كثرة المال أو النسل من الانهيار والسقوط ، فقوانين التاريخ وحركة المجتمعات ثابتة « وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » (٣٤ : ٣٥) • بل ان صاحب المال لا يستطيع أن يتقرب بماله أو أن يترقى بما يكتنز • فالصعود الاجتماعى من حيث الغنى لا يقابله صعود معنوى من حيث القيمة « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى » (٣٤ : ٣٧) • لذلك يحذر القرآن دائما من رضوخ الشعور للمادة ، وينبه على خطورة نزوله عن استقلاله أمام المال « شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » (٤٧ : ١١) أو قبول المال رشوة بديلا عن نقاء الضمير والالتزام بالمبدأ « أتمدوننى بمال » (٢٧ : ٣٦) • ويأتى هذا التحذير بصيغة الامر « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » (٦٣ : ٩) •

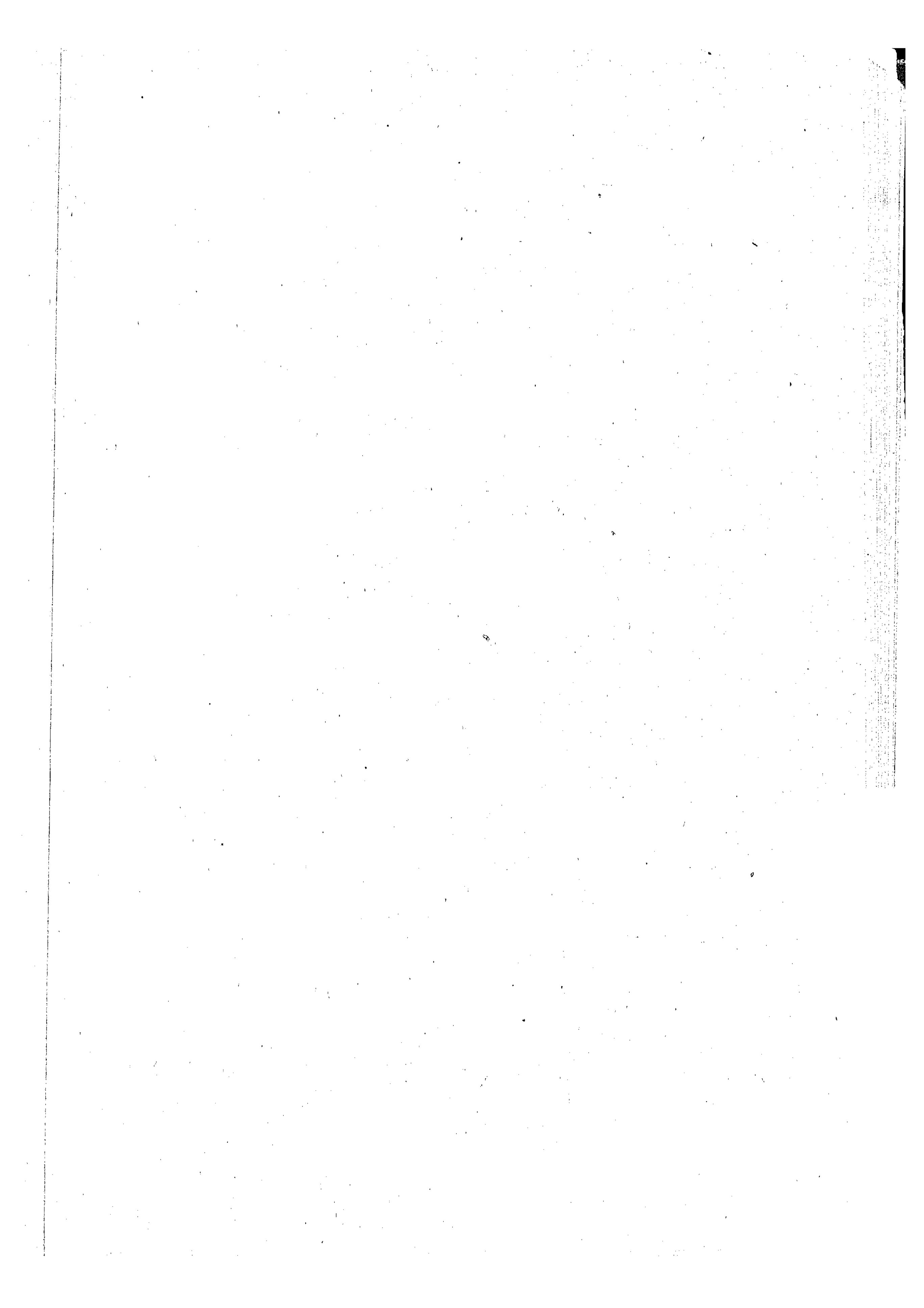
هذه المعانى الثلاثة هى التى يدور حولها مفهوم « المال » فى القرآن ، المال حق لله ، وحق الآخر ، وحق استقلال الشعور الفردى عنه •

وفى النهاية ، يمكننا استنتاج الآتى :

١ — الطريق اللارأسمالى للتنمية فى البلاد النامية هو الطريق الذى ينبع من تراثها القديم ، ومن وجدانها القومى ، ومن قيمتها وعاداتها وتقاليدها ، وهو فى الغالب التراث الدينى ، ومن ثم وجب اعادة تفسيره على نحو يساعد قضية التنمية ، ويخدم مصالح الاغلبية .

٢ — المال مال الله وليس ملكا لاحد ، ولكن للانسان حق التصرف وحق الانتفاع وحق الاستثمار ، فاذا ما استغل الانسان الآخر أو احتكر أو اكتنز فان من حق السلطة الشرعية استرداد الوديعة . لذلك من حق السلطة الشرعية التأميم والمصادرة للصالح العام . فملكية المال أقرب الى الجماعية منها الى الفردية .

٣ — المال حركة اجتماعية بين أفراد الجماعة ، لا يجوز اكتنازه أو احتكاره أو الاحتفاظ به بل هو مال سائل للاستثمار لصلحة الجماعة . ومن حق السلطة الشرعية التدخل لمنع تكديس المال أو اختزانه دون استثمار .



ماذا تعنى : أشهد الا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ؟

فى هذا الشهر الكريم ، شهر رمضان الذى تزداد فيه عواطفنا الدينية اشتعالا ، ونعبر عنها فى مظاهر خارجية عديدة بالاكثار من النوافل ، والمشاركة فى الموالد ، والزيادة فى أنوار المآذن والمساجد ، وتسبيح الله وحمده بالتمتمات فى الطرقات ، وحمل المسبحات فى وسائل النقل العامة ، ونهر المفطرين والازدراء بهم ، والتكالب على شراء مستلزمات شهر رمضان من بضائع مستوردة ، بعد تدبير الدولة العملة الصعبة لهذا الغرض ، والافطار الراقص والسحور . فى وسط هذا كله يتريث المتأمل منا فى دينه ، ويفكر فى أصوله ، ويحصى أركانه ، فيجد أن أول ركن من أركان الاسلام هو الشهادة ، شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله كما هو معروف فى الحديث المشهور « بنى الاسلام على خمس ... » وهى الشهادة التى نطلقها قبل كل صلاة ، والتى أصبحت عنوان المسلم . فان قالها عصم دمه وماله ، ودخل فى زمرة الجماعة ، وأصبح فردا فى الامة له ما لها من حقوق ، وعليه ما عليها من واجبات ، والتى أصبحت شعارا على أعلام كثير من الدول التى لها تاريخ اسلامى . ثم يسأل نفسه ماذا تعنى : أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله بالنسبة للعصر الحاضر ؟

هى عبارة مركبة تتكون من ثلاث عبارات بسيطة : أولا — أشهد أن . ثانيا — لا اله الا الله . ثالثا — وأن محمدا رسول الله .

كتب هذا المقال لجريدة « الاهالى » عام ١٩٧٨ .

أولا : ماذا تعنى الشهادة ؟

يظن الناس خطأ أن الشهادة تعنى مجرد قول ، فاذا ما لفظ الانسان الشهادة فهو مسلم • ومع أن هذا التفسير هو الذى أخذه المرجئة من الفرق الكلامية ، وأبو حنيفة من الفقهاء الا أنه يجعل اعلان الشهادة اعلانا مجانيا بلا ثمن ، وقولا فارغا بلا مضمون • فما أسهل أن ينطق الانسان بالشهادة باللسان دون أن يعنيها بالفكر أو يشهد بها بالوجدان أو أن يصدقها بالعمل • وهذا هو حالنا جميعا عندما نسمعها قبل كل صلاة فى الآذان ، وعندما نرفع ابهامنا ناطقين بها ونحن راكعون فى التشهد فى آخر الصلاة ، وعندما نرى جنازة فى الطريق العام ، وعندما نرى مصيبة وقد حلت بفرد أو جماعة ، وعندما نميز أمتنا عن غيرها من الملل •

فاذا كنا أكثر جرأة ، وأكثر التزاما ، وأكثر استنارة ، فان القول قد يصحبه فكر ، فنعنى بعد النطق بالشهادة بأن الله موجود ، وبأنه واحد ، ولكن هذا الفكر المسطح الذى يجعل من الالوهية قضية اثبات أو نفى أو مجرد قضية عددية تشير الى أن الله عدده واحد لا تزيد عن القول المجرد ، فهى فكرة مجردة أيضا لا مضمون لها ، فكلنا نعلم أن الله واحد ، ولكن ما هى متطلبات هذه المعرفة ؟ وماذا تعنى هذه المعرفة بالنسبة للشعور وكيان الفرد ؟ وماذا عن أثرها فى العالم الخارجى ؟ لا شىء ، فهى معرفة جرداء عرجاء ، ولو كنا نعلم جميعا أن الله واحد لما أشركنا به شيئا ، ولا يعنى الشرك اثبات أن الله عدده اثنان أو أكثر بل يعنى الاشراك فى الدوافع والغايات ، وكثير منا تحركه دوافع الهجرة الى الخارج أو الكسب غير المشروع فى الداخل ، أو

البحث عن الجاه والسلطان ، أو الجرى وراء الجنس المكبوت . فمعرفة أن الله واحد هى معرفة العجائز ان لم تتحقق متطلباتها .

فاذا كنا أكثر التزاما ، وأبعد نظرا ، وأعمق شعورا ، أصبح للشهادة معنى يحياه الانسان ، ويشعر به ، ومن ثم تكون المعرفة بأن الله موجود وواحد أكثر التصاقا بحياة الانسان ووجدانه ، يشعر بمعنى العبارة ، ويحس بمضمونها ، ويدرك أثرها فى النفس ، فاذا قال الشهادة فانه يعنيها ويشعر بها . ولكن يظل أيضا هذا الفهم على مستوى العجائز لانه لا يحقق مطلبا فى الخارج ، ولا يتجاوز عالم الانسان الداخلى . يظل الله كدافع شعورى مطويا ، مكنونا ، مخزونا ، حبيسا فى النفس ، لا يدفع ولا يحرك ، لا يبعث ولا ينشط ، وكثيرا ما تزيحه الدوافع الحسية الاكثر التصاقا بحياة الناس المباشرة ، فيتحرك الانسان بدافع الكسب أو الشهرة أو الجنس أو الخوف أكثر مما يتحرك بدافع الالوهية ، وكثيرا ما تزاحمه هموم الحياة اليومية فيتحرك سعيا وراء الرزق والمواد الغذائية المدعمة من الدولة أكثر مما يتحرك بالالوهية الدفينة .

فاذا كان التزامنا واضحا ، وكنا نبغى دفع الثمن الذى يتطلبه قول « لا اله الا الله » ، وكنا أكثر التصاقا بالواقع ، وأكثر التحاما بمشاكل الجماهير ، وأكثر استعدادا للتضحية ، وأشد جرأة ، وأقل خوفا ، وأكثر نقاء وطهارة ، وأقل انغماسا فى الوظائف والروتين ، تتحول الشهادة من الداخل الى الخارج ، فلا تكون قولا فحسب ، ولا معنى فقط ، ولا شعورا وكفى ، بل تكون عملا يتحقق به هذا القول بالفعل ، ويحيل معناه الى واقع ، ويتحول الشعور من رضى واستكانة الى حركة ونشاط ، وتنطلق الدوافع الحبيسة والطاقات المعطلة وتنصرف فى

الواقع تجرف ما يصدها ، وتعيد البناء ، وتتحول الجماهير الى حركة فى التاريخ • وهذا ما عنى به الفقهاء والمصلحون الاجتماعيون عندما فرقوا بين توحيد النظر وتوحيد العمل ، وأن الثانى هو حق الاول ومضمونه ، وأن انهيار المسلمين يحدث اذا ما أخذوا توحيد النظر وتركوا توحيد العمل ، وأن صلاحهم وتقدمهم وفلاحهم انما يأتى بدفع ثمن التوحيد ألا وهو العمل •

فالشهادة اذن لا تعنى فقط القول أو التشهد بل تعنى أن يكون الانسان حاضرا فى جماعة ويشهد على عصره ، ويقول هذا مرض أقضى عليه ، وهذا فقر فى مجتمع الاغنياء ، وهذا احتلال لاراضى المسلمين ، وهذا تخلف لدى خير أمة أخرجت للناس • فالشهادة من « شهد » أى الاعلان ، والدحض ، والفضح ، والاثبات ، والنفى ، وأخذ الموقف ، والانتصار للحق • تعنى الشهادة رؤية أحوال العصر والحكم عليها بأحكام الله • فاذا شهد الانسان على عصره بالقول وبالعمل وفضح الانفصام بين الفكر والواقع ، وأظهر المسافة بين كلام الله والاوضاع الاجتماعية ، ومات دون غايته فانه يصبح شهيدا ، فالشاهد على عصره هو الشهيد فى عصره ، والشهيد عند قوم هو الشاهد على أحوالهم • وبلا مساومة أو اعلان لانصاف المفردات • الشهادة اذن هى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كل مكان حل فيه الانسان ، وفى كل جماعة يحط عليها ، أن يغير الانسان المنكر باليد أى بالفعل ، وبالقول أى بالجهر بالحق ، وبالقلب حتى يظل شعوره طاهرا نقيا ، وحتى لا تفسد الضمائر والذمم أمام الرشاوى والاغراءات أو التهديدات والتلويح بالعقوبات •

ثانيا — ماذا تعنى : لا اله الا الله ؟

من الناحية اللغوية الصرفة وتركيب الجملة ، العبارة منفية بلا ومستثناة بالا ، واذا أردنا معـرفة معناها كما يقول علمـاء اللغة وينصحون ، وكما تعلمنا فى المدارس نسقط النفى ونسقط الاستثناء • فاذا فعلنا ذلك مع عبارة « لا اله الا الله » وأسقطنا لا ثم اسقطنا الا كان لدينا « اله الله » أو « اله اله » أو « الله الله » وهـذا يسمى فى لغة المنطق تحصيل حاصل ، اذ أنا نجعل الموضوع محمولا ، والمحمول موضوعا أو أن نكرر الموضوع مرتين أو المحمول مرتين • وفى كـل الحالات لا تفيد العبارة شيئا على مستوى النظر أو المعنى •

ولكن العبارة تدل على موقف عملى ، وبتعبير أدق تدل العبـارة على فعلين من أفعال الشعور يقوم بها المؤمن ، فأفعال الايمان كلهـا أفعال شعورية • الاول فعل الفرض فى قول الانسان « لا اله » ، أن يرفض الانسان كل آلهة العصر المزيفة ، وأن ينفيها ، ويفضحها ، ويدمغها ، ويقضى عليها باليد واللسان والقلب ، فتلك شهادته عليها • وكل عصر له آلهته ، وآلهة عصرنا هى المال ، والسلطة ، والجـاه ، والجنس ، وغيرها ، وهى آلهة لانها تمثل أقوى الدوافع فينا • فالكل يبحث عن المال ، ويجرى وراءه لاهثا ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، ولا يراعى الانسان فى ذلك قانون ، ولا يرعى حرمة ، لا تهمه الا العمولات ، والسمسرة ، والمضاربة ، والتحايل على القانون ، والتهرب من الضرائب ، والسـعى لدى الولاة من أجل تراخيص الاسـتيراد والتصدير ، والاتجار فى السوق السوداء • وقد يبحث آخرون عن السلطة ، حبا فى السيطرة ، ورغبة فى التحكم فى رقاب الناس ، فيتزلفون الى الحكام سعيا وراء المناصب ، ويبررون قراراتهم اسراعا منهم فى

التأييد ، ويباركون خطواتهم ، ويثنون على أشخاصهم ، ويجعلون أنفسهم مداحين ومنشدين ، انتظارا للمن والسلوى ، وكثيرا ما تطول قوائم الانتظار . وقد يبحث فريق ثالث عن الشهرة ، ويتوق الى أخذ المراكز الاولى ، والى تصدر المجالس حتى تتحقق ذاتيته المنسية ، ويكثر الحديث عنه فى أجهزة الاعلام ، ويضحى بالمصلحة العامة من أجل تأكيد أدوارهم المدعاة ، ويقضون على الوحدة الوطنية من أجل قيادة تبحث عن دور . وقد يبحث فريق رابع عن تحقيق رغبة جنسية مكبوتة ، ويعبر عن ذلك فى الاشارات المستمرة الى الجنس فى أحاديثنا ، وفى نكاتنا الشعبية ، وفى ذكر شارع الهرم بملاهيه ولياليه ، وفى الاكثار من الحفلات الراقصة ، واثارة المشكلات القانونية حول القبلات العلنية أو فى فرض الرقابة عليها فى الاعلانات الدعائية ، أو عدها فى الافلام حرصا على الرواج ، أو المبالغة فى التعفف والتأنف والاشمئزاز ، والتشدق بالطهارة والاعلان عن التمسك بالدين ، وفرض الحجاب ، وعدم لمس المحارم حتى لا ينتقض الوضوء ، وعدم مجالستهم حتى لا يحضر الشيطان !

فاذا ما استطاع الانسان بفعل الرفض هذا القضاء على آلهة العصر ، ويا ليته يعيش حتى يقضى على واحد منها فقط ، قام الشعور بالفعل الثانى « الا الله » وأثبت حقيقة ايجابية وهى أنه يوجد الله حق هو الله ، مبدأ عام شامل يتساوى الجميع أمامه ، وبالتالى لا يمكن لاحد أن يفسر الله لحسابه الخاص ، فالمبدأ العام الشامل يعم الافراد جميعا ، ولا يمكن لاحد أن يجعل الله يعمل لحسابه الخاص ، فالمبدأ الشامل لا تحيز فيه ولا موالاة لاحد على حساب آخر . فاذا ما اعتبر

أحد أن الله يعمل لحسابه الخاص فتكبر وسيطر على رقاب الناس فانه يصبح آلها من آلهة العصر وجب القضاء عليه ، وانزاله من على عرشه المزيف ، فكيف يجعل الانسان نفسه الها ؟

فعلى المسلم الذى يقول « لا اله الا الله » بدل المرة عشرات المرات كل يوم أن يرفض ثم يقبل ، يرفض آلهة العصر المزيفة ، وبلغة العصر أن يكون ثائرا رافضا للاوضاع القائمة التى يدعى فيها الافراد الالوهية باستحواذهم على السلطة وتركيزهم الاموال فى أيديهم ، ثم يقبل الانتساب الى مبدأ يتساوى الجميع أمامه أى أن يكون بانيا لمجتمع جديد لا طبقية فيه ولا سيطرة ولا تحكم فيه . فلا يوجد هدم بلا بناء ، ولا يوجد بناء بلا هدم ، ولا يوجد سلب بلا ايجاب ، ولا ايجاب بلا سلب . مهمتنا اذن فى النقد الاجتماعى وبيان عورات العصر ومآسيه ثم اعادة بناء الامة طبقا لمبادىء الحرية والعدل والمساواة .

وهذا هو معنى التوحيد الذى تشير اليه شهادة أن لا اله الا الله . يعنى التوحيد التحرر الوجدانى من كل قيود قاهرة للانسان حتى يصبح الانسان حرا فى قراراته وسلوكه وأفعاله . كما يعنى أيضـا المساواة الاجتماعية ، فالكل بشر متساو أمام مبدأ واحد ، لا فرق بين أبيض وأسود ، حاكم أو محكوم ، كبير أم صغير ، قوى أم ضعيف . ويعنى ثالثا التكافل الاجتماعى اذ لو حدث وظهرت فروق بين الطبقات فان واجب الامة اعادة البناء الاجتماعى من جديد حتى يبقى المجتمع اللاطبقى هو الدليل الوحيد على أن الناس سواسية كأسنان المشط ، والثورة المستمرة على اقامة مجتمع العدل والمساواة .

يلزم فى عصرنا اذن أن نقول « لا » ثم أن نقول « نعم » . نقول « لا » لآلهة العصر فهذا معنى « لا اله » ، ثم نقول « نعم » للمبدأ الواحد الذى يتساوى أمامه الجميع فهذا معنى « الا الله » . ومن ثم تكون روح عصرنا الذى يبارك ويؤيد ، ويقول آمين آمين ، ليس فى الامكان أبدع مما كان ، روحا لا يرضاها الاسلام ، وليس من روح الله . ولكن روح الاسلام والذى تنبع من روح الله هو روح الرفض الممثل فى « لا اله » ، أن يعيش الانسان فى عصره رافضا أى ناقدا ، ناصحا ، جاهرا بالحق ، داحضا للباطل ، والشهيد هو الذى يقول كلمة الحق فى وجه الحاكم الظالم .

ليتنا نوفى « لا اله الا الله » حقها بأن نعطيها مضمونها كلمة كلمة ، وألا يكف المسلم عن أن يقول « لا » ، فما أكثر آلهة العصر ، وقد يموت المسلم ولم يوف بعد « لا » حقها !

ثالثا : ماذا تعنى الشهادة الثانية « وأن محمدا رسول الله » ؟

ويظن الناس خطأ أن محمدا رسول الله تعنى تعظيم الانبياء وعلى رأسهم محمد وتبجيله بشخصه ، والحديث عنه ، وذكر محامده وفضائله . بل انه فى كثير من الاحيان تطغى الشهادة الثانية « وأشهد أن محمدا رسول الله » على الشهادة الاولى « أشهد أن لا اله الا الله » ويكثر الحديث عن حب محمد ، وحب آل البيت ، وشفاعة محمد على نحو لا يرضاه الاسلام ، وبطريقة مستحدثة لم يعرفها الصحابة الاوائل . وفى أحسن الاحوال يوضع « الله » و « محمد » كل منهما فى احدى الشهادتين ، « الله » فى « لا اله الا الله » « ومحمد » فى « محمد رسول الله » والحديث عنهما على مستوى واحد ، كما حدث فى عقائدنا المتأخرة عندما أصبح قطبا التوحيد الله ومحمد أى الالهيات والنبوات ، بل وأضاف المتأخرون ، فى عصور تخلفنا وانهيارنا ، ضمن العقـائد التى يجب على كل مسلم معرفتها أسـماء أولاده ذكورا واناثا وأسماء آبائه وأجداده وأسماء زوجاته . وفى أحسن الاحوال تبقى الشفاعة جزءا من العقائد الاشعرية التى ورثناها ، يبتهل الشيخ ويطلب شفاعة محمد ، ويبتهل المسلمون وراءه ويطلبون أيضا شفاعة الحبيب ، وطلب الشفاعة يأتى من قوم لا يثقون بأعمالهم ، وليس لهم قيمة من ذواتهم ، ويعتمدون على الواسطة فى تسيير أمورهم . وقد قوى الصوفية هذا التيار بتركيزهم أيضا على شخص محمد ، وحديثهم عن الحقيقـة المحمدية ، الخالدة ، الازلية ، الابدية التى منها خلق كل شىء ، الارض والسماء ، والانهـار والبحار ، والنباتات والاشـجار ، والانسـان والحيوان . ونزيد على ذلك الاحتفال بالمولد النبوى ، والتركيز على شخص محمد وننسى قولة أبى بكر « من كان يعبد محمدا فان محمد قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » . هذا بالاضـافة

الى الهبوط الطبيعى فى وعى الناس ، وحرصهم على تشخيص الحقائق وتمثيلها فى الاشخاص ، فالوحى هو الله ، والاسلام هو محمد .

وكل هذا ليس هو المقصود بالشهادة الثانية « أشهد أن محمدا رسول الله » ، فما المقصود اذن ؟ تعنى هذه الشهادة الثانية الاعلان عن نهاية تطور الوحى واكتماله فى الوحى الاسلامى ، وأن الوحى الاسلامى هو آخر مرحلة من مراحل طويلة متتالية ظهر فيها الوحى على فترات طبقا لدرجات الوعى الانسانى وتقدمه ، وطبقا للوضع الاجتماعى لكل جماعة يظهر فيها الوحى ، وطبقا للمرحلة التاريخية والوضع الحضارى الذى يمر به كل مجتمع . فعندما كانت الانسانية فى مهدها كانت فى حاجة الى وحى يلائم طبيعتها وعلى مستواها الفكرى والنفسى ، فجاء الوحى قائما على الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، وكان مقياس التدين ، وبرهان الايمان هو طاعة القانون المطلقة مثل قوانين الطعام لتربية الانسان على السيطرة على نفسه عن طريق السيطرة على البدن ومحاولة الانسان الاستقلال عن الطبيعة ، وتجاوز غرائزه الاولى ودوافعه واحتياجاته ، وقوانين السبت التى يراعى فيها الانسان التشبه بالله وتخصيص جزء من حياته له ، والكف عن العمل والبيع والشراء واشعال النار وتحريك الاشياء اعلانا بأن الانسان له صلة بالله يوما فى الاسبوع وان كان فى الايام الستة الاخرى منغمسا فى العالم ، وقانون الطهارة اعلانا حسيا على أن الانسان قد عقد مع الله عهدا وميثاقا مكتوبا بالدم على أن يكون مطيعا له خاضعا لقوانينه ومؤمنا به ولو أن البعض حاول تفسير الميثاق على أنه اختيار لشعب معين ووعد له بالارض والغنم والنصر الى أبد الآبدين . كانت مهمة الوحى فى هذه المرحلة شد انتباه الانسان الى وجود الله وقدرته المطلقة

المسيطرة على قوانين الطبيعة وعلى مسار التاريخ حتى يتحرر الانسان من سيطرة قوى الطبيعة عليه ومن سيطرة القــوى السياسية على مقدراته وأن يكون الانسان هو المسيطر على الطبيعة وهو الاساس فى كيان الدولة • لذلك أجرى الله المعجزات ، وتدخل فى سير قوانين الطبيعة حتى يثبت بالدليل الحسى المباشر وجوده وقدرته • وهذه هى مرحلة الوحى اليهودى •

وقد نجحت التجربة مع البعض « واذ قال رجل من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم •• » ، ولكنها لم تنجح عند الاغلبية • فقد غضب موسى على بنى اسرائيل ودعا عليهم بالتيه ، وظلوا فى عبادة العجل ، والجرى وراء الذهب والمال والحظ ، وظل الشعور الانسانى على مستوى الطبيعة المادية ، خاضعا لها دون أن يتحرر منها ويتجاوزها •

فاذا ما شبت الانسانية عن الطوق ، وكبر الطفل ، ووصل الى مرحلة المراهقة المتأخرة ، يقل الجانب الحسى ويزداد الجانب العاطفى ، ويصبح الانسان حالما ، آملا ناسجا من خياله عالما أفضل ، ويصبح قادرا على ادراك الامور بحدسه ، واحساسه بها بوجدانه ، فيأتى الوحى مرة ثانية كى يرتقى بالانسان لا عن طريق الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد وفرض القــوانين ، بل عن طريق الحب والتراحم والعطف والتقوى والطاعة والتواضع والاحسان ، يكون الانسان فى هذه الفترة حالما ناظرا الى عالم آخر ليس هو هذا العالم ، وملكوت هو ملكوت السماوات ليس هو هذا الملكوت الذى نعيش فيه • ملكوت الارض ، عالم يختلط فيه الخيال بالتمنى ، والحلم بالواقع ، وما هو كائن بما ينبغى أن يكون • ويكون التدين أساسا ليس عملا من أعمال الجوارح

بل عمل من أعمال القلب ، ويغلب العفو على العقاب ، والعطاء على الاخذ ، والروح على الجسد ، والداخل على الخارج ، والسلام على الحرب •

وقد نجحت التجربة عند البعض « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » • ولكنها ظلت محدودة لم تؤد الا الى ايمان الابطال والقديسين والشهداء كرد فعل على مجتمع لا يؤمن الا بالقوة والبطش والسيطرة • بالاضافة الى أن خلاص الفرد لابد وأن يؤدى الى خلاص الجماعة والى تأسيس الدولة وهو ما لم يتم بعد ، فقد كان يكفى اكتشاف ملكوت السماوات وكما قال السيد المسيح « مملكتى ليست فى هذا العالم » •

فلما شبت الانسانية وبلغت مرحلة النضج والرجولة جاءت المرحلة الثالثة من مراحل الوحى الكبرى ، والمرحلة الاخيرة تجمع بين القانون والحب ، والعفو والعقاب « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » • ويجمع بين الحس والوجدان فى العقل ، ولا يتطرف فى جانب على حساب جانب آخر لان « خير الامور الوسط » ، يجمع بين التجربتين معا ، ملكوت الارض وملكوت السماء ، فالانسان موجود بين هذين العالمين •

تعنى « أشهد أن محمدا رسول الله » اذن أن الاسلام هو آخر مرحلة من مراحل تطور الوحى وأن ذلك يعنى بالتحديد الحقيقتين الآتيتين :

١ — أن الانسان ليس فى حاجة الى وحى جديد فقد اكتمل عقله ، وأصبح قادرا على الادراك والتمييز ، فالعقل قادر على أن يصل الى كل ما أعطاه الوحى من حقائق ، وهو قادر على فهمها وتفسيرها وتطبيقها والاستفادة منها فى الحياة العملية • وان أية محاولة الآن لجعل العقل قاصرا عن الادراك ، وادعاء الالهام والمدد من السماء أو العين الباطنة التى تدرك الحقائق الربانية مباشرة لهو ادعاء باطل يهدف الى فرض الوصايا على عقول الناس ، استغلالا لها ، وتوجيها اياه الى ما تريده قوى التسلط والطغيان • ومن ثم فلا مجال للخرافة أو السحر أو الكهانة أو العرافة أو الفأل ، فكل ذلك مضاد لعمل العقل وتدبيره واستدلاله وبرهانه • ولا مجال للجهل وللامية فذلك أيضا نفى للعقل وهدم له ، ولا مجال أيضا للظن أو التقليد أو التشكك والحيرة والتذبذب بين الامور ، فالعقل قادر على الوصول الى اليقين والى حسم الامور ، وباستطاعته الابداع والخلق واكتشاف الجديد •

انه ليكفى الانسان أن يتبع فطرته الصادقة ، فالاسلام دين الفطرة ، وكل شىء زائد عليها ليس منها ، وكل شىء أقل منها يكون ناقصا والفطرة أكمل منها ، وان أى محاولة لجعل فطرة الانسان ناقصة ، دنيئة ، خسيسة ، مخطئة ، تهدف فى الحقيقة الى فرض الوصايا على الانسان من حاكم يأخذ برقاب الناس حتى يمنع شرورهم ويوجههم الى الخير أو من مخلص للناس من خطاياهم مادامت الخطايا فى لحمهم ودمائهم • ومن ثم يفقد الانسان استقلاله العقلى، ويتبع السلطة الدينية أو السياسية ، وهذا ما لا يرضاه الاسلام •

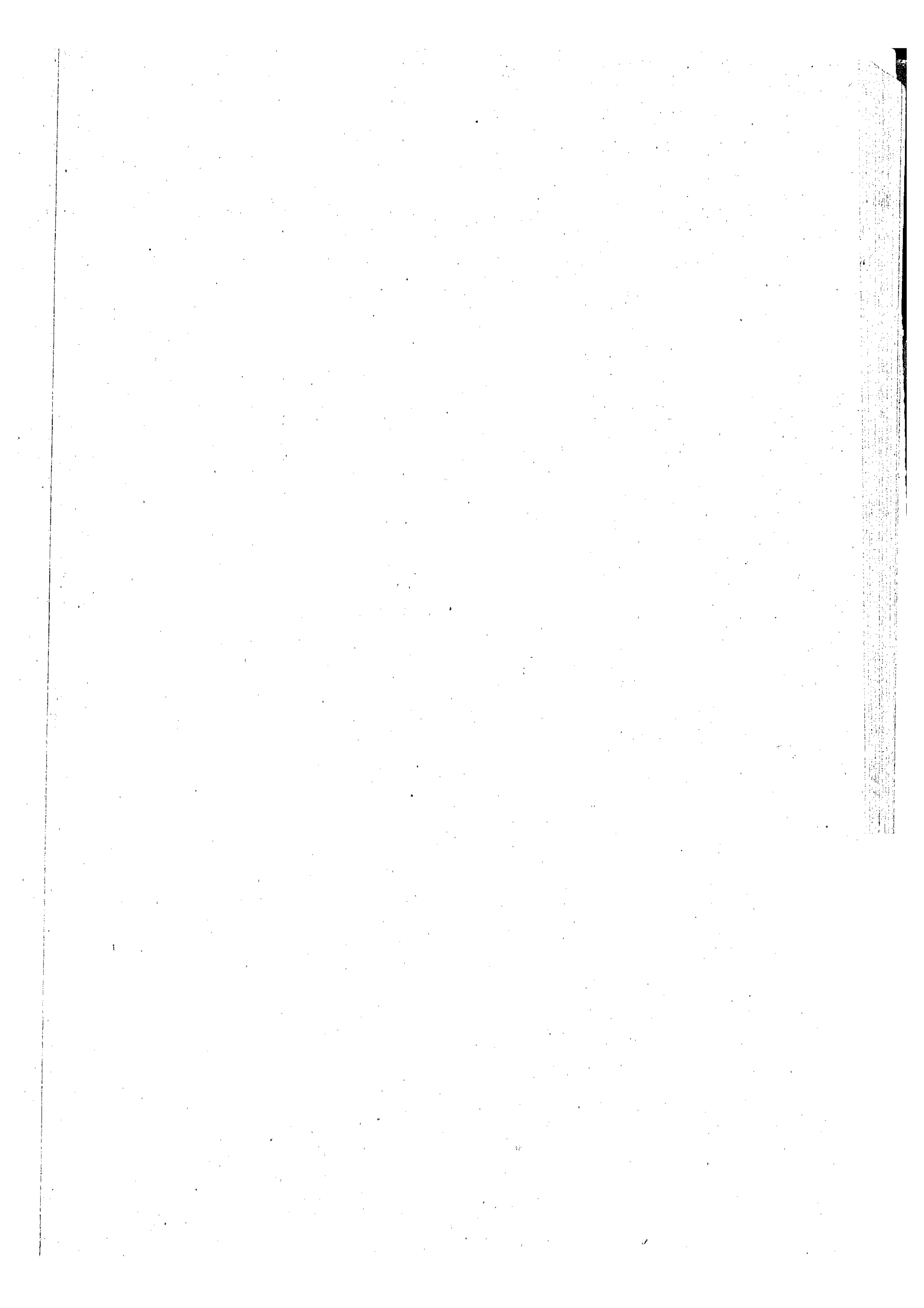
٢ — ان الانسان قادر بارادته على تحقيق كلمة الله على الارض ، وعلى حمل الامانة التى رضى الانسان بارادته الحرة أن يحملها « انا

عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ••• » • وليس فى حاجة الى معونة خارجية فى صورة معجزة أو غيرها ، فالله لم يعد يتدخل فى سير قوانين الطبيعة كما كان الحال فى مراحل الوحى السابقة « وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون » • وان أية محاولة لفرض الوصايا على أفعال الانسان من حيث التوجيه والامر له هى فى حقيقة الامر محاولة للقهر وللتسلط • فافتراض عجز الانسان وعدم قدرته يعطى الحاكم الحق فى فرض الرقابة عليه ، كما أنها حجة الاستعمار القديم فى فرض حمايته على الشعوب لانها غير قادرة على حكم نفسها بنفسها • ان الايحاء للانسان بأنه عاجز يجعله يلجأ الى وسائل السحر والكهانة ، والحجاب والاتصال بالاولياء كى يحيل ضعفه قوة ، كما أن الايحاء للشعب بأنه غير قادر على أخذ مصيره بيده يفرض عليه الوصايا الى الابد من الاستعمار الخارجى أو من نظم القهر والسيطرة الداخلية •

ان الانسان قادر على تحقيق كلمة الله على الارض ، وهو مسؤول عن ذلك ، وقد عهدت اليه الامانة ، وتقبلها هو بمحض اختياره ، فهى مسؤوليته وحده • ولذلك تنجح تجربة الوحى هذه المرة فى تحقيق استقلال الانسان عقلا وارادة ، وفى اقامة دولة أى نظـام اجتماعى يعيش فيه الناس • وقد نجح محمد رسول الله فى ذلك ولم يكتف بأن يكون شهيد الحق كغيره من الانبياء والرسل السابقين • فنفس المهمة التى حاولها الانبياء السابقون ونجحوا فيها لدى أفراد قلائل دون غالبية الناس ، حاولها محمد رسول الله ونجح فيها لدى الاغلبية ، مما يدل

على أن الوحى فى آخر مرحلة له قد حقق بغيته الا وهى اعلان استقلال الانسان ، يصبح خليفة الله على الارض ، أمينا على الرسالة ، ومحققا للدعوة بعد أن تحرر وجدانه من كل مظاهر القهر من قوى الطبيعة أو النظم الاجتماعية المسيطرة •

تعنى اذن « أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » أشهد أن الانسان حر مستقل ، له عقل وارادة ، واننى هو ذلك الانسان !



مقالات فى اليسار الدينى

(أ) محمد ، الشخص أم المبدأ ؟

فى هذه المناسبة الكريمة ، المولد النبوى الشريف ، يحق لنا أن نقول كلمة الحق اذ « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال » . وكلمة الحق فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر الذى يعيش فيه جيلنا هو أننا نعيش فى شعورنا محمدا بن عبد الله ، رسول الله وخاتم النبيين بطريقة مخالفة الشرع نبه عليها محمد بن عبد الوهاب وحذر منها . وقد ترسبت هذه الطريقة من تراكمات تاريخية طويلة من العلوم الاسلامية القديمة التى عظمت محمد كشخص وتناسته كمبدأ ، وكرمته كرسول على حساب الرسالة . والدليل على ذلك :

١ — أصبح محمد فى علم أصول الدين الذى صاغت الاشاعرة عقائده محور العقيدة مع الله . فعقائدنا خمسون ، اثنان وأربعون فى الله ، وثمانية فى الرسول . كلها فى صفاته : الامانة ، والفطنة ، والتبليغ ، والصدق ، ومنع اضدادها مثل الخيانة والتهور والكتمان والكذب ، وتركنا العقائد كمبادىء وأصول عامة مثل التوحيد ، والعدل ، والحسن والقبح العقليين ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما أصل المعتزلة . أخذنا الشخص وتركنا المبدأ .

كتب هذا المقال لجريدة « الاهالى » عام ١٩٧٨ .

٢ ــ وفى التصوف أصبح محمد عقيدة مشخصة كذلك « الحقيقة المحمدية » التى تجعل محمدا قديما ، كائنا قبل الخلق ، مشاركا لله فى الصفات ، منه خرج الكون ، وصدرت أشعة الشمس ، وسطع نور القمر • ومنه نزل المطر ، وسار السحاب ، وهبت الرياح • وأصبحنا نقول فى محمد ما يقوله النصارى فى المسيح • وبالرغم من رفض فقهائنا القدماء هذه العقيدة الا أنها ظلت مسيطرة حتى الآن على عقائد الصوفية المعاصرين •

٣ ــ وقد تنسب الشريعة الاسلامية أحيانا خطأ الى محمد فيقال الشريعة « المحمدية » وهى الشريعة الاسلامية التى بلغ بها الرسول « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته » ، وانتهزها المستشرقون فرصة فسموا الاسلام كله المحمدية والمسلمين المحمديين أسوة بالمسيح والمسيحية والمسيحيين •

٤ ــ وضعنا اسم محمد على حوائط المساجد مع الله ، وأحيانا مع أسماء الخلفاء الراشدين مع أنه لا يجوز وضع أية لوحات على حوائط المساجد حتى ولو كانت أسماء الانبياء والخلفاء • بل وكتبناها على عربات اليد لدى الباعة المتجولين وعلى المركبات العامة وفى المطاعم الشعبية ، وكتبناه على قطع بلاستيك نعلقها فى العربات • واذا كنا أغنياء كتبناها مع « ما شاء الله » ، والمصحف ، والقرآن على رقائق من ذهب نحلى بها الاعناق والصدور •

٥ ــ كما أننا قد حولنا زيارتنا لمكة وهى المقصد الاساسى للحج ، كعبة ابراهيم ، أبى الانبياء ، والمسلم الحنيفى الاول ، وجعلناها زيارة الى قبر الرسول ، وهو غير المقصود من الحج • فالاسلام قد حرم بناء

المساجد على قبور الانبياء والاولياء « الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » ، وهو ما نبهت عليه الحركة الوهابية أيضا والتى نشأت فى الحجاز لهذا السبب ، بما فى ذلك قبر الرسول •

٦ — ان المدائح النبوية التى تكثر فى أجهزة الاعلام : أغثنا يا رسول الله ، أغثنا يا رسول الله ، يا حبيبى يا رسول الله ، يا شفيعى يا رسول الله ، سيدى يا رسول الله •• الخ تجعلنا نقف على أبواب الوساطة والشفاعة التى حرمها الفقهاء ومنعها المعتزلة من قبل والتى قاومتها معظم الاتجاهات الاصلاحية الحديثة •

٧ — ان احتفالاتنا بالمولد الشريف على طريقة الطرق الصوفية : السير فى المواكب ، رفع البيارق ، اطلاق البخور ، الضرب بالدفوف ، التمايل بالاجسام ، الاناشيد والسماع ، اقامة السرادقات ، مد الموائد ••• الخ قد ورثناها من عصور التخلف • فقد كانت الاحتفالات والمواكب وسيلة الحكام لاضفاء الهيبة على نفوسهم وهم يتصدرونها ، رغبة منهم فى السيطرة والتحكم فى رقاب العباد • بل قد تبدأ الاحتفالات بالنصر قبل معارك النصر ، والاحتفالات بالجلاء قبل اتمام الجلاء •

٨ — ان ما يحدث فى الموالد من ظواهر مصاحبة ، مظاهر البغى والفسوق ، ونقل الامراض ، وتكلفة الدولة ما لا طائل لها به من حيث توفير المواد الغذائية مثل السكر بالعملة الصعبة ، والاتجار بالحلوى من أصحاب رؤوس الاموال بهدف الربح والاستغلال ووقوف الشحاذين على أبواب المساجد وطرقهم أبواب المنازل تجعل الدين الشعبى قد طغى على الدين الشرعى •

كل ذلك يرجعنا الى القرآن الكريم لنعرف ما هى الصورة الشرعية

لمحمد فيه وهل يسمح القرآن بكل هذه المظاهر للتشخيص ، تشخيص الرسالة فى الرسول ، وترك الرسالة كمبدأ ؟

والحقيقة أن القرآن أشار الى الرسول على أربعة أنحاء :

١ — آيات بها مخاطبة مباشرة بكاف المخاطب أو ضمير المخاطب مثل « وانك لعلى خلق عظيم » أو « ونرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » ... الخ . وهى لا تشير الى محمد الشخص بل الى المخاطب العام أى الى نموذج الوعى الانسانى الذى يدخل الوعى الشامل فى حوار معه . الوعى الانسانى يسأل والوعى الشامل يجيب . وقد يكون السؤال باللفظ أو بالحركة فكلاهما دلالة .

٢ — آيات بها ذكر للرسول مثل « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك ... » ، « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر .. » وهى كلها تعنى الرسول كحامل للرسالة وليس الرسول بشخصه .

٣ — آيات يذكر فيها النبى مثل « يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » ، « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال .. » ، « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم .. » وهى نداءات كلها توجهات عملية الغرض منها توجيه الامة وليس تكريم الرسول بشخصه .

٤ — آيات يذكر فيها محمد وهى لا تتجاوز أربعة آيات من بين آلاف الآيات التى تكون مجموع القرآن الكريم وهى :

(أ) « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » (٣ : ١٤٤) ، وتدل الآية على أن الشخص فان ، والرسالة باقية ، وأن محمدا ميت ، والاسلام قائم ،

وبالتالى لا يمكن التضحية بالمبادىء من أجل الاشخاص • فالقرآن يهاجم عبادة الاشخاص ، هذا الداء الذى ينتشر فى معظم الثورات خاصة فى البلدان النامية والذى يهدد معظم الايديولوجيات عندما يضحى معتنقوها بالمبادىء من أجل الاشخاص •

(ب) « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما » (٣٣ : ٤٠) • وتعنى الآية أن الشخص لا يورث ، ولا يمكن لاحد أن يدعى انتسابه اليه بخلافة أو وصية • محمد رسول الله ، بلغ الرسالة وعلى الاجيال حملها ونشرها وتحقيقها على حد سواء • رسالته نهاية تطور الوحى واكتماله فى الرسالة العامة •

(ج) « والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وآمنوا بما نزل على محمد ، وهو الحق من ربهم ، كفر عنهم سيئاتهم ، وأصلح أعمالهم » (٤٧ : ٢) • وتشير الآية الى أن محمدا ليس هو الشخص بل المبدأ ، هو الرسالة المنزلة وليس الرسول المنزل اليه ، هو الحق المتبع وليس الحقيقة المحمدية •

(د) « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » (٤٨ : ٢٩) • وتعطى الآية درسا فى الوحدة الوطنية فى الداخل فى مواجهة الخارج • فهناك طريقان : الاول محمد والذين معه أى المؤمنون ، أهل الوطن الواحد الذين يتراحمون فيما بينهم ، لا يطغى فريق على فريق ، ولا يدعى أحد الايمان والوطنية ويكفر الباقى ويخونه • والثانى جبهة وطنية واحدة فى مواجهة الاعداء ، أشداء على الكفار دون التقرب اليهم ، والسعى لهم ، والجرى وراءهم وأخذهم أولياء من دون الله ، يبتغون لديهم نصراً •

السؤال اذن : أيهما أحق أن يتبع : محمد الشخص أم المبدأ ؟

(ب) مصر بين الامان والطغيان :

ان حب مصر ليس وليد الظروف ، وليس نابعـا من شمسها الدافئة ، وسمائها الزرقاء ، وأرضها الخضراء ، كما تعلمنا فى المدارس . بل هو حب نابع من ايماننا بالله ومن قراءتنا لكتابه . فمصر مذكورة فى القرآن الذى نتلوه آناء الليل وأطراف النهار . فلا ايمان الا بمصر ، وكل مهاجر من أرض مصر فانه يترك ايمانه وراءه . فكيف ننزع القلب والاحشاء ؟ فما هى صورة مصر فى القرآن ؟

ذكرت مصر خمس مرات فى القرآن الكريم بصرف النظر عن معنى « مصر » هل هى مصر الدولة التى نعيش فيها أم مصر القطر والمكان المنخفض . وقد يكون هذا التداخل بين الخاص والعام هو احـدى صفات مصر .

١ ـ مصر بلد الاستقرار والسكن ، ومكان للعيش والحيـاة ، يأتيها الناس ، ويتخذونها قبلة ومقرا . « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة » (١٠ : ٨٧) . يسكنها الانبياء وذووهم ، وتعيش فيها القبائل ، وتعمرها الشعوب . صحراء تحتاج الى تعمير ، وأرض تستدعى البناء عليها من أهلها . ان تركناها بلا تعمير استعمرها غيرنا ، واستوطن فيها ، وبنى فيها البيوت ، وأقام المستوطنات ، وأنشأ فيها المزارع ، وشيد فيها المعسكرات لان أهلها لم يستقروا فيها ، ولم يبنوها ، ولم يحولوها الى كتل بشرية تحمى حدودها ، وتمنع غزوها ، وتصد العدوان عليها .

كتب هذا المقال أيضا لجريدة « الاهالى » عام ١٩٧٨ .

٢ ــ مصر بلد الامان ، فلا حياة دون أمان ، ولا استقرار دون أمن . « فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه ، وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » (١٢ : ٩٩) . كان يوسف فى مصر آمنا ، ودخل أبواه مصر آمنين . ولا يعنى الامن فى مصر انشاء أجهزة للامن تقضى على أمن المواطنين بل أن يشعر الانسان أنه يعيش فى بلد آمن ، آمن على نفسه ، آمن على أهله ، آمن على عمله ومستقبله ، آمن على قوله وفعله ، آمن على فكره ورأيه . والامن ليس فقط هو الامن الغذائى بل الامن الفكرى والامن السياسى .

٣ ــ مصر بلد الكرم والسخاء ، يجد فيها الغريب موطنا لــه ومستقرا ، مواطنا لشعبها ، ، ابنا لاسرها . « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » (١٢ : ٢١) . ليست مصر اذن بلد الدخلاء عليها الذين يأتون لسلب ثرواتها ، ونهب أرضها ، والاستيلاء على خيراتها ، وتهريب أموالها ، واستهلاك دخلها ، والاستحواذ على مدخراتها . لا يعنى الكرم بيع ماء النيل ، ورهن قناة السويس ، واهداء قطعة من الساحل الشمالى ، فالعطية من نتاج مصر وعرق مصر وليس من أرض مصر أو ثروات مصر .

٤ ــ مصر بلد الزراع والنماء ، ومصدر الخير والرخاء . لما ضاق بنو اسرائيل بشظف العيش ، وملوا الطعام الواحد سألوا موسى البقول والقثاء والفول والعدس والبصل . فقال موسى « أهبطوا مصر فان لكم ما سألتم » (٢ : ٦١) . فمازالت مصر بوفرتها ومحصولها مطمع من تضيق بهم الارض ، ومن تعز لديهم مصادر المياه . فمصر هى ريفها وقراها ، وشعبها هو فلاحوها ومزارعوها .

٥ — وأخيرا ، مصر بلد الطغيان يتحكم فيها فرعون • يمتلك كل شيء فيها ، أرضها وأنهارها ، نيلها وشعبها ، ويحتقر مواطنوها « ونادى فرعون فى قومه ، قال يا قوم أليس لى ملك مصر ، وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » (٤٣ : ٥١) • وكأن مأساة مصر ليست فى مستقرها وأمنها وكرمها وخيرها بل فى نظامها السياسى الذى يقوم على حكم الفرد واذلال الشعب ، واحتقار المواطنين •

(جـ) الشورى فى الاسلام :

لقد كثر الحديث من قبل عن الشورى فى الاسلام كلما أراد المسلمون الفخر بتراثهم المجيد وبالدين الحنيف وبالشريعة الغراء ، أو كلما ضاق بهم العصر ذرعا ووجدوا فى الشورى متنفسا لمآسيهم وضيقهم . ولقد ذكر القرآن لفظ « شور » ثلاث مرات . الاولى ليجعل التشاور أساس الحياة العائلية « فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » (٢ : ٢٣٣) أى أساس الجماعة الصغيرة . وفى المرتين الثانية والثالثة يذكر اللفظ مشيرا الى الحياة الاجتماعية الكبيرة أى فى الحياة السياسية فى « وأمرهم شورى بينهم » (٤٢ : ٣٨) كتقرير واقع فعلى للمسلمين . فالشورى من طبائع الامور ، وفى « شاورهم فى الامر » وهو أمر الهى اذا ما سارت الامور ضد الطبيعة .

وقد بين الحديث النبوى فضائل الشورى . فقال عليه الصلاة

وقد بين الحديث النبوى فضائل الشورى . فقال عليه الصلاة
والسلام « اذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه » . فالشورى واجبة عند السؤال ، والتخلى عنها أو الصمت والكتمان لا يجوز كالشهادة سواء بسواء ، وقال عليه الصلاة والسلام « المستشار مؤتمن ان شاء أشار ، وان شاء لم يشر » . فالشورى أمانة فى عنق المستشار ، عليه

كتب هذا المقال لجريدة « الاهالى » عام ١٩٧٨ . وقد أقمته على الحجج النقلية دون العقلية أو الاجتماعية وكأنى فقيه قديم . وكان ابرز هذه النصوص والشواهد ذاتها جزءا من النضال ضد التسلط والطغيان . وقد اتبعت أيضا المدرسة السلفية هذه الطريقة ، توجيه النص نحو الواقع مباشرة قديما عند أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم وحديثا عند محمد بن عبد الوهاب ورشيد رضا .

أن يشير ان عرف وألا يشير ان لم يعرف • كما قال عليه الصلاة والسلام « المستشار مؤتمن • فاذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسه » • فالشورى ليست للآخر دون الذات ، وليست للغير دون الفرد بل هى أولا تطبيق على النفس قبل الآخرين • وقال أيضا « ما تشاور قوم قط بينهم الا هداهم الله لافضل ما يحضرهم » ، وفى لفظ « الا عزم الله لهم بالرشد أو الذى ينفع » • فالشورى تحضر ما هو أفضل عند الناس ، وما هو أعقل وأنفع لهم لان الشورى أخذ لاعتبار المجموع ، وضمان لعدم سيادة الهوى والانفعال أو تغلب المصلحة الشخصية • ولذلك قال الرسول « ان أمتى لن تجتمع على ضلالة ، فاذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الاعظم » • فالاختلاف فى الرأى طبيعى ، واختلاف الائمة رحمة بينهم ، واجتماع الاغلبية على رأى يجعله أقرب الى الصواب • والرأى الصحيح هو الذى يجمع عليه أبو بكر وعمر لقول الرسول « لو انكما تتفقان على أمر واحد ما عصيكما فى مشورة أبدا » • فالجمع بين مثالية أبى بكر وواقعية عمر هو الرأى الصائب الذى لا يضحى بالواقع من أجل المثال أو بالمثال من أجل الواقع •

ولم يكن الرسول مسيطرا ولا جبارا وكما وصفه القرآن « لست عليهم بمسيطر » (٨٨ : ٢٢) ، « وما أنت عليهم بجبار » (٥٠ : ٤٥) • كان الرسول بشير على الناس حتى لقد قال عنه أبو هريرة « ما رأيت أحد أكثر مشورة من رسول الله » • لقد شاور الرسول أصحابه فى الحرب وفى السلم ، فى أمور الدنيا والمعاش • راجعه أصحابه ، وتقبل رأيهم فيما لم يأته فيه وحى • فالحرب خدعة ، والناس أعلم بشؤون دنياهم • ولما سأل على الرسول : ماذا نفعل بعدك ان وقع لنا أمر فقال :

« أجمعوا العابدين من أتى واجعلوه بينكم شورى ، ولا تقضوا برأى واحد » •

وتبعه الخلفاء الراشدون فى سنته ، ولم يحيدوا عنها • قال عمر : « الرأى الفرد كالخيط السحيل ، والرأيان كالخيطين المبرمين ، والثلاثة الآراء لا تكاد تنقطع » ، فمعارضة الرأى بالرأى فضل ، وتعارض الآراء أفضل • وقال عمر أيضا : « الرجال ثلاثة : رجل ذو عقل ورأى فهو يعمل عليه ، ورجل اذا أحزنه أمر أتى ذا رأى فاستشاره ، ورجل حائر بائر لا يأتى رشدا ، ولا يطيع مرشدا » • العقل يجمع عليه الناس ، فان غاب الرأى وجبت المشورة • أما سيادة الهوى وغياب الشورى فتخبط وضياع • وقال أيضا : « صاحب الحاجة أبله لا يرشد الى الصواب فلقنوا أخاكم وسددوا صاحبكم » ، وذلك لان صاحب الحاجة يريد الحصول عليها ، ويكون مأخوذا بها مما يدفعه الى عدم تقدير الامور • ومن ثم وجبت الشورى والنصح • وقال عمر : « من دعا الى امارة نفسه أو غيره من غير مشورة من المسلمين فلا يحل لكم أن لا تفعلوه » • وقال أيضا « لا خلافة الا عن مشورة » • وقال على : « الاستشارة عين الهداية • وقد خاطر من استغنى برأيه » • والمشورة لابد أن تكون عند من هو أهل لها كما قال طلحة « لا تشاور بخيلا فى صلة ، ولا جبانا فى حرب ، ولا شابا فى جارية » • فالمشورة لابد أن تكون عند من تجرد عن المصلحة والهوى • فلا يستشار حاكم فى حكم ، أو تاجر فى سلعة • وقيل أيضا « لا تشر على مستبد ولا على وغد ولا على لجوح ولا على معجب ولا على متلون » • فالمستبد يشير بالاستبداد ، والوغد يشير بالرذيلة ، واللجوح يشير بما يسعى جاهدا اليه ، والمعجب يشير بما يزهو به ، والمتلون يشير حسب الحاجة والظرف • وقد قيل

أيضا « خف الله فى موافقة المستشير فالتماس موافقته لؤم ، وسوء الاستماع منه خيانة » . فاعطاء المشورة لابد أن يكون بناء على خوف من الله والا كانت موافقة المستشير لؤم وخيانة . وقال أبو الحسن البصرى « اعلم أن من الحزم لكل ذى لب أن لا يبرم أمرا ، ولا يمضى عزما الا بمشورة ذى الرأى الناصح ، ومطالعة ذى العقل الراجح » . وقال عمر بن عبد العزيز « ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأى ، ولا يقصد معهما حزم » . وقال لقمان الحكيم لابنه : « شاور من جرب الامور فانه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وأنت تأخذه مجانا » .

والمشورة لا تعنى طلب الرخص والسلطات الاستثنائية فقد قيل « من طلب الرخص من الاخوان عند المشورة ، ومن الاطباء عند المرض ، ومن الفقهاء عند الشبه فقد خدع نفسه » . المشورة تكون من أجل العزائم وليس من أجل الرخص ، ولتحقيق المبدأ العام وليس للاستثناء أو العزل . هذا فى حالة المشورة الفردية كما هو الحال فى سؤال المفتى من أجل الاجتهاد فى الاحكام . أما المشورة الجماعية التى تتعلق بالصالح العام شانها تتطلب أمورا ثلاثة : الاول أنه لا يجوز الفصل برأى شخصى فيما يتعلق بالصالح العام . فمصلحة الجمهور تحتاج الى رأى الجمهور . والثانى أنه لا يجوز التعدى على حقوق الآخرين ، فمصلحة الاخر مقدمة على مصلحة الفرد . والثالث أنها مسؤولية عامة كالولاية العامة وليست مجرد اجتهاد شخصى بناء على رأى أو هوى ، هى جزء من المؤسسات العامة فى الدولة .

وعند أبى الاعلى المودودى تتطلب آيات الشورى فى القرآن الكريم عند تطبيقها فى الولاية العامة عدة أمور :

١ — الحرية الكاملة فى التعبير عن الرأى ، وأن يتوجه المستشارون الى ولى الامر اذا ما بدر منه خطأ أو تقصير • فان رأوا الخطأ لا يصلح ويستقيم عزلوا قادتهم وأولى أمرهم واستبدلوا غيرهم لان تصريف أمور الناس مع سد أفواههم وتكبيلهم وتركهم دون علم بها انما هو كفر صريح • وقد فصل الفقهاء قديما وظيفة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بداية بالنصيحة حتى العزل ثم الخروج •

٢ — مسؤولية تصريف أمور المجتمع على كاهل من يتم اختياره برضا الناس لا ذلك الناتج عن الارهاب والتخويف أو المشترى بالطمع والحرص أو المتحقق بالتزوير والخداع والدجل • فالامامة كما يقول الفقهاء عقد وبيعة واختيار • ولا تجوز الامامة بالشوكة أى بالاستيلاء على السلطة بالقوة حتى ولو استتب الامن •

٣ — اختيار من يصلحون على ثقة الشعب للتشاور مع القائد ، ويخرج عن هؤلاء من يفوزون بتمثيل الشعب عن طريق الضغط والاكراه والنفوذ وشراء الثقة والاصوات بالمال والرشاوى أو بالتزوير والخديعة والمكر والتحايل •

٤ — أن يشيروا بما يمليه عليهم علمهم وايمانهم وضميرهم ، وأن ينالوا حرية الرأى كاملة تامة والا فسوف يشيرون بما يخالف ضميرهم وايمانهم وعلمهم خوفا أو طمعا أو تحيزا أو مراعاة لمصلحة جماعة ما فيصبح الامر خيانة وعذرا وتبريرا لسلطة الحكام وقراراتهم •

٥ — التسليم بما يجمع عليه أهل الشورى أو غالبيتهم • اما أن يستمع ولى الامر الى آراء جميع أهل الشورى ثم يختار ما يراه هو

نفسه بحرية تامة فان الشورى فى هذه الحـــالة تفقد معناها وقيمتها • الشورى اذن ملزمة للحاكم والا كانت مجرد زخرفا من القول •

والخلافة فى الاسلام ليست بملك ولا سلطة وانما هى رعاية عامة للامة لاقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعيف فى الداخل ، وصيانة الاسلام ودفع المعتدى من الخارج • وهى لا تنعقد الا بارادة الامة ، والسلطان الذى يؤتاه صاحب الخلافة هو من الامة لا سلطان له عليها الا منها • ولما سأل عمر : أملك أنا أم خليفة ؟ قال له سلمان : ان أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة • وقال له آخر : الخليفة لا يأخذ الا حقا ولا يضعه الا فى حق • والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا •

والخليفة لا يتولى الا بمشورة المسلمين • وفى هذا خطاب أبى بكر المشهور « انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقوموني • أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، وان عصيت فلا طاعة لى عليكم » • وقال عمر « انى لم أزعجكم الا أن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم فانى واحد كأحدكم ، وأنتم اليــوم تقرون بالحق • خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا الذى هواى » •

والرقابة على الخليفة واجب على المسلمين ، وتذكيره بالشرع وتقويمه بعد النصيحة واجب على العلماء • وفى ذلك يقول أبو بكر « اذا رأيتمونى استقمت فاتبعونى ، وان رأيتمونى زغت فقومونى » •

وكذلك قال عمر « من رأى فى اعوجاجا فليقومه » • فقال له أحد « لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » • فقال « الحمد لله الذى جعل فى هذه الامة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » • ولقد تعرض عثمان لاشد أنواع النقد وأقذعها ولم يحاول أن يسكت أحدا بقوته وسطوته ونفوذه بل كان يرد دائما على ما يوجه اليه من اعتراضات على مسمع من الناس ومرأى • كذلك قابل على تجريحات الخوارج له فى عهده بصدر رحب • وحدث أن قبض على منهم فأحضروه اليه وكانوا يكيلون له السباب علنا حتى أقسم أحدهم أمام الناس لاقتلن عليا • ومع ذلك أطلق سراحهم وقال لرجاله ان يردوا عليهم بما شاءوا من القول لكنه لم يتخذ ضدهم اجراء عمليا لانه المعارضة بالقول واللسان ليست جرما يستحق أن يقبض عليهم به •

لم يكن التاريخ اذن فى مراحله الاولى الا تحققا للمبادىء العامة للشورى • فالمثال ليس خارج التاريخ بل واقع فيه • وفرق بين هذه الشورى القديمة وبين مجلس الشورى حديثا • اختلفت المسميات وان اتفقت الاسماء !

---

(١) اعتمدنا فى ذلك على دراسة لابى الاعلى المودودى اظنها « الشورى فى الاسلام » ووجدت فى المسودتان الاولى الاشارة الى صفحات ٣٥ — ٣٦ ، ص ٩٣ — ٩٤ ، ص ٢١٨ — ٢١٩ •

(د) الجهـــاد

تحليل لفظى من القرآن

ورد لفظ الجهاد فى القرآن حوالى أربعين مرة ، بمشتقاته وصيغه المختلفـة : « جاهد ، جاهداك ، جـاهدوا ، تجاهدون ، يجـاهد ، يجـاهدوا ، يجاهدون ، جـاهد ، جاهدهم ، جـاهدوا ، جهـد ، جهدهم ، جهـادا ، جهادة ، مجـاهدون ، مجاهدين » • وتدور كل هذه الصور حول معنى واحد هو بذل الوسع والمجهود وتحمل المشقة فى ذلك ، فالجهد مشقة ، والجهد طاقة ، الجهد وسع الطاقة ، والجهد بلوغ غاية •

وتحليل لفظ « الجهاد » فى القرآن يبين انا المعانى الآتية :

١ — الجهاد فعل أوحد :

الجهاد فعل أوحد لايمكن مقارنته بأى فعل آخر يساويه حتى ولو كان فعلا شرعيا ، فالجهاد أول الافعال الشرعية وجامعها كلها • ومهما قيل فى أفعال التكليف من حلال وحرام وواجب ومندوب ومكروه فان الجهاد أم هذه الافعال أى هو الواجب وجوبا محضا ، ان لم يكن هو

كتب هذا المقال عام ١٩٦٧ عندما اتى لى مندوب « منبر الاسلام » طالبا مساهماتى الفكرية وعارضا مبلغا من المال يعادل فى المقال الواحد مرتبى ثلاث مرات . ولما كتبت له مقالاتى الثلاث الاولى وعاد يرتعش كتبت له هذا المقال الرابع والاخير • فطالب صراحة الكتابة فى موضوعات الصبر ، والتوكل ، والورع ، والتقوى ، والرضا ، والخوف ففهمت . انظر « قضايا معاصرة » الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ص ١٦٥ — ١٧٦ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ .

التكليف نفسه ، اذن لا يوضع الجهاد مع فعل آخر حتى ولو كان مندوبا أو واجبا لان الجهاد يند عن تصنيف التكليف والخيار بين أفعاله : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله » (التوبة : ١٩) • وهو الدافع الانسانى الذى هو أقوى من كل دافع آخر ، بل هو الدافع الذى يمحى أمامه كل دافع آخر ويذوب فيه : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا ••• » (التوبة : ٢٤) • فلا يكفرن عن الجهاد الا الجهاد ولا مكان للقانعين الراضين بين المجاهدين •

٢ — الجهاد امتحان واختبار :

جهد بالرجل أى امتحنه واختبره ، فالجهاد امتحان واختبار ، وهو الكفيل باظهار المؤمن من المنافق ، الصادق من المرائى • فالله يمتحن العبد فى ايمانه بدرجة استعداده للتضحية الفعلية ، ولا كسب ولا نصر الا بعد هذا الاختبار : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (آل عمران : ١٤٢) • الجهاد اذن تمحيص للايمان واختبار لرسوخه ولن يترك الانسان لقوله وما يتشدق به دون تمحيص واختبار : « أحسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » (التوبة : ١٦) • فليس كل من ادعى الجهاد مجاهدا ، وليس كل من دعى الى الجهاد مجاهدا ، فقد يكون كلاهما أول الناكصين • انما الواقف فى الخطب ، الثابت فى البلاء هو المجاهد حقا : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » (محمد : ٣١) •

٣ ـ الجهاد حرية الايمان :

الجهاد هو رأس الايمان وحريته تنطلق منه تلقائيا دون اذن أو سماح والا فهو النفاق والرياء • فالمؤمن مجاهد بالطبع لان ايمانه يأبى عليه القعود والتخاذل والتحجج وتلمس الاعذار : « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا » (التوبة : ٤٤) • فالايمان تقدم والنفاق تراجع ، والجهاد سبق والرياء تقاعد : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا » (التوبة : ٨١) • والمؤمن لا ينهزم ولا يستسلم بل يجاهد • فالجهاد والانهزامية ضدان ، والمجاهد والقاعد طرفا نقيضان : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » (النساء : ٩٥) ، « وفضـــل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » (النساء : ٩٥) • والجهـــاد حق على المؤمنين عامتهم وخاصتهم ، شراذمهم ووجهائهم • فالمؤمن الذى لا يربطه بهذا العالم الا لقمة خبزه وسترة جسده هو السباق للجهاد ، أما وجيه القوم المتثاقل بالاحمال وبما كنز وجمع وملك وتمالك فهو آخر المجاهدين : « واذا نزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم » (التوبة : ٨٦) • لذلك ، استنفر القرآن الناس للجهاد : « أنفروا خفافا وثقـــالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » (التوبة : ٤١) حتى يستطيع كل مؤمن أن يبرز ايمانه ويوضحه بالفعل • والاستنفار حالة حرب واستعداد له وتهيئة سبله • ولذلك أيضا يربط القرآن الايمان بالجهاد ، كلما ذكر الايمان ذكر الجهاد : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى ســـبيل الله » (الصف : ١١) • فالجهاد هو الذى ينبثق من الايمان الراسخ لا من ايمان مزعزع مشكوك فيه ، فالمجاهد الواثق من قضيته أثبت وأصلب فى القتال : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا

وجاهدوا بأموالهم » (الحجرات : ١٥) . والايمان قد يحتم الهجرة وترك الاهل والوطن لفتح ميادين أخرى له فى مكان آخر ، وهذا جهاد كذلك ، فالمؤمن يجاهد فى كل مكان ، وقد جعلت له الارض ميدانا : « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » (الانفال : ٧٢) . كذلك ، « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم » (الانفال : ٧٥) .

٤ — الجهاد بذل وفداء :

لا يوجد جهاد من عدم ، انما الجهاد هو جهاد بشىء ، بالمال وبالنفس ، فالمجاهد هو الذى يعطى ولا يأخذ ، وهو الذى يهب ولا يسأل ، وهو الذى يضحى بما معه ، لا من يتطلع الى غيره ، فالجهاد بذل لا مكسب ، وتضحية لا احتراف ، ومن يعمل يعمل لله دون جزاء من الناس . المجاهد هو الذى يهب ماله ونفسه لا الشحيح بورقه وبحياته : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » (الانفال : ٢٠) . ولا يطلبن من أحد فوق طاقته وكذلك لا يقبل من مؤمن أقل من طاقته . فالجهاد حسب الوســع والطاقة ، فجهاد المفكر حسن النصيحة ، وجهاد العامل اتقان عمله ، وجهاد المعلم صدق قوله ، وجهاد القائد حسن استشهاده ، وجهاد الحاكم عدل حكمه ، فالجهاد نية وموقف وعمل : « والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم » (التوبة : ٧٩) .

٥ ـ الجهاد تأكيد للشخصية :

الجهاد جهاد للنفس أولا ، وهو تحقيق للشخصية الانسانية وتأكيد لارادتها وفعلها ، وهو السبيل الحفاظ على هذه الحياة التى وهبها الله لها : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان اللـه لغنى عن العالمين » (العنكبوت : ٦) . الجهاد اذن فيه مصلحة العباد وتهيئة سبلهم وليس ضياع أو موت أو عدم . ويتم الجهادبحرية كاملة وعن علم ، فلا يجبرن أحد على التضحية والا ذهب متثاقلا يجر أقدامه أو قاتل مزعزعا لا يدرى من أمره شيئا ، يتم الجهاد اذن عن رؤيا واضحة لقضايا الجهاد وهى القضايا المصيرية التى تجتازها الامة الاسلامية . الجهاد جهاد عن وعى ، ومن جاهد غير واع كان مخاطرا بالهزيمة : « ان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » (لقمان : ١٥) . وأجهد نفسه تعنى أبرز موقفه وأوضح فكره . والجهاد لا يدعو الى الخوف أو التخوف : « ويجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » (المائدة : ٥٤) ، بل إن الجهاد مدعاة للثبات ولرباط الجأش والغلظة على الكافرين : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم » (التوبة : ٧٣) . فلا توانى فى الجهاد ولا انتظار ، ولا تهاون ولا مصالحة ، الجهاد هو الجهاد الكبير ، الجهاد العام الشامل الذى ينهض فيه المسلمون للدفاع عن أوطانهم ومقدساتهم : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم جهادا كبيرا » (الفرقان : ٥٢) .

٦ ـ الجهاد حق الله :

كما أن الجهاد هو حق الانسان ، هو حق الله أيضا ، لا ابتغاء ثناء أو مديح أو مكسب أو مغنم ، بل لاعلاء كلمة الله ولتأكيد شرعه : « وجاهدوا فى الله حق جهاده » (الحج : ٧٨) . فكما أن الزكاة حق

المال ، والصلاة حق الشهادة ، فالجهاد حق الله ، ومن لا يجاهد فانه يسقط حق الله من حسابه ، وأى حق ! : « ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى » (الممتحنة : ٦٠) • ويتم ذلك بأخذ الوسائل والسبل لذلك ، فلا جهاد بدون خطة وعتاد مادام هناك المجاهدون فى سبيل الله : « اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله » (المائدة : ٣٥) • فبمقدار ما يتهيأ العدو للقاء بمقدار ما نستعد للقائه بوسائله وسبله • بعد ذلك يفتح الله على المؤمنين وينصرهم نصرا مؤزرا • فالجهاد هو سبيل الهداية ، وطريق الحق : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (العنكبوت : ٦٩) ، وسبيل الجهاد هو الطريق الى بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الرحمين •

(هـ) الصـــبر

لقد بدأت قيم جديدة تغزو نفوسنا ، ونربى عليها شعوبنا . والحقيقة أنا فى غنى عنها لانها كامنة فى النفوس . تعمل فينا ، وتؤثر فى سلوكنا ، ولا نستطيع لها دفعا . ومن أمثال ذلك « الصبر » . فقد ورثناه عن الصوفية وغنيناه ، وضربنا به الامثلة ، واستشهد به الآباء والاجداد ، وعلقنا على حائطنا « الصبر مفتاح الفرج » .

صحيح أن القرآن الكريم يذكر فضيلة الصبر (١٠٣ مرة) ولكننا نسىء تأويله ، ونجعله يسير على وتيرة واحدة لاعطاء معنى واحدا هو الاستكانة والقبول والرضى وعدم الثورة أو الغضب أو الرفض . الصبر فى القرآن ليس قبولا للضيم ، وتحملا المهانة والاذى ، وجرحا للكرامة الوطنية بل هو صبر وعزيمة ، « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » (٤٦ : ٣٥) . ولابد أن يسبقه جهاد ، «ثم جاهدوا وصابروا » (١٦ : ١١٠) . ويتلوه الرباط ، « أصبروا ، وصابروا ، ورابطوا » (٣ : ٢٠٠) . فالصبر ليس ضعفا أو استكانة ، « وما ضعفوا ومـــا استكانوا ، والله يحب الصابرين » (٣ : ١٤٦) . والصبر لا يكون الا فى الحرب والقتال « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » (٢ : ١٧٧) . ويكون نتيجة للعمل والجهاد ، « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (٣ : ١٤٢) ، والصبر هو أن تغلب

كتب هذا المقال أيضا لجريدة « الاهالى » فى ١٩٧٨ فى نفس الظروف التى كان يروج فى مصر وقتها لكل القيم السلبية على انها قيم الايمان من اجل تركيز مفاهيم الطاعة وترسيخ سلوك الاستسلام لدى الجماهير . وهذه صياغة ثانية من المسودة الاولى كتبت فى خريف ١٩٨٧ .

الفئة القليلة الفئة الكثيرة ، « ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » (٨ : ٦٥) ، « فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » (٨ : ٦٦) • وليس صبر الكثير على القليل ، والاغلبية على الاقلية •

وفى نفس الوقت ، يبين القرآن أيضا أن أمام الحقائق الدامغة فالصبر لا فائدة منه ، ولا يرجى منه شىء ، « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » (١٤ : ٢١) • وعذاب الجحيم لن يفيد الصبر منه شيئا ، « اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم » (٥٢ : ١٦) • كما أن الصبر يجوز مع الذين يرجى منهم شىء ، « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » (١٨ : ٢٨) ، وليس على الاعداء الذين يتربصون بالمسلمين • الصبر اذن موقف مؤقت ، حركة سلبية ، اختمار لوقت الفورة والغضب ، وتغير الموازين ، وانقلاب القوى •

كما يبين القرآن أن الصبر لا يصح فى كل الحالات ، فالصبر على الباطل باطل ، « وان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليهـا » (٢٥ : ٤٢) • كذلك لا يمكن الصبر على جهل وعدم معرفة بالامور ، « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » (١٨ : ٦٨) • بل ان لفظ الصبر والضجر منه هو فاتحة العلم ، وبداية المعرفة ، وطريق الفهم ، « سأنبؤك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » (١٨ : ٧٨) • والانبياء أنفسهم يضيقون بالصبر ذرعا ، « انك لن تستطيع معى صـبرا » (١٨ : ٦٧) • والشعب الذى يتضرر من الصبر يحصل على ما يريد ، « واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد » (٢ : ٦١) • بعد ذلك أعطى الله بنى اسرائيل خير مصر • وأخيرا يضيق القرآن ذرعا بالصبر لان الصبر شيمة الكافرين فى تحملهم عذاب النار ، « فما أصبرهم على النار » (٢ : ١٧٥) •

(و) الحب

انننا ندعو الى الحب بيننا ، ونريد اقامة مجتمعنا على الحب ، ونتصور الحب على أنه تخل عن الحقوق ، وترك للامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فنحب السارق والسمسار ، ونعشق الحارس والجلاد . تصورنا الحب على طريقة الانفتاح ، بسداح مداح ، بلا شروط وبلا مقابل . ويتضح ذلك فى أغانينا بالاستمرار فى الحب بالرغم من الهجران ، فنقبل الضيم والهوان باسم الحب . ويغذى الصوفية ذلك فى النفوس ، فنستشهد بأقوالهم . صحيح أن القرآن تحدث عن الحب ، وجعل الحب فعلا من أفعال الله ولكننا كعادتنا نأخذ من القرآن ما نريد ونترك ما لا نريد ، ونؤمن ببعض الكتاب ، ونكفر بالبعض الآخر .

لقد ذكر القرآن أن الله يحب (ست عشرة مرة) . فالله يحب التوابين ، والمتطهرين ، والمتقين ، والمحسنين ، والصابرين ، والمتوكلين ، والمقسطين ، والذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص . ولكنه ذكر أيضا أن الله لا يحب (ثلاثا وعشرين مرة) أى أن الله لا يحب أكثر مما يحب . فالله لا يحب الكفر والاثم ، « والله لا يحب كل كفار أثيم » (٢ : ٢٧٦) . ولا يحب الخيانة والاثم ، « ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما » (٤ : ١٠٧) . والخيانة اثم وكفر ، « ان الله

كتب هذا المقال أيضا لجريدة « الاهالى » عام ١٩٧٨ فى الوقت الذى كان يروج فيه حاكم مصر فى ذلك الوقت لقيم الحب والايمان واخلاق القرية والطاعة لرب الاسرة وكبير العائلة . وكان الغرض منه اثبات العكس اى شرعية الا يحب الانسان بل وأن يكره مثل الله تماما . وكان تحت العنوان آية « ان الله لا يحب كل مختال فخور » . وهذه صياغة ثانية من المسودة الاولى كتبت فى خريف ١٩٨٧ .

لا يحب كل خوان كفور » (٢٢ : ٣٨) • والله لا يحب الخائنين ، « ان الله لا يحب الخائنين » (٨ : ٥٨) • والله لا يحب الفرحين بأنفسهم ، « ان الله لا يحب الفرحين » (٢٨ : ٧٦) • كما أنه لا يحب المختالين الفخورين بأنفسهم زينة ولباسا ، أناقة ومظهرا ، صـــورة واعلاما ، « والله لا يحب كل مختال فخور » (٤ : ٣٦) • والله لا يحب الجهر بالسوء ، والهجوم على الآخرين ، والنيل من ايمانهم ومن وطنيتهم ، « لا يحب الله الجهر بالسوء » (٤ : ١٤٨) • والله لا يحب الفساد ، « واللهلايحب الفساد » (٢ : ٢٠٥) • كما أنه لا يحب الاسراف ، وتجديد القصور ، وتبذير الاموال ، « انه لا يحب المسرفين » (٦ : ١٤١) • والله لا يحب الظلم ، « والله لا يحب الظـالمين » (٣ : ٥٧) • كما لا يحب الاعتداء ، « ان الله لا يحب المعتدين » (٢ : ٢٩٠) • فاذا كان الله لا يحب الكفر ، والاثم ، والخيانة ، والعجب بالنفس ، والعجز ، والاستكبار ، والجهر بالسوء ، والفساد ، والظلم ، والاعتداء • فكيف يحب الانسان هكذا بلا تمييز بين موضوعات الحب ؟ الحب سهل وعدم الحب صعب ، فالايجاب أسهل على النفس من السلب • لا يوجد حب بلا عدم • كلاهما واجهتان لعملة واحدة •

كما يذكر القرآن أن الحب قد يكون وهما وخداعا ، « عسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » (٢ : ٢٢٦) • كما أنه قد يكون لسراب خادع ووهم باطل ، « لا أحب الآفلين » (٦ : ٧٦) ، وقد لا ينتج عنه عمل صالح بل قد يؤدى الى العصيان ، « وعصيتم بعدما أراكم ما تحبون » (٣ : ١٥٢) • لذلك يركز القرآن على أن الحب ليس على الاطلاق بل هو مشروط بالطاعة وبالعمل الصالح ، « قل ان كنتم تحبون

الله فاتبعونى يحببكم الله » (٣ : ٣١) . فالحب علاقة متبادلة بين طرفين ، وليس من طرف واحد ، « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم » (٣ : ١١٩) . وهى علاقة بين الانسان والانسان أو بين الانسان والله ، « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » (٥ : ٤٥) . كما أن شرطه الانفاق ، « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٣ : ١٥٢) ، « وآتى المال على حبه ذوى القربى والمساكين » (٢ : ١٧٧) ، « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » (٧٦ : ٨) .

والاكثر من ذلك فان القرآن يدين الحب الذى لا يوضع فى محله . فالحب يتحدد بموضوعه وليست بصورته . فلا يستطيع الانسان أن يحب الضلالة والعمى ، « فاستحبوا العمى على الهدى » (٤١ : ١٧) . ولا يستطيع أن يحب الكفر ، « لا تتخذوا آباؤكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان » (٩ : ٢٣) . ولا يحب العاجلة تاركا الباقية ، « ان هؤلاء يحبون العاجلة » (٧٦ : ٢٧) ، ولا يحب الدنيا ، « وذلك بأنهم استحبوا الدنيا على الآخرة » (١٦ : ١٠٧) . ولا يحب الشهوات ، « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين » (٣ : ١٤) . ولا يحب الفاحشة ، ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » (٢٤ : ١٩) . ولا يحب المال ، « وتحبون المال حبا جما » (٨٩ : ٢٠) . ولا يحب أن يحمد بما لم يفعل ، « ويحبون أن يحمد بما لم يفعلوا » (٣ : ١٨٨) . ولا يحب أن يتخذ أندادا لله ، « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله » (٢ : ١٦٥) . ولا يحب التكاسل والاتكال

وملكية العقار ، « ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله » (٩ : ٢٤) .

انما الحب المطلوب هم للاخوان الذين هاجروا من ديارهم أى لجماعة المؤمنين الذين يجتمعون فيما بينهم على هدف ، ويكونون حزبا ، « يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » (٥٩ : ٩) . الحب للسجن عندما تدعو الحاجة دفاعا عن شرف الكلمة وكرامة الوطن ، « قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه » (١٢ : ٣٣) .

(ز) الكراهيـــة

يحاول فكرنا السياسى فى هذه الايام تعليل كل ما يحدث فى واقعنا من قلق اجتماعى ورفض لسياستنا الاقتصادية بالكراهية والحقـد والضغينة وغياب المحبة والالفة ! فاذا ما تخلصنا من الكراهية تخلص واقعنا من كل مآسيه ، وتخطينا بأمان وسلام عنق الزجاجة عـام ١٩٨٠ ثم انتقلنا الى عالم الرفاهية عام ٢٠٠٠ ، منزل ومرسيدس لكل مواطن ! وتؤثر فينا هذه الدعوة لما عرف عن شعبنا من كرم وحب وسلام • وعلى فرض صحة هذا التعليل يظل السؤال هو : كراهية من ، وكراهيـــة ماذا ؟ صحيح أن القرآن ينـــدد بالكراهية ، كراهية المجرمين والكافرين والمشركين للحق ، ولكنه أيضا يندد بكراهية الناس للجهاد بأموالهم وأنفسهم ، « وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » (٩ : ٨) • كما ينبه القرآن على أننا قد ننخدع فنكره شيئا وهو خير لنا ، « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم (٢ : ٢١٦) حتى لا نقع فريسة للوهم والخداع ، ونعيد الحساب باستمرار •

وينبه القرآن أيضا على شىء نغفل عنه ، ونصم آذاننا دونه وهو كراهية من ؟ وكراهية ماذا ؟ فبعض الناس تجب كراهيته عن حق • والله نفسه يكره جهاد المنافقين ، « كره الله انبعاثهم فثبطهم » (٩ : ٤٦) • وكره خروجهم للقتال لانهم يخرجون بلا حماس ولا اقتناع ،

كتب هذا المقال أيضا لجريدة « الاهالى » عام ١٩٧٨ لبيان معنى الكراهية الايجابى ، كراهية الظلم والطغيان فى الوقت الذى امتلأت فيه أجهزة الاعلام بناء على توجيه النظام فى مصر ضد الحاقدين الذين يروجون للحقد الطبيعى وليس للسلام الاجتماعى ! وهذه صياغة جديدة من المسودة الاولى كتبت فى خريف ١٩٨٧ •

يبغون الاضرار بالمؤمنين • كما أن الله فى نفس الوقت الذى حبب الينا الايمان كره الينا الكفر والفسوق والعصيان ، « وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان » (٤٩ : ٧) • فكراهية الكفر واجبة ، وكراهية الفسوق فرض ، وكراهية العصيان أمر • ولكن الاهم من ذلك هو كراهية من يأكل لحم أخيه ميتا ، « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتـا فكرهتموه » (٤٩ : ١٢) • بل ان التكوين الصـوتى لفعل « فكرهتموه » يدل على شدة الكراهية • فكل من السمسار والمضارب يأكل لحم أخيه لانه يتكسب بلا جهد • والمرتشى يأكل لحم أخيـه لانه يأخذ مالا بغير وجه حق • وقابض العمولات يأكل لحم أخيه لانه يختلس على وجه شرعى ، ويأخذ أجرا مضاعفا ، مرة من عمله ظاهرا ومرة أخرى يزيد عليه مئات المرات باطنا دون تناسب بين الجهـد والكسب • ان من يتهرب من الضرائب ، ومن يتاجر بأقوات الناس ، ومن يكسب أضعاف أثمان السلع ، ومن يختلس المال العام ، كل منهم يأكل لحم أخيه فوجبت كراهيته بأمر الله • وكل من يدعو الى لفظ الكراهية فانه يريد للغير أن يأكلوا لحومنا فوجبت كراهيته وكراهيتهم •

وينبه القرآن أيضا على أننا نحب بعض ما نكره ، وأن الكراهية عامل ايجابى • فقتال الاعداء مكروه للنفس ولكنه واجب ، « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » (٢ : ٢١٦) • والام تحمل وليدها وتضعه كرها ، « ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ، ووضعته كرها » (٤٦ : ١٥) ، ولكنه محبب الى النفس • والمؤمن قد يكره أيضا عن حق ، « وان فريقا من المؤمنين لكارهون » (٨ : ٥) •

الكراهية اذن ليست شرا على الاطلاق • بل قد تكون خيرا مثل

كراهية الظلم والنفاق والطغيان ، وكراهية القعود والتخلف عن القتال ، وكراهية الاستغلال والاحتكار والاكتناز . واذا كان الله يحب ويكره فلماذا يحب الانسان على الاطلاق ، وتحرم عليه الكراهية(١) ؟

---

(١) كانت هناك محاولات أخرى لاستئناف هذه التحليلات للقيم السائدة التى تروجها أجهزة الاعلام بمعانيها السلبية من أجل اعادة بنائها ارتكازا على معانيها الايجابية ثم توقفت بسبب عدم تحمس جريدة « الاهالى » لاستئناف المشروع . وكانت اهم الموضوعات كالآتى مصنفة طبقا للميادين الرئيسية :

١ — السياسة : التقدم والتأخر ، التخلف والمتخلفون ، القعود والقاعدون ، الاصلاح والافساد ، القتال ، الفوز ، العرب والعروبة ، سيناء ، الحرب والسلام ، الاعداء .

٢ — الاقتصاد : الترف والمترفون ، الغنى والاغنياء ، الفقر والفقراء ، التجارة ، الربح ، الثمن ، الاجر ، الجوع ، الاسراف ، الكسب ، المال ، المتاع ، الرزق .

٣ — الارض : التراب ، الارض ، الطين ، الزرع ، العمل ، الحديد .

٤ — الاجتماع : الانسان ، الامة ، البشر ، الدرجات والمراتب ، الظلم والعدل ، المسكن ، الجهل ، السفه والغفلة ، السر والعلن ، الترشيد ، الفقه ، التفكر ، القرآن ، الواقع ، السؤال ، الحزب والبرهان ، القوة والضعف ، اليأس والقنوط ، الوهن ، الدين ، الاسلام ، الحاكمية ، الاقلية والاغلبية .

٥ — الفكر : ثورة أم اصلاح ؟ الانسان والتاريخ ، التعصب ، ثورة الانبياء .

والمنهج المتبع كان واحدا وهو « تحليل المضمون » اعتمادا على معانى هذه الالفاظ فى القرآن الكريم وتصويبها نحو الواقع . أما فى الموضوعات الفكرية فكان الاعتماد فيها على التنظير المباشر للواقع .

ح — الصــلاة والنفــاق

الصلاة فعل من أفعال الانسان العادية التى يقوم بها فى حيــاته اليومية • فهى اذن موضوع دراسة للسلوك الانسانى فى شتى صوره• كذلك النفاق أحد مظاهر هذا السلوك الانسانى • ونجد فى الآيات القرآنية نفس الوصف للصلاة والنفاق ، والايمان والنفاق مثــل : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » (٤ : ٤٣) • وكأن الصلاة لا صلة لها بالسلوك ، هذه نقرة وتلك نقرة أخرى • ومثل : « واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى » (٤ : ١٤٢) ، « ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى » (٩ : ٥٤) وكأن فعل الصــلاة ثقيل على النفس ، يقوم به المصلى بلا حماس أو وازع ، مجرد أداء واجب أو أمر بلا اقتناع • ومثل : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكــاء وتصدية » (٨ : ٩٢) مثل معظم صلوات الناس اليوم • أما الايمان والنفاق فالشواهد عليهما كثيرة يذكرهما القرآن فى وصف ســلوك الانسان عندما يؤمن بالله فقط ساعة الشدة والضرر ولا يعرفه الا فى المصائب ، فاذا كشف الله الضر ترك ايمانه كأن لم يؤمن بالامس !

كتب هذا المقال فى فترة الشهادة الاولى بعد هزيمة ١٩٦٧ ، فترة « قضايا معاصرة » ، بالموازاة مع « التفكير الدينى وازدواجية الشخصية » (الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ص ١١١ — ١٢٧) . وهو ايضا محاولة لوصف الدين الشعبى فى مقابل الدين الشرعى ، وتحليل نفسى للصلاة كما يمارسها بعض الناس فى الحياة اليومية والتى تجعل البعض الآخر رافضا ممارسة العبادات على انهــا نوع من الطقوس والشعائر والاشــكال الخارجية . والمقال لم يتم ، وهذه صياغة ثانية من الفقرات الاولى تمت فى خريف ١٩٨٧ .

« واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه » (١٠ : ١٢) ، « ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » (١٦ : ٥٤) ، « واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون » (٣٠ : ٣٣) ، « واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو اليه من قبل ، وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله » (٣٩ : ٤٩) • والشواهد على ذلك كثيرة وواضحة لكل قارىء للقرآن • والتجربة الانسانية تؤكد هذه الشواهد النقلية • والقرآن يصف بعض التجـارب الدينية فعلا وايمانا • فما هى أواصر القربى بين الصلاة والنفاق بناء على هـذه التجارب ؟

يقع التشابه بين التجربتين فى انفصام القول والعمل • فالمنافق يقول غير ما يعتقد • القول عنده ليس تعبيرا عن مضمون شعوره بل ايهام لمستمعه بما يرضيه أى أنه يعبر عن شعور الآخر ليحوز رضاه أو ثقته أو لينال مغنما منه • هو لا يقول شيئا لان القول يصدر أساسا عن قصد ، وقصد المنافق يكمن بينه وبين نفسه دون أن يعبر عنه • والمصلى أيضا قوله منفصم عن عمله • والتمتمة التى يقوم بها يفوه شيئا من غير مضمون لايهام مستمعه بالصوت • أما ما يحسه ويشعر به فهو لا يعبر عنه أبدا • وقد يطغى عليه فيشرد ذهنه • وهو فى هذا الشرود أصدق لانه يعبر تعبيرا شعوريا عما يحس به فى باطنه وعما يوده ويرجوه قاضيا على القول الذى لا يعبر عن باطنه أبدا •

والمنافق له قصد مزدوج • له قصده الذى يعبر عن جوهره وماهيته

وهو ما يخفيه ، ولا يظهره الا فى حياته الخاصة وبين المنافقين • وقصد آخر يتبناه ، يحاول أن يعيشه • وهذا القصد الوهمى هو الذى يعبر عنه فى قوله عندما يتحدث • والمصلى أيضا له قصد مزدوج • فالقصد الخفى الذى يعبر عن جوهره هو الصلاة بحكم العادة ، لرؤية الآخرين ولكى يراه الآخرون • هو حب الثناء ، والرغبة فى الاطمئنان الاجتماعى وعدم الشذوذ عن المألوف • وهو خوف مما يظنه الناس على أنـــه مرذول ، وقد يكون خوفا طبيعيا مما قد يلحق به ان تخاذل من آثار لا يرضاها على نفسه ، آثار مباشرة أو غير مباشرة • أما القصد الآخر الذى يوهم به فهو ما يسميه الايمان أو الله موضوع الايمان • ففعله يصدر عن قصد وعن اعتقاد عادة وخوفا ثم يوهم بهذا القصد المركب المتبنى •

وللمنافق شعور مزدوج يظهر فى سلوكه العام قولا أو عملا أو شعورا • فهو يقول غير ما يعتقد ، ويعتقد غير ما يقول • واذا حللنا شعور المصلى لوجدناه أيضا شعورا مزدوجا • فالمصلى يحيـــا على مستويين ، مستوى عام ومستوى خاص • فهو شعور عادى غير موجه على المستوى العام ، يفعل دون أن يكون هناك أساس نظرى لفعله الا أساس العادة • ثم يقتطع من هذا الشعور جزءا آخر يوجهه على أساس غامض يظنه أفضل وأسمى من باقى الشعور • ويصدر عنـــه فعل أيضا بحكم العادة • ويظنه فعلا اراديا مبنيا على قصد حاضر يعيشه صاحبه فى اللحظة • والذى يحدد ظهور أحد المستويين أو الآخر هو رؤية الناس لـــه ومدى تحقيق مصلحة له اذا مـــا كان موضوعا لهذه الرؤية •

ويعيش المنافق فى عالمين ، عالم الظاهر وعالم الباطن ، العـــالم المرئى والعالم اللامرئى ، عالم الشهادة وعالم الغيب ، عالم العلن وعالم السر • يكون موجودا فى أحدهما ويظهر عكس ذلك للناس • وكذلك يعيش المصلى فى عالمين : الداخل والخارج ، الروح والبدن ، الدين والدنيا ، الله والعالم • يوجد فى أحدهما ويظهر للناس أنـــه يعيش فى الآخر •

والسؤال الآن : اذا كانت الصلاة هى تدبر لما يقال كلمة كلمة أى اتفاق القول مع الشعور فكيف يمكن تحقيق هذه الوحدة فى كل عمل وفى كل لحظة حتى يكون الانسان مصليا صادقا ، يقوم بالصلاة من حيث هى مضمون لا من حيث هى صورة ، ويعيش فى عـــالم واحد لا فى عالمين ، وعلى مستوى واحد لا على مستويين ، يوحد بين قوله وعمله ، بين داخله وخارجه ، بين دينه ودنياه ؟ كيف يعيش الانسان صريحا ، صادقا مع النفس وفى العالم حتى ولو اتهمه الآخرون الذين يجمعون بين الصلاة والنفاق ؟

ط ـ أحكام السوق

عرض كثير من الفقهاء قديما لاحكام السوق • ووضعوا فيها ليس فقط ما يتعلق بالبيع والشراء والتسعير والغش بل أيضا أحكام الذهاب الى السوق والسير فيه والذهاب الى الحمام ونظافة الطرقات وأوضاع محلات اللهو وآداب الطريق • ومع ذلك فالموضوعان الغالبان هما التسعير والغش • وباقى الموضوعات مقتطفات هنا وهناك •

تبدأ أحكام السوق بتحريم الاحتكار • وقد قال الرسول : « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون » وقال أيضا : « لا يحتكر الا خاطيء » • فالاحتكار منع للتداول ، ومصادرة على نشاط الآخرين ، وتحويل الملكية الى استئثار وتملك وليس مجرد استثمار وتصرف • فاذا وقع احتكار فالتسعير واجب • ويحد لاهل السوق حد لا يتجاوزونه مع قياس الناس بالواجب • وترك السوق بلا تسعير يجعله عرضة للاحتكار وغلاء الاسعار والربح الفاحش • والسلطان هو الذى يسعر وليس الله والا كان الله يسعر من أجل السلطان وكان السلطان يسعر ويدعى أنه تسعير الله • وقال أبو حنيفة أنه لا ينبغى للسلطان أن يسعر على الناس الا اذا تعلق به حق ضرر العامة • فاذا رفع الى

كتب هذا المقال لجريدة « الاهالى » عام ١٩٧٨ وكانت الغاية منه اعادة عرض الفقه القديم بناء على الاوضاع الاقتصادية للعصر . وهذه صياغة ثانية من المسودة القديمة كتبت فى خريف ١٩٨٧ (انظر أيضا : يحيى بن عمر : أحكام السوق ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، نشر فرحات الدشراوى ، الشركة التونسية للتوزيع . وهناك نشرة أخرى للدكتور محمود على مكى ، مجلة المعهد المصرى ، مدريد ١٩٥٦) .

القاضى أمر المحتكر ببيع ما فضل عن قوته وقوت أهله على اعتبار السعر فى ذلك • فنهاه عن الاحتكار • فان رفع التاجر فيه اليه ثانيا حبسه وعزره على مقتضى رأيه زجرا له أو دفعا للضرر عن الناس • فان كان أرباب الطعام يتعدون ويتجاوزون القيمة تعديا فاحشا وعجز القاضى عن صيانة حقوق المسلمين الا بالتسعير حينئذ يكون بمشـــورة أهل الرأى والبصيرة ، واذا تعدى أحد بعد ما فعل ذلك أجبره القاضى • فاذا كانت حاجة الناس لا تقضى الا بالتسعير العادل سعر عليهم تسعير عدل • ولابد من العلم بالسعر قبل البيع والشراء • فقد نهى النبى عند البيع والشراء الذى جنسه حلال حتى يعلم البائع بالسعر وهو ثمن المثل ، ويعلم المشترى بالسلعة • ومن المنكرات تلقى السلع قبل أن تجىء الى السوق لما فيه من تغرير البائع فانه لا يعرف السعر فيشترى منه المشترى بدون القيمة • ولذلك اثبت النبى الخيار • كما لا يجوز البيع والشراء بثمن للمماكس وبثمن آخر لغير الماكس (الفصال فى الاسعار) فليس لاهل السوق أن يبيعوا للمماكس بسعر والمسترسل الذى لا يماكس أو هو جاهل بالسعر بأكثر من ذلك السعر لقول الرسول « غبن المسترسل ربا » •كما نهى الرسول عن بيع حاضر لباد لقوله « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » أى لا يكون له سمسارا لما فى السمسرة من ضرر المشترين فان المقيم اذا توكل للقادم فى بيع سلعة يحتاج الناس اليها ، والقادم لا يعرف السعر ضر ذلك المشترى •

فاذا ما تبين أن فى السلعة غشا فسخ البيع لقول الرســـول « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وان كذبا وكتما محقت بيعهما » • فالغش محرم فى البيع والشراء

لقول الرسول « من غشنا فليس منا » ، وقوله أيضــا « لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » • وينهى المحتسب عن المنكرات مثل تطفيف المكيال والميزان والغش فى الصناعات والبياعات والديانات : « ويل للمطففين الذين اذا كانوا على الناس يستوفون ، أو كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم » (٨٣ : ١ ــ ٥) • وأيضا « أوفوا الكيل ، ولا تكونوا من المخسرين » (٢٦ : ١٨١) ، « وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » (١٧ : ٣٥ ، « ولا تنقصوا المكيال والميزان » (١١ : ٨٤) ، « فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم » (٧ : ٨٥) ، « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » (٦ : ١٥٢) •

والغش على أنواع • يدخل فى البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع مثل أن يكون ظاهر المبيع خيرا من باطنه كما قال الرســول « أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس » • ويدخل فى الصناعات مثل الذين يصنعون المطعومات من الخبز والطبخ والعدس والشواء وغير ذلك أو يصنعون الملبوسات كالخياطين وغيرهم أو يصنعون غير ذلك من الصناعات فيجب نهيهم عن الغش والخيانة والكتمان • ومن هؤلاء الكيماوية الذين يغشون النقود والجواهر والعطر وغير ذلــك فيصنعون ذهبا أو فضة أو عنبرا أو مسكا أو جواهر أو زعفرانا أو ماء ورد أو غير ذلك يضاهون به خلق الله • وتدخل فى المحرمات العقود المحرمة مثل عقود الربا والميسر مثل بيع الغرر وكحبل الحبلة والملامسة والمنابذة وربا النسيئة وربا الفضل وسائر أنواع التدليس • وتدخل فى ذلك المعاملات الربوية سواء كانت ثنائية أو ثلاثية اذا كان المقصود

بها جميعا أخذ دراهم بدراهم أكثر منها الى أجل • فالثنائية ما يكون بين اثنين مثل أن يجمع الى القرض بيعا أو اجارة أو مساقاة أو مزارعة طبقا لقول الرسول « لا يحل سلف أو بيع ولا شرطان فى بيع ولا ربح ما لم يضمن ، ولا بيع ما ليس عندك » مثل أن يبيعه سلعة الى أجل ثم يعيدها اليه ، « من باع بيعتين فى بيعة فله أوكسهما أو الربا » • والثلاثية مثل أن يدخلا بينهما محلا للربا يشترى السلعة منه آكل الربا ثم يبيعها المعطى لربا الى أجل ثم يعيدها الى صاحبها بنقص دراهم يستفيدها المحلل • هذه المعاملات منها ما هو حرام باجماع المسلمين مثل التى يجرى فيها شرط لذلك أو التى يباع فيها البيع قبل القبض الشرعى أو بغير الشروط الشرعية أو يغلب فيها الدين على المعسر فان المعسر يجب أنظاره • ولا يجوز الزيادة بمعاملة ولا غيرها باجماع المسلمين •

وهكذا ذكر الفقهاء القدماء نماذج من الغش والتدليس فى الاطعمة القيمة مثل الخبط قبل الغربلة ، وخلط الدهون بالزيت ، وبيع الفواكه قبل أن تطيب ، وخلط الخبز بالحجارة ، والقمح الطيب مع القمح الخبيث ، وخلط اللحم السمين باللحم الهزيل ، وخلط اللحم مع الفؤادات والبطون ، وخلط اللبن بالماء ، والعسل الطيب بالعسل الردىء ، كل ذلك أمثلة قديمة لها ما يقابلها فى عصرنا الحديث من الغش فى الاطعمة وتوريد الاطعمة الفاسدة التى تجاوزت تاريخ صلاحيتها ، أو استيراد الاطعمة التى لفظتها المجتمعات الاوربية أو التى تصدرها للديوانات لانها غير صالحة للاستهلاك الآدمى ، واستيراد الاطعمة التى بها مخاطر الاشعاعات النووية أو الملوثة بالامراض مادمنا شعوبا جائعة تأكل كل شىء لسد الرمق وعدم الموت جوعا •

واذا كان القدماء أيضا قد تكلموا فى السوق كظاهرة اجتماعية ، طريق اللباس فيه ، والسير فى طرقاته بالكعب العالى مع رنة الخلخال ، ورش طرقه وكنس الطين ، واهراق الماء أمام الدور فان السوق حاليا مكان لتهريب الاموال ، والسوق السوداء ، وتجارة الرقيق الابيض ، وأطنان الاوساخ ، والمجارى الطافحة ، وشق الجيوب ، وعقد الصفقات المريبة ، والاطعمة الملوءة بالاوبئة من الباعة المتجولين ، والصبية الضائعين ، والشرطة المرتشية التى تفرض الاتاوات على فقراء البائعة لتتركهم يحتلون الارصفة ، ولحارس مواقف السيارات ، ولباعة المخدرات ، ولباعة المسابح والبخور والاذكار والاوراد والمصاحف ، والمقاهى الادباء ، ولاركان الشذوذ الجنسى ، وربما أيضا للمبدعين فى المستقبل وللزعماء ، وللحركات الوطنية والمقاومة الشعبية .

فهل يمكن صياغة أحكام السوق كما ورثناها من القدماء طبقا لظروف العصر الذى نعيش فيه ؟ هل نكتفى بالصلوات واقامة الشعائر فى المساجد والزوايا داعين الله النجاة وراغبين فى الآخرة وساعين الى الجنة وسط الاسواق أم ننظف الاسواق ونجعلها قابلة لاحكام الشرع ؟ وهل الدين فى شعائر الزوايا أم فى شرائع الاسواق ؟

معارك اليمين واليسار فى الفكر الدينى

(أ) عندما يزايد اليمين فى الوطنية ... والدين ! !

ردا على ما نشر بصفحة (الرأى للشـعب) بجريدة الاخبار بتاريخ ١٩٧٦/٤/٢٥ بعنوان : (عندما يرفع تنظيم اليسار المصحف والانجيل) بقلم الاستاذ أحمد موسى سالم نقول : (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) .

وكيف لم يذكر اليسار كلمة الله وقد بدأ مشروع برنامج التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى كله بالآية الكريمة « باسم الله الرحمن الرحيم » ؟ وهل كل من ذكر كلمة الله قد نال الايمان أو أخذ بها صكا الجنـة ؟

ألا يعلم الاخ الكريم أن النطق بالشهادتين وان جعل صاحبها مسلما فانه لا يكفى أن يجعله مؤمنا أو محسنا لان ذلك لابد له من التصديق بالقلب والعمل بأوامر الله ؟ « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » ؟

وكثير ممن يذكرون اسم الله اليوم يتاجرون بـه ويأخذونه

الاخبار ٦ / ١٩٧٦ .

شعارا للمزايدة وستارا للابقاء على الاوضاع القــائمة أو لتبرير السلطة أو لخدمة الامير أو طلبا لشهرة أو بحثا عن منصب • ولقد « كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذبا » • الا يعلم الاخ الكريم ان الحديث عن الله فى علم أصول الدين كله على وجــه التقريب ؟ وهل تذكر الشريعة الاسلامية كلمة الله أم تكتفى بلفظ « الشارع » ؟

وقد حرم فقهاء المسلمين ومتكلموهم وعلى رأسهم أبو حنيفة والشافعى وابن حنبل الحديث فى الله ، كما حرم ابن حزم وصفه بذات أو بصفة ، ولا يفعل ذلك الا مدع مزايدا لا يرعى للفظ حرمة ولا للاسم قدسية •

وهل كان اليسار أبدا موضع شبهة وقد كانت الاديان كلها بلا استثناء دعوات يسارية من أجل تغيير الوضع القائم الى وضع أفضل أقرب الى التقوى الباطنية والعدالة الاجتماعية وأرعى لروح الاخوة والمساواة والتراحم ؟

وكيف أكرر ما علمناه دواما وما لا يحتاج الى اثبات من اشتراكية الاسلام ؟ فرسالات السماء كلها دعوات تقديمة ، ولا يوجد نبى الا وله هذه الدعوة للتغيير والاصلاح الاجتماعى فى بنى قومه •

واليسار تجمع لكل القوى الوطنية والتقدمية بما فيها اليســـار الماركسى ، واليسار الدينى ، واليسار الليبرالى ، واليسار الوطنى ، واليسار التلقائى ، ويسار المثقفين • واليسار الدينى يكاد يكون هو القاسم المشترك بين جميع قوى اليسار بما فيها اليسار الماكسى ،

فالدين عند ماركس كما يمكن استغلاله بواسطة الطبقات الغنية من أجل استغلال الطبقات الفقيرة فانه يمكن أيضا مساعدة الطبقات الفقيرة على التحرر الاجتماعى كما عرض ذلك انجلز فى « المسيحية البدائية » وكما عرض لذلك فى « حرب الفلاحين فى ألمانيا فى القرن السادس عشر » بقيادة الراهب البروتستانتى توماس مونزر الذى قاد الفلاحين ضد امراء الاقطاع باسم الله . وهل كان عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعمر بن عبد العزيز ، وأبو ذر الغفارى ، وجمال الدين الافغانى ، الا من دعاة اليسار ؟ ليس اليسار اذن مناخا ماركسيا بل الماركسية هى مناخ يسارى ، فاليسار أعم وأشمل ، والماركسية احدى قــواه .

واذا كانت الماركسية تحليلا علميا للواقع فانها نهاية المطاف ، واذا كان الاسلام تحليلا علميا للواقع فهو أيضا نهاية المطاف ، فالنظرة العلمية للواقع هى الاقدر على اصهار قوى اليسار فيها ، والنظرة الاشمل والاكمل هى أكثر النظرات علمية ، فالمحك ليس هو الشعار بل مقدار صدق الفكر فى الواقع بالتحليل والتغيير . والباب مفتوح لكل المذاهب والافكار .

وكيف لا تعنى هذه الكلمات أى معنى : الرسالات ، النظـرة العقلانية ، الاستنارة ، الطـاقة الخلاقة ، الاجتهاد ، الشـورى ، الديمقراطية ، المنهج العلمى ، حرية الاعتقاد ، تحرير الضمير الانسانى، التكافل الاجتماعى ؟ فأى معنى اذن تشير اليه الكلمات ؟ أليس مثل هذه الكلمات ، ما أصبح فيما بعد علم أصول الدين أو علم التوحيد ؟ ألا يهتز لها وجدان الناس عند سماعها ؟ ألا تعبر عن مطالب عصرنا واحتياجاته ؟ وهل يعيب الفكر استعماله أكثر الكلمات شـيوعا بين

الناس ؟ ومنذ متى كان الفكر ادعاء وتعالما واتيانا بغريب الالفاظ ؟ اذا أتى اليسار بالسهل قيل لا معنى له وشائع واذا أتى بالصعب قيل ادعاء وتعالم وجدل ! كيف تموت هذه الكلمات كلها أو لا تعطى التزاما محددا ؟ أليست الشورى والديمقراطية ضد كل مظاهر التسلط والطغيان ، وهو ما عانينا منه كثيرا ؟ أليس الانتصار للعقل ضد كل مظاهر الخرافة فى فكرنا القومي وحياتنا العامة وسلوكنا اليومى ؟ أليس المنهج العلمى فى البحث والتفكير ضد أساليب الايهام والخداع وطرق الشعوذة والسحر والكهانة التى مازالت تسيطر على قطاعات عديدة من جماهيرنا ؟ أليست حرية الاعتقاد تحريرا للضمير الانسانى ضد كل مظاهر الارهاب الفكرى والقسر العقائدى والتعصب الطائفى الذى تتساقط من جرائه المئات كل يوم ؟ أليست الوحدة الوطنية ضد مظاهر التفرقة ودعاة الفتن وفتاوى اهدار الدماء وحرق الدور وقتل الابرياء ؟ أليس استلهام الشريعة الاسلامية كمصدر أساسى للتشريع ضد استعارة القوانين وقصورها عن الدفاع عن مصالح الناس ، وضد الفهم الضيق للشريعة وقصرها على قانون العقوبات ؟ أليس التكافل الاجتماعى بين أبناء الامة الواحدة ضد الاستغلال والتفاوت الطبقى بين الاغنياء والفقراء وهو ما نادت به رسالات السماء ومازلنا نسعى الى تحقيقه ؟ كل ذلك ليس له معنى ، وكلمات تموت « تنساب كالظل ، وتومىء كالسراب » وكان الانسان ان لم يناد بقطع يد السارق ورجم الزانى وتحريم الخمور لا يكون لكلماته أى معنى ، ولا يكون مسلما ! •

وكيف لم يؤخذ هذا الفهم للدين وللتراث ركيزة لبرنامج اليسار ؟ أليست الديمقراطية نابعة من الشورى ؟ أليست التنمية هى السبيل

العدالة الاجتماعية ؟ أليس القطاع العام منعا للاحتكار والاستغلال وتحقيقا للملكية العامة لوسائل الانتاج كما دعا الرسول ؟

أليس التعاون تحقيقا لاوامر الله ؟ أليس التعليم تنفيذا لاوامر الدين ؟ أليس تحرير الارض جهادا مقدسا ، وواجبا على كل مسلم ومسلمة ؟ أليس توحيد الامة العربية خطوة من أجل توحيد الامة الاسلامية ؟ أليست سياسة عدم الانحياز « لا شرقية ولا غربية » ؟ أليست شعوب آسيا وأفريقيا التى جسدها مؤتمر باندونج هى الشعوب الاسلامية باصطلاحات السياسة الدولية ؟ فى أى شىء يتراجع اليسار اذن عن الالتزام العملى بالدين ؟ ألا يفسر الدين من أجل صالح الاغلبية ، وهى جماهيرنا الفقيرة ؟ وما العيب أن يكون الايمان طاقة لصالح السلوك السوى ؟ أليست المصلحة أساس الشرع ؟ أليس رعاية الصلاح والاصلح أصلا من أصول الدين ؟

وما العيب فى أن تكون العقلانية هى السلطان أو الامام ؟ ألم يدع القرآن الى العقل ؟ ولماذا يكون معناها عند ديكارت أو سبينوزا ولا يكون معناها فى القرآن الكريم « ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » أو يكون معناها فى تراثنا الاعتزالى ، النظر والبحث والتفكير ؟ وما العيب فى أن نحتكم للعقل فى أمور الدين ؟ ألم يتفق علماء أصول الدين المسلمون على أن الحجج النقلية كلها حتى ولو تضافرت ظنية وأنها لا تكون يقينا الا بالحجة العقلية ؟ ألم يتفق علماء أصول الدين من المعتزلة على أن العقل هو أساس النقل ؟ ألم يقل فقهاء المسلمين وعلى رأسهم ابن تيمية السلفى بموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ، وأن القدح فى العقل قدح فى النقل ؟

ان عقلانية ديكارت لا تحتاج الى مدد من السماء وأن ديكارت لم يستعمل هذه الالفاظ الا حرجا من رجال الدين المسيحى • أما فى الاسلام فلا حرج من أن يكون العقل هو مقياس الحق والباطل • أما عقلانية سبينوزا فهى عقلانية المعتزلة والطبائعيين وعلى رأسهم معمر وثمامة والنظام والجاحظ ، العقل الذى يتفق مع قوانين الطبيعة • أما العقلانية الماركسية فهى أيضا عقلانية علماء أصول الدين التى فيها يكون العقل مرتبطا بالحس والتجربة ، وهى عقلانية علماء المسلمين وأهل التجريب منهم • وكيف لم تعكس التجربة وجود الله ؟ ألم يقل الفلاسفة بامكانية الحدس والاتصال المباشر بالحقائق ؟ ألم يتحدث العلماء عن مستقبل الانسان وعن أن الرغبة فى عالم أفضل هى أهم ما يميز الانسان بتجاوزه وتعاليه ومفارقته ؟ ان العقلانية ليست مفهوما ماركسيا بل ان الماركسية هى أحد المفاهيم العقلانية ، فالعقلانية هى أساس الوحى ، ودعامة تراثنا ، وهى ما نرجو أن نرسى عليه حياتنا •

وما العيب فى أن يكون تراثنا الدينى جهدا بشريا عبقريا صنعه أعلام تاريخنا فى اطار التعاليم الكلية والعامة للدين الحنيف ، ان التراث شىء والوحى شىء آخر • الوحى من عند الله أما التراث فهو من صنع علماء المسلمين واجتهاداتهم ، فالمزايدة على نسبة الوحى الى الله اهدار لقيمة الوحى الاسلامى الذى هو من عند الله وفى نفس الوقت تلبية لمطالب الناس • وما العيب فى أن يكون التراث صورة من صور « عبقرية أمتنا أسهمت بها فى اضافة صفحات مشرقة الى التراث الانسانى الموحد العظيم » ؟ أليس تراثنا جزءا من تراث طويل هو التراث السامى القديم ، أقدم صور التراث وأشملها ؟ أليس الوحى

الاسلامى آخر مراحل الوحى منذ آدم عليه السلام حتى محمد عليه الصلاة والسلام ؟

وهل كل من يدافع عن الامة العربية لغة وثقافة وتراثا وحضارة وتاريخا وعبقرية يكون بعثيا ؟ ألم يفخر نبينا بأنه عربى وبأن لسانه عربى ؟ ألم ينزل الوحى بلسان عربى مبين ؟ وهل لو كانت مصر فى علاقة طيبة مع البعث أكان يصبح كل شعور عربى تهمة بعثية ؟ ان استعلاء السلطة على اليسار أمر مكشوف من السلطة ومن الجماهير معا ، ولا ينقلب الا على خدام السلطة وجلاديها . والذى يمن على اليسار بالحرية هو متملق للسلطة وفى نفس الوقت يستعدى السلطة عليه ، وبالتالى فهو لا يؤمن بالحرية ويستكثرها على الناس ويشمئز من تمتع الناس بها .

« ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا » .

(ب) لسنا ملحدين ... ولا منافقين :

ردا على السؤال الذى وجهه الى اليسار الاخ أحمد موسى سالم :
« ان كنتم مؤمنين فأين هو البرهان ؟ وان كنتم ملحدين فلماذا النفاق ؟ »
الذي نشر بجريدة الاخبار فى صفحة « الرأى للشعب » بتاريخ ١٩٧٦/٦/٧ أقول : لم يكن ردى قذيفة عشوائية موجهة الى شخص بعينه بل كان لوضع حد لحملة تشويه اليسار ، واتهامه ظلما بالالحاد والمادية والعمالة .

ولا يتوتر اليسار أبدا بل أنه يقابل هذه الحملة بالحسنى ، ويدفع بالتى هى أحسن . ولم يبدأ اليسار أحدا بالعدوان ، ويكتفى بالرد فلا يتوتر العقليون ، واليسار أصحاب اتجاه عقلانى ، لا ينفعلون .

ولا يلبس اليسار جبة الورع لان التقوى لا تحتاج الى لباس ، ولا يسبل عينيه بل يفتحهما على ما يدور تحت قدميه ، ولا يضم المصحف الى صدره بل يحوله الى برنامج يقدمه للناس ، ولا يمنى عمال مصر وفلاحيها بل يزيدهم وعيا ، ويطالب بحقوقهم ، لما كانوا هم الاغلبية ، أصحاب المصلحة الحقيقية . فاليسار لا يحتاج الى أقنعة لانه لا ينافق ، ولا يدعى ايمانا أكثر مما لديه ، ولا يزايد على ايمان الآخرين ، « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » .

والآية الكريمة « بسم الله الرحمن الرحيم » فاتحة الكتاب ،

الاخبار ١٩٧٦/٧/٥ وقد صدرته بعنوان « جواب الى اليمين » .

مذكورة فى أول مشروع برنامج اليسار ، ولكنها سقطت خطأ من الطبعة التى بين يدى الاخ الكريم • كما أنها تحتوى على خطأ آخر فى آخرها باضافة توقيع مقرر التنظيم ، فللأخ العذر فيما بين يديه •

وأين هى كتب اليسار ومقالاته التى تهاجم حقائق الاسـلام والدين ، ومبدأ القومية العربية التى أسسها الدين والتى يدافع عنها الاخ اليوم بعد أن أنكرها بالامس ؟ اذا كان المقصـود هو « الفن القصصى فى القرآن الكريم » فانه تطوير لنظرية « التخييل » التى قال بها الجرجانى وعلماء البلاغة قديما والتى تهدف الى التركيز على البعد الأدبى والنفسى للقصص القرآنى ، وأن الغاية منه ليست اعطاء أخبار من مضى بل أخذ العبرة والموعظة من أجل توجيه السلوك ، وهى نظرية معمول بها ليس فقط فى تراثنا القديم بل فى الفكر الدينى العام وفى مناهج تفسير النصوص • واذا كان القصد هو اعطاء الاسـس الاقتصادية للقومية العربية فكلنا اذن ملحدون ، شعوبا وقادة ، عندما نبنى المصلحة المشتركة التى هى دعامة الوحدة العربية بالاضافة الى دعائم الدين واللغة والتاريخ والحضارة • فاذا ركز الخطباء على العـوامل الوجدانية فما العيـب فى أن يركز العلماء على العوامل الاقتصادية ويستعملون لغة الارقام ؟ وفى النهاية ، كل ذلك اجتهاد ورأى لا يحل لأحد تكفير قائله « ومن قال لأخيـه أنت كافر ، فقد باء بها » •

ولا تخش على الدين شيئا ، « ان هذا الدين متين فأوغل فيـه برفق » ، فلن يستطيع أحد هدمه أو النيل منه •

واذا كان الماركسيون فى الغرب قد طبقوا مقاييس العقل والتجربة فألحدوا فلأنهم قد تصوروا الله مشخصا ، ورأوا تسلط كنائسهم ،

وظنية عقائدهم ، ومراسيم شعائرهم • والحمد لله لسـنا كذلك لاننا نطبق نفس المقياس : العقل والتجربة ونؤمن • فالله منزه ، ليس كمثله شىء ، وكتابنا صحيح ، وليس لدينا رجال دين ، وايماننا قائم على التصديق ، وعبادتنا تنهى عن الفحشاء والمنكر •

ليس اليسار غارقا فى تيه الايديولوجيات الغربيـة ، بل يربط حاضره بماضيه ، ويفسر تراثنا وديننا طبقا لحاجات عصرنا : التنمية من أجل القضاء على التخلف ، والاستقلال الوطنى من أجل القضاء على الاحتلال ، والعدالة الاجتماعية من أجل القضاء على الاستغلال • نتأسى بالرسول ، ونهتدى بسيرة عمر بن الخطاب ، وبفقه عبد الله بن مسعود ، وندعو دعوة أبى ذر ، ونصلح كالأفغانى •

فنحن لسنا ملحدين ولا منافقين بل نحن مؤمنون ، واليك يا أخى البرهان •• يكاد يجمع اليسار بكل اتجاهاته على مبادىء خمسة ، هى الحد الادنى من الاتفاق فيما بينهم يرضاها الاسلام ، وتعبر عن مصلحة المسلمين وهى :

١ — عدم التسليم بالأمر الواقع ، والدعوة الى تغييره الى واقع أفضل وما أظن أحدا منا يرضى بالأوضاع القائمة أو لا يرجو تغييرها الى أوضاع أفضل • وقد أتى جميع الأنبياء لذلك فقد كان لكل نبى دعوة اصلاحية فى قومه ، يدعوهم الى التغيير •

٢ — الحكم للاغلبية ولصالحها ، فاذا كانت الأغلبية فى مصر هم العمال والفلاحين ، فالحكم لهم ويتم تخطيط الاقتصـاد القـومى لصالحهم • وهل فى هذا خـروج على أوامر الدين أو ترك لشريعة

الاسلام ؟ ألم يقم الشرع على الحفاظ على مصلحة المسلمين ؟ ألم يرفض القرآن تركيز رأس المال كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ؟ ألم يدع الرسول : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين ؟ » وهل مجلس الشعب بنصفه من العمال والفلاحين مجلس ماركسى ؟ وماذا نقول اذا كان من حق الأغلبية ثلاثة أرباع المجلس بما أنهم يكونون ثلاثة أرباع الشعب ؟

٣ — الملكية العامة لوسائل الانتاج وذلك منعا للاستغلال والاحتكار . ألم يقل الرسول : « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلا والنار » ؟ أليس تأميم المرافق العامة ، ومصادرة المال المستغل من حق امام المسلمين ؟ وهل قطاعنا العام خروج على مبادىء الاسلام ؟ ألم يؤكد الاسلام الملكية العامة وجعلها صفة لله « ولله ملك السموات والأرض » دون الانسان ؟

٤ — اذابة الفوارق بين الطبقات ، وذلك طبقا لقول الرسول . « أيما أهل عرصة (بقعة واسعة من الأرض) أصبح فيهم امرؤ جائعا برئت منهم ذمة الله » . ألم يقسم الانصار والمهاجرون أموالهم فيما بينهم ؟ ألم يقل القرآن « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ليس فقط الزكاة ولكن أكثر من الزكاة كما شرح الرسول » نعم ، فى المال حق غير الزكاة » ؟ ألم يعد عمر برد فضول الأغنياء الى الفقراء اذا ما انقضى الحول ؟

٥ — العمل وحده مصدر القيمة ، وذلك رفض لكل صور النبل

الاجتماعى ، والشرف الوراثى ، وكل مظاهر الربا . فالمال لا يولد المال ، ولكن العمل هو الذى يولد المال . ألم يقل الرسول : « أعطوا العامل أجره قبل أن يجف عرقه » ؟ ألم ينه الرسول عن المؤاجرة ، وأمر بالمزراعة أى أن يمتلك الرجل الأرض ويقعد فى بيته ويترك العامل الأجير يعمل له ثم يقاسمه الانتاج دون مشاركة منه فى الجهد ؟ وهل منا من يرضى بنظام الأجور فى مصر الذى ما زال يعطى المديرين أكثر مما يعطى العمال بفروق صارخة ؟

أما فيما وراء ذلك من أطر نظرية فمتروك لكل انسان بينه وبين ربه ، فهلا شققنا على قلوب الناس ؟ والله يتولى السرائر .

أيها الأخ الكريم ، مضمون ايماننا مضمون اجتماعى كما هو الحال فى الشريعة الاسلامية وفى حركاتنا الاصلاحية الحديثة وعلى رأسها الافغانى . وها هو برهاننا . فاذا كنت ترى أننا بعد ذلك ملحدون أو منافقون فليسامحك الله ، « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » .

(ج) تشويه الماركسية من العقلية اليمينية فى الصحافة المصرية :

ان أسوأ موقف لمفكر هو تشويه الحقائق وسوء تأويل المذاهب عن قصد أو عن غير قصد ومثال ذلك ما تتناقله أجهـزة الاعلام عن الماركسية بغية ابعاد الشعب عن الاشتراكية . وهو نقص فى الأمانة الفكرية ، وخوف من التغير الاجتماعى الذى يؤدى الى ضياع المصالح الخاصة وفقدان السلطة ومن أجل كشف هذه المواقف يمكن توضيح الحقائق الآتية :

١ ــ هل الماركسية فى مصر هى حصان طروادة أو هى كبش الفداء أو هى المشجب الذى يعلق اليمين عليها كل مآسى الناس ، وهى الأخطبوط الذى يتم تحذير الناس منه ، ابقاء على الأوضاع القائمة ، ورفضا لوعى الناس وتفكيرهم فى أوضاعهم الاجتماعية باسم الدين وباسم الوطنية وتحذيرا من الالحاد والعمالة ؟

٢ ــ الماركسية ليست موضة للشباب مثل المذاهب الفلسفية أو الفنية : وجودية ، بنائية ، انطباعية ، تكعيبية ... الخ بل هى نظرة علمية للواقع . المذاهب أيديولوجيا والماركسية علم .

٣ ــ الأمل الذى تعد به الفلسـفات الماركسـية تعد به كل

كتب هذا المقال ايضا وقت هجوم الاخ احمد موسى سالم على صفحات « الاخبار » على الماركسية واتهام حزب « التجمع » بأنه ماركسى ابان الانتخابات لمجلس الشعب عام ١٩٧٦ ، ولم يستأنف الحوار . فالمقصود هو التشويش من الخصوم وليس التصحيح . وهذه صياغة ثانيـة من المسودة الاولى ، كتبت فى خريف ١٩٨٧ .

الطوباويات بما فى ذلك الأديان . فهذا تعبير عن وضع الانسان وانفتاحه على المستقبل ، وليس خداعا أو ايهاما . ويمكن دراسة الأمل دراسة علمية كما هو الحال فى ماركسيات القرن العشرين عند بلوخ فى « مبدأ الأمل » وعند جابريل مارسل فى « محاولة فى ميتافيزيقا الأمل » .

٤ ــ موسكو لا شأن لها بالماركسية ، وهناك تطبيقات ماركسية عديدة لا شأن لها بموسكو مثل التطبيقات الماركسية فى الصين ويوغوسلافيا وفيتنام وكوبا . بل نشأت الخلافات فى المعسكر الاشتراكى كما نشأت الخلافات من قبل فى المعسكر الاسلامى ، وتم رفض فكرة المحاور ، فنشأت ماركسيات تدافع عن الاستقلال الوطنى والتسيير الذاتى ، والاعتماد على النفس .

٥ ــ الخراب والبؤس فى البلاد الاشتراكية فى الخمسينات من أثار الحرب العالمية الثانية ولا ضير أن تستمر بعض آثاره الى الآن فى ألمانيا الشرقية وفى بعض بلدان أوربا الشرقية وفى الاتحاد السوفيتى نفسه ، وقد كان نفس البؤس فى ألمانيا لولا رأس المال الأمريكى فى اعادة البناء . هذا بالاضافة الى أن حجة الواقع ليست حجة على الفكر والا كان كل الفقر فى بلاد الاسلام حجة على أن الاسلام دين الفقر ، وكان الاحتلال لبلاد الاسلام حجة على أن الاسلام دين الاحتلال ، وكان التخلف فى المجتمعات الاسلامية دليلا على أن الاسلام دين التخلف .

٦ ــ مما لا شك فيه أن هناك تجاوزات فى كل نظام سياسى مثل مظالم ستالين والتى لا تفترق عن « ووترجيت » و « وايران جيت » فى النظام الأمريكى واغتيال كنيدى ومارتن لوثر كنج . لذلك خرجت

ماركسيات القرن العشرين ترى أن الماركســـية هدف والديموقراطية وسيلة • ولقد ضحى رئيس جمهورية شيلى « الليندى » بحياته دفاعا عن الديمقراطية باسم الماركسية • والامر كذلك فى فيتنام أثناء حرب التحرير وفى كوبا ويوغسلافيا وغيرها من البلدان الاشتراكية •

٧ — أن « تحشيد » الجماهير لا يعبر عن حقد أو ضغينة بل مجرد تعبئة الناس كسند لحقوقهم اذا ما عصت قوى الظلم والطغيان ، وعجزت القيادات الثورية عن مواجهتها • فالنظام السياسى يتجسد فى الجماهير التى تنعكس عليها كل التناقضات الاجتماعية والتى يمكن حلها بتفجير هذه التناقضات كما حدث بين المؤمنين والكفار وبين المسلمين والروم ، وبين المسلمين والفرس ، ولولا دفع اللـــه الناس بعضهم ببعض لفسدت السموات والأرض » (٢ : ٢٥١) •

ويمكن أيضا حلها فى اطار « السلام الاجتماعى » عن طريق قوة الاغلبية فى مواجهة الاقلية المتراجعة • فكلا النموذجين موجـــودان تاريخيا ، « انا فتحنا لك فتحا مبينا » (٤٨ : ١) •

٨ — مراحل التاريخ الخمسة هى جزء من الأيديولوجيا وليست من العلم ، وهى أضعف ما فى الماركسية ومرتبطة بمحاولات مشابهة فى فلسفة التاريخ فى القرن التاسع عشر عند هيجل وكومت • وهى من أفكار ماركس الشاب أى ماركس الفيلسوف وليس ماركس العالم •

٩ — ان القول بأن القضاء على الأديان من مخطط ماركس انما هو اقتباس نصف قول مشهور له « الدين أفيون الشعب ، وصرخة المضطهدين » واستعمالها مثل « ولا تقربوا الصلاة » • فالدين قد يكون عاملا للتسكين والتخدير وقد يكون أيضا دافعا للثورة والتحـــرير •

فالدين يقوم بالوظيفتين معا . وهو ينطبق على تاريخ الدين فى الغرب ووظيفة الدين كما قامت به السلطة الدينية الممثلة فى الكنيسة ووظيفة الدين التى قام بها المصلحون مثل لوثر ، والمفكرون الأحرار مثل فولتير ، والقادة الاجتماعيون مثل توماس مونزر فى حرب الفلاحين فى ألمانيا فى القرن السادس عشر ، وكما يفعل الرهبان الكاثوليك فى أمريكا اللاتينية الآن فيما يعرف باسم « لاهوت التحرر » . ان الكنائس والمساجد لا تهدم بل تبقى ويحافظ عليها وترمم كجزء من التراث الوطنى والتاريخ الثقافى للشعوب . والصلاة لله فى كل مكان « وأينما تولوا فثم وجه الله » (٢ : ١١٥) ، « جعلت لى الارض مسجدا طهورا » . أما هدم المساجد والكنائس ، واحراق الأناجيل والمصاحف واعتقال رجال الدين والغاء التربية الدينية لصالح التربية القومية ، وتدريس الالحاد فانها كلها أحكام تقوم على تصور خاطىء للدين وللماركسية على حد سواء الغرض منها تنفير الناس . فالدين ليس مساجد أو كنائس أو أناجيل ومصاحف أو رجال دين أو برامج دينية تعليمية . الدين هو الحياة والمجتمع والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . فبناء المدارس والمصانع والمستشفيات من الدين ، ونشر الكتب والتأليف الابداعى من الدين . ولا يوجد رجال دين بل مواطنون لهم مواقف اجتماعية فى صالح الأغلبية وليسوا مبررين للاقطاع والسلطان . والتربية الدينية هى التربية القومية فالدين للوطن ، وما يظن أنه الالحاد هو فى الغرب بديل عن الاسطورة ، وعلم فى مواجهة الخرافة . ان مثل هذه الشائعات القصد منها الترويج العداء الى النظم الاشتراكية اعتمادا على الفهم الشعائرى من الناس للدين .

وبالاضافة الى هذا التشويش والخلط تتهم الماركسية فى أجهزة

الاعلام وبأقلام اليمين حتى يمكن محاصرة الاشتراكية والاستمرار فى التحول فى التوجه الوطنى لمصر من اشتراكية الستينات الى انفتاح السبعينات فيقال أن ماركس له أخطاء ست :

١ — الاعتماد على بعض المراحل التاريخية دون البعض ، وهذا بطبيعة الدراسة التى كانت متاحة فى القرن الماضى لتاريخ المجتمعات الصناعية فى ألمانيا وانجلترا وفرنسا • لم يدرس ماركس أسسها الا لماما فيما عرف عنه باسم « نمط الانتاج الآسيوى » والذى تم الرد عليه من الماركسيين أنفسهم قبل الرأسماليين • ولكن يمكن أخذ نماذج أخرى من تاريخ سائر المجتمعات شرقا وغربا • فقد جاء الإسلام كدين للمضطهدين • انتسب اليه العبيد والفقراء والمساكين ، وعاداه أشراف مكة وأغنياؤها • جاء الاسلام لتغيير قيم المجتمع والانتاج • لم يأت كظاهرة فوقية بدليل أسباب النزول والتطور مع الزمان بدليل الناسخ والمنسوخ ، ولم يأمر ويشرع بصرف النظر عن القدرة والأهلية • الاسلام بحث فى الواقع ، مثل أنماط الانتاج ، وعلاقات الانتاج ، ووسائل الانتاج • وقد سمى الأصوليون القدماء ذلك البحث فى العلل ، والعلل المادية المؤثرة والملائمة والمناسبة •

٢ — التناقض بين الدعوة الى التضحية والحرمان من الحافز الدينى والمبدأ الروحى • وهذا التصور الخاطىء للماركسية انما يقوم فى الحقيقة على تصور خاطىء للدين والروح ، والخلط بين الروحانية الفارغة أو الروحانية العرجاء وبين الروحانية الفعالة أو الروحانية المؤثرة • كما أنه يقوم على تصور خاطىء للماركسية واعتبارها مادية فى حين أنها تعلى من شأن تضحية الفرد فى سبيل الجماعة وتقدس العمل ، وتدافع عن الأوطان ، وتحرم الاستغلال والاحتكار ، وهى كلها

قيم اسلامية • فالماركسية ليست أكثر مادية من مادية الرأسمالية ، على الاقل المادية الماركسية بحث فى العلل المادية كما فعل الاصوليون القدماء • ولكنها روحية من حيث قيم التضحية والعدالة والمساواة • وهل كان جيفارا وهوشى منه وماو تسى تونج ماديين ؟ أمـا المادية الرأسمالية فهى مقنعة ومغطاة تحت زيف من النفاق الدينى والمثالى وادعاء الروحية • وهل مقياس التدين هو الايمان بالغيبيات مثل أمور المعاد وهى التى تركها الأصوليون القدماء ظنية نظرا لاعتمادها على السمع وحده أم الايمان باليقينيات مثل الذات والصفات وحرية الارادة واستقلال العقل وهى الامور اليقينية التى يمكن البرهنة على صحتها ويقينها بالعقل ؟ أليس العمل على تحرير الأرض جزء من الايمان بالله فالله هو « اله السموات والأرض » ، « رب السموات والأرض » ، « وهو الذى فى السماء اله وفى الأرض اله » ؟ لماذا يكون ذلك صلحا انتهازيا بين الاسلام والماركسية ولا يكون موقف الخصم صلحا نفعيا بين الاسلام والرأسمالية ؟

٣ ــ التفسير المادى للتاريخ وبعامل واحد هو العامل الاقتصادى • وهذا ان كان صحيحا فانه ينطبق على ماركسية القرن التاسع عشر • أما فى ماركسيات القرن العشرين والتى تجد أيضا مصادرها فى كتابات ماركس وفى تأويلات لينين وماو هناك جدل بين البنيتين الفوقية والتحتية ، وأثر متبادل بينهما وأن العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية والحضارية لا تقل فاعلية وأهمية عن العوامل الاقتصادية • وهذه أيضا مساهمات الماركسيات المتعددة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية •

٤ ــ دكتاتورية البروليتاريا • وهذه فكرة شائعة روجتها أجهزة

الاعلام الغربية أيضا • صحيح أنه حدثت مناقشات حولها لدى أقطاب الماركسية فى القرن الماضى ولكنها ظلت قضية خلافية • انما الشائع أيضا والذى يستند الى مساهمات ماركسيات القرن العشرين هو تحالف قوى الشعب ، تجمع القوى الوطنيـــة والتقدمية ، وهو ليس حكرا على الماركسية بل موجود فى كل المجتمعات المضطهدة بما فى ذلك الشيعة • فالمظلوم سيكون له المستقبل بتحرره من الظلم وانتصاره على الظالم • ليست البروليتاريا طبقة قاهرة • وكيف تكون قاهرة ، ومتى تكون وهى أغلبية الشعب العامل ؟ لم تعد طبقة البروليتاريا من العمال وحدهم كما كان الحال فى القرن الماضى بل ضمت أيضا الفلاحين (ماو) والطلبة (ماركوزة) بل والجيوش (الثورات الوطنية فى العالم الثالث) • فالأطر النظرية للماركسية كثيرة ومتعددة بل وتصل الاختلافات بينها الى حد التضارب والتناقض ومع ذلك تظل الماركسية كدليل للعمـــل الثورى • تتغير الاطر النظرية حسب الثقافات والعصـــور ومراحل التاريخ فى حين يبقى العمل الثورى كبرنامج وطنى موحد يقوم على الاستقلال الوطنى •

٥ ـــ حتمية القوانين • والحقيقة أن هذا تصور القرن التاسع عشر للقانون العلمى والقانون التاريخى ، وفى ماركسيات القرن العشرين هناك الماركسية البرجسونية عند جارودى ، وامكانية القفـــز على المراحل ، وعدم رفض تصورات الطفرة والكمون والمفاهيم الحيوية • وان تطعيم الرأسمالية بالاشتراكية والاشتراكية ببعض مظاهر النشاط الاقتصادى الحر لا يعنى الغاء التناقض بين النظامين بل اقرار الحق ومحاولة ايجاد نظام متكامل ومتوازن • وان محاولات الرأسمالية للانتعاش ليس تفتيتا للرأسمالية بل تركيز لها وتقوية لبنيتها كما هو حادث فى الشركات المتعددة الجنسيات • وان أزمات الرأسمالية ليست

ذات طابع عرضى بل تدخل فى صميم النظام الرأسمالى ، وان ارتفاع أجور العمال فى المجتمع الرأسمالى وتحول العمال الى طبقة متوسطة وخروجهم عن مفهوم الطبقة الكادحة لا يعنى عدم وجود تفاوت ضخم فى الدخول بين العمال وأصحاب رؤوس الأمــوال • وان محاولات الحوار من النظم الاشتراكية مع النظم الرأسمالية لا تعنى أى تنازل عقائدى عن الاشتراكية بل رعاية لمصالح البشر وحرصا على السلام العــالمى •

٦ ـــ هبوط الانتاج بعد اجراءات التأميم • والحقيقة أن التأميم فى حد ذاته ليس مسؤولا عن هبوط الانتاج بل المسؤول عن ذلك سوء الادارة ، والبيروقراطية وعدم وعى العمال بدور القطاع العام وأسباب أخرى كثيرة معروفة لدى علماء الادارة العامة • وهى كلها ظــواهر عارضة لا تمس جوهر التأميم من حيث كونه وسيلة لسيطرة الشعب على وسائل الانتاج ، وتدخل الدولة لحماية الطبقات الكادحة ومحدودى الدخل وصغار الموظفين • ان الدولة القوية التى تقوم على التخطيط وعلى التوجيه الاقتصادى لقادرة على الصمود أمام مخاطر الأحلاف الاجنبية بالاعتماد على مــوارد الدولة والسـيطرة عليهــا • أن التأميم أحــد مظــاهر السـيادة الوطنيــة حتى فى أعتى البــلاد الرأسمالية • وهو وسيلة للنضال الوطنى كما حدث فى تأميم قنــاة السويس فى مصر ١٩٥٦ وفى تأميم البترول بعد الثروات العربية • والتأميم لا يعنى سيطرة الدولة على الفكر والفن والثقافة وتوجيهها نحو الرأى الواحد فذلك نقل للمعنى الحقيقى للفظ التأميم الى معنى مجازى بلا قرائن ولا أدلة ولكن للتشهير وتشويه السمعة • الابداع الثقافى شرطه الحرية فى حين أن الانتاج الاقتصــادى شرطه توجيه

الدولة • وهل كان أدب جوركى وتشيكوف سجنا ؟ ليس التأميم سدا لأبواب الرزق بل هو عدالة فى الأجور وتحقيق لمسؤولية الدولة فى توظيف الخريجين وحماية العمالة الوطنية • ولماذا لا يسقط عرش رأس المال أو يحد من رغبات الأفراد فى الاستغلال ، وتسيير الأمور ذاتيا بفعل الجماعة ؟ ان سوء التطبيق لنظرية ما لا يعنى بالضرورة خللا فى النظرية ذاتها بل فى كيفيـــة تطبيقها • ولو صح ذلك لكانت حياة المسلمين وما يحدث فيها من مآسى حجة ضد الاسلام وليس له !

وختاما يمكن توضيح عدة حقائق :

١ ـــ ان من أخطر الأمور فى شؤون الثقافة هو غزو ثقافة مهيمنة لأخرى وبالتالى تفكير الثقافة المغزوة بقوالب الثقافة الغازية • والمثل على ذلك تفكير اليمين وتصور للماركسية والتعبير عن ذلك فى أجهزة الاعلام • فكل ما يتعلق بالدين ، والكنيسة وتاريخ الصراع بين الدين والعلم ، بين الدين والمجتمع الى آخر ما هو معروف من تاريخ الغرب لا شأن للاسلام به • واذا قيل أن الدين أفيون الشعب فى الغرب أو أنه خدعة أو أنه سيزول لا محالة (جويو) أو أنه وهم (فرويد) فان ذلك يشير الى حالة خاصة فى تطـــور الدين فى الغرب وليس الى كل الحالات • بل ان كل الاتجاهات المعارضـــة للدين فى الغرب هى فى الحقيقة مع الدين بمفهوم الاسلام أى مع العقل ، والعلم ، وحرية الانسان ، وعدالة التوزيع ، والمساواة فى الأمور وتقدم التاريخ •

٢ ـــ ان مفاهيم مثل المادية والروحية أيضا مثل مفهوم الدين قد تأتى من الثقافة الغالبة وتسيطر على الأذهان فى الثقافة المغلوبة • فالروح فى الثقافة الغالبة ضد المادة ، عرجاء ، صـــورية ، تستخدم

كستار وغطاء لاخفاء المادة وبالتالى تؤدى الى النفاق • وسرعان ما يتم رفضها الى المفهوم المضاد وهو المادة الحسية المباشرة الصريحة المعادية الروح والرافضة لها • أما فى الثقافة المغلوبة فقد لا توجد هذه الثنائية بين الروح والمادة بل توجد روح فعالة فى المادة وفى التاريخ ، ومادة نشطة خلاقة ومبدعة كما ظهر عند الصوفية فى التوحيد بين الحق والخلق ، وعند المتكلمين أصحاب الطبائع فى التوحيد بين المادة والروح فى نظريات الكمون والطفرة واستحالة تعرى الجواهر عن الأعراض بدون جوهر ، وعند الفلاسفة فى نظرية قدم العالم ، وعند الفقهاء فى البحث عن العلل المادية • فالمادية ليست ملحدة لأنها أساس تراثنا القديم • وهى تصور موجود فى كل تراث وليس فقط فى التراث الغربى • ومن ثم تصبح كل ثنائيات الفكر الغربى واشكالياته مثل : أيهما أسبق الروح أم المادة ؟ هل الروح خالق المادة أم المادة خالقة الروح ؟ تخص الفكر الغربى وحده دون غيره • الثنائية تضع سؤال العلاقة فى حين أن التوحيد يضع سؤال الفعل •

٣ — ليست القضية هى تطوير الماركسية وتطعيمها بحيث تكون أكثر اتفاقا مع روح العصر ، أو تسلل جديد للماركسية بحيث يسهل ترويجها لدى الشعوب النامية بل الأمر هو اقامة نهضة جذرية بتفسير الدين فى احدى وظيفتيه تفسيرا جذريا لما كانت الثورة احدى متطلبات العصر • وبالرغم من كون ذلك أيضا أحد جوانب ماركسيات القرن العشرين الا أنه بالنسبة لنا غير دال • ليس المقصود هو التوفيق بين الاسلام والماركسية بل فهم الاسلام بما يتفق وحاجة العصر الأولى فى التحرر والثورة • ليس المقصود هو اضفاء مسحة روحانية على الماركسية بل ابراز الجوانب الاجتماعية التى يتطلبها العصر فى الاسلام الذى ورثناه والذى غلبت عليه الشعائر والعبادات دون المقاصد

والمعاملات ، وهل يصعب على الانسان أن يكون مسلما ثائرا ، مؤمنا متحررا ، سلفيا مصلحا ؟ انها ليست انتقائية والا أعطينا الغرب أكثر مما يستحق ، وأعطينا أنفسنا أقل مما نستحق . فالثورة والعدالة الاجتماعية ليست حكرا على ماركس ولا الدفاع عن الأوضاع القائمة والتخلف سمة دائمة فى المسلمين .

٤ — والأغرب من ذلك كله هو الاسلام على الطريقة الرأسمالية ، وتفسير الكون كله من خلال التصور الرأسمالى للعالم ! فاليابان نهضت بعد هزيمتها بفضل الرأسمالية ومآثرها ، وكذلك ألمانيا وكأن رأس المال الغربى وما أداه من تبعية مطلقة من الدولتين للمعسكر الغربى لا وجود له ! والاسلام هو دفاع عن الأوضاع القائمة وليس حركة تغيير ، وكأن الاسلام يعود من جديد على أكتاف أشراف مكة وساداتها وليس تحريرا للعبيد ومساواة للفقراء ! والنشاط والحركة من الصفوة أى الأقلية النشطة وكأن الاسلام لم يأت لجماهير المسلمين ، ولعامة الناس ، وكأن الرسول لم يقل « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، وأحشرنى فى زمرة المساكين ! » والاسلام أتى ليؤكد الملكية الخاصة وحرية التجارة وكأن الاستخلاف ليس له ذكر ، وحق الامام فى التأميم والمصادرة لا وجود له ! ان الهجوم على الماركسية من اليمين فى أجهزة الاعلام يكشف عن النوايا : التشويه المقصود للاشتراكية والاظهار غير المقصود للعقلية الرأسمالية . والجماهير واعية فى كلتا الحالتين(١) .

---

(١) انظر فى هذا الجزء مقالنا « الدين والرأسماليه » .

(د) تشويه الحقائق ، واتهام الزور ، فأين المصلحة ؟

تحية للأخ الكريم أنه أزادنا علما بحديثه عن القنطور اليونانى « لاطلعت على شمس يوم لم أزدد فيه علما » • ولماذا القنطور اليونانى وأبو الهول فى مصر رابضيا بجوارنا ، يعطينا برأسه حكمة الانســـان وبجسده قوة الاسد ؟ يبدو أن الاغتراب الحضارى أصبح هو الموجه لكثير من دعاتنا ، وأن معرفة الذات عن طريق الآخر أصبح هو الطريق المتبـــع •

ومع ذلك يمكن توضيح عدة أمور ، فالعلم القليل الواضح خير من العلم الغزير المبهم •

١ ــ هل الخطر فى مصر هم الشيوعيون المصريون كى يستحقوا كل هذه الحملة الشعواء اليومية وعددهم لا يتجاوز أكثر من قاعة ؟ ولماذا الهجوم على شخص بعينه ؟ ان اليسار اتجاه سياسى موضوعى له وجوده كتيار اجتماعى لا شأن له بزيد أو عمر من الناس • اليسار المصرى ليس ابتكارا من أحد بل هو وضع ســـياسى تحتمه الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى مصر •

٢ ــ واذا كان الرأس مؤمنا ، والحمد لله الذى سجل اليسار

كتب هذا المقال عام ١٩٧٦ وقت السجال مع الاخ احمد موسى سالم على صفحات جريدة « الاخبار » وهو يهاجم الشيوعيين الملحدين • ولم اشأ استئناف السجال لانه تحول الى دائرة مغلقة ، خطان متوازيان غير متقاطعين ، خطابان بلا حوار • وهذه صياغة ثانية من المسودة الاولى كتبت فى خريف ١٩٨٧ •

نقطة ، ويا ليت رؤوسنا جميعا مؤمنة ، فالرأس هو المدبر للجسد ، وهو المسير له ، وهو المتحكم فيه • والجسد لا يكون مؤمنا أو ملحدا • الجسد موجود عند المؤمن والملحد على السواء • وكل فعل من أفعال الجوارح هو من تدبير العقل وتنفيذ الجسد • فالرأس هو المسؤول •

٣ — ولماذا يتخفى اليسار ؟ وعلى أي شيء يتستر ؟ ولماذا يكون لليسار نوايا بخلاف ما يعلن عنه وهو التنظيم الشرعى فى البلاد ؟ ولو أتى محمولا على الأعناق يمثل الأغلبية لما كان فى ذلك خـروج على الشرعية • ان ما فى قلب اليسار على لسانه • وان اتهام اليسـار بالازدواجية ، والتخفى ، والتستر ، والسـجادة الحمراء ، وطاقية الاخفاء هو فى الحقيقة اسقاط من العقلية اليمينية التى تقـوم على الحرص على الوضع القائم وادعاء المثالية ، والعقلية الرأسمالية التى تقوم على دافع المصلحة كدافع وباعث والتشدق بالدين كغطاء وستار • ولماذا التفتيش فى الضمائر ؟ ألا يتولى الله السرائر ؟ وهل شققنا على قلوب الناس ؟ ألم يقل الرسول « من قال لأخيه أنت كافر فقد باء بها » أو كما قال ؟ وهل من الاسلام أن يعلن مسلم شهادته ، ويثبت اسلامه ، ويدفعه الناس الى الالحاد ، ويتهمونه بالكفر ؟

٤ — وهذا هو بيت القصيد • ان الاسلام والماركسية متفقان فى الأهداف ، وهو تحقيق العدالة الاجتماعية ، واقامة المجتمع اللاطبقى ، وأن يكون العمل وحده مصدر القيمة ، وأن يكون الحـكم للأغلبية لصالحها ، والملكية العامة لوسائل الانتاج • وقد تختلف الوسائل فى تحقيق ذلك بالله أم بالدولة ، بالسلم أم بالعنف ، بالقرآن أم بالسلطان• كما قد تختلف وسائل التحليل اما بتحليل النفس البشرية اعتمادا على

المبادىء والأخلاق واما بتحليل الواقع الاقتصادى اعتمادا على الكم والاحصاء • وقد تختلف الدوافع والبواعث اما ايمانا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر واما ايمانا بالمبادىء الانسانية العامة مثل العدالة الاجتماعية التى لا يختلف عليها اثنان • وقد تختلف الأسس النظرية ، وتتراوح بين مثالية وواقعية ، بين عقلية وحسية • والاختلاف وارد فى كل بناء ذهنى انسانى سواء فى العلم أو فى الفلسفة أو فى الدين • واختلاف الأطر النظرية بين الاشاعرة والمعتزلة بالنسبة لتصور الله ، وحرية الأفعال ، والمسؤولية عن الخير والشر ، والعقل ، والنبوة ، والمعاد ، والايمان والعمل ، والامامة لم تمنعهم أن يكونوا مؤمنين موحدين بالله ومثبتين لوجود الله وخلق العالم وخلود النفس • ليس هناك اذن توفيق بين رأس مؤمن وجسد ملحد بل هناك اتفاق فى الأهداف والغايات ، واختلاف فى الوسائل والمناهج والدوافع ، والأطر النظرية ، وهو ما يحدث فى كل مذهب ونحلة وملة ودين • والا كفرنا فرقنا الكلامية جميعا • فاذا كانت الماركسية متفقة مع الاسلام فى الغايات فقد كفى الله المؤمنين شر القتال • واذا كانا مختلفين فى الوسائل والمناهج والدوافع والأطر النظرية فالواقع هو المحك • ومن يثبت على أرض المعركة يكون له الغلبة • لا يحتاج الرأس المسلم الى جسد غريب ، فالاسلام أيديولوجية تفرض نظامها ، وعقيدة تملى شريعتها ، والنظام الاجتماعى والاسلامى مستقى من التصور النظرى الاسلامى • ودعوتنا الى اقامة المبادىء الخمسة : تغيير الوضع القائم الى وضع أفضل ، الملكية العامة لوسائل الانتاج ، اقامة المجتمع اللاطبقى ، العمل وحده مصدر القيمة ، الحكم للأغلبية والتنمية لصالحها انما تلتقى عرضا مع الماركسية • فهناك اخوة فى السلاح ، وزمالة فى النضال • الرأس

اسلامى والجسد اسلامى • وقد شرع الاسلام للالتقاء مع أهل الكتاب وأهل الذمة وفيهم المجوس • فنحن لا نشارك الغير بل الغير هو الذى يشاركنا • فأهلا بالغير ان شاركنا فى الأهداف وحتى لو اختلف معنا فى الوسائل • ولا ضير فى الاختلاف فى الأطر النظرية فذاك موجود فى فرقنا الاسلامية وبين فلاسفتنا وصوفيتنا وفقهائنا ما دام هناك اتفاق فى الأهداف • وليس اليسار فى حاجة الى الأفكار المهيمنة فمطالب اليسار تعبر فى وضوح وبساطة عن الواقع المصرى • اليسار لا يعبث بل يقيم ثقافة وطنية ، ولا يتعثر لأنه يؤصل فكره ويعيد الاختيار بين البدائل فى تراثنا القديم ، ولا يتستر بل يعلنها صراحة على الملأ • نحن نفهم الاسلام بما يتفق مع حاجات العصر ، ومن ثم فنحن فقهاء •

٥ — لا حياء فى العلم كما لا حياء فى الدين • العلم لا يكون ماركسيا أو رأسماليا • النظرة العلمية واحدة ولكن مناهج تحليل الواقع وأبنية العلم ونظرياته ومداخله مختلفة • والاختلاف شىء طبيعى ما دام الهدف واحدا وهو السيطرة على قوانين الطبيعة لتسخيرها لصالح الانسان • العلم لا يكون مؤمنا أو ملحدا بل مقياس الصدق فى العلم هو تطابقه مع الواقع • والنظم الاجتماعية لا تكون مؤمنة أو ملحدة بل هى أيضا نظم تلائم أو لا تلائم الطبيعة البشرية وتحقق أو لا تحقق مصالح الناس • وهناك تفسيرات عدة للأسس النظرية ، وتطبيقات عدة للأنظمة الاجتماعية ولا يوجد تفسير واحد هو المؤمن وباقى التفسيرات ملحدة أو تطبيق واحد هو المؤمن وباقى التطبيقات هى الملحدة • تلك هى بقايا الحديث الضعيف للفرقة الناجية ، أن كل فرق الامة فى النار والناجية منها واحدة •

٦ — واحقاقا للحق وليس دفاعا عن الماركسية ، ان صورة الماركسية فى مصر هى الصورة التى روج لها الفكر الرأسمالى بيننا والتى هى أثر من أثار الاستعمار الثقافى فى فكرنا المعاصر ، صورة مذهبية معينة وهى مادية القرن التاسع عشر . وقد تطورت الماركسية منذ ذلك الوقت فى فلسفتها وأطرها النظرية فيما يعرف باسم ماركسيات القرن العشرين التى تبقى على الأهداف وتختلف فى الوسائل والأطر النظرية . هناك ماركسية مثالية عند ماركس الشاب ، وماركسية ليبرالية عند سدنى هوك ، وماركسية انسانية عند آدم شاف ، وماركسية بنائية عند التوسر ، وماركسية برجسونية عند جارودى ، وماركسية عملية عند غرامشى ، وماركسية فرويدية عند ماركوزه ، وماركسية فينومينولوجية عند لوفيفر ، وماركسية وجودية عند سارتر وميرلوبونتى ، وماركسية هيجلية عند كوجيف . فلماذا نصر نحن على ماركسية داروين وسبنسر ، وماركسية القرن التاسع عشر التى تخطتها ماركسيات القرن العشرين الا اذا كان المقصود تشويه الماركسية عن عمد أو نكون ضحية الفكر الرأسمالى والاستعمار الثقافى أو جهلا بالماركسية ، والجهل ليس أصلا من أصول الدين ؟ حتى ولو كانت المادية أساسا نظريا وحيدا للماركسية كما كان الحال فى القرن التاسع عشر فقد كان هذا الاختيار أيضا موجودا فى تراثنا القديم عند أصحاب الطبائع ، النظام ، والجاحظ ، ومعمر ، وثمامة ، وهشام بن الحكم ، وهشام بن سالم الجواليقى من المتكلمين وعند ابن رشد من الفلاسفة وعند أصحاب وحدة الوجود من الصوفية وعند دعاة المنطق الحسى من الفقهاء . وكلهم موحدون مؤمنون بالله . وان وجود بعض الجوانب الليبرالية فى النظم الاشتراكية ، وبعض الجوانب الاشتراكية فى النظم الغربية ليس مرفوضا من ماركسية

القرن العشرين بل هو تأكيد لها ، وتأسيس لماركسية طبقا لأهم معطيات القرن العشرين ألا وهو التحرر ، تحرر الانسان فى النظم الاشتراكية وحق الجماعة وتحقيقها بالوسائل السلمية فى النظم الليبرالية .

٧ — ان اليسار لا يحتكر الثقافة بل يدعو الناس الى حد أدنى من الاتفاق ، يجعل الأرض لمن يفلحها ، والمصنع لمن يعمل فيه ، والجامعة لمن يتعلم فيها ، والمتجر لمن يشقى فيه ، يدعو للحوار ولا يتهم بل هو باستمرار موضع الاتهام ولا حيلة له الا الدفاع عن نفسه . لم يفرض اليسار على مصر شيئا بل انه اختيار أساسى يفرضه الواقع المصرى . ان هذه الحملة الشعواء ضد اليسار انما تهدف الى المستحيل وهو الوقوف أمام الاتجاه الشعبى العام نحو اليسار وتشويهه أمام الناس ، والناس ليست فى غفلة من أمرها . وكيف يبغى اليسار التشهير بالاسلام بأن نظرياته غير قادرة على تحقيق التقدم وهو يثبت أن الاسلام هو التقدم فى أسسه النظرية ومساواة الخلق جميعا أمام مبدأ واحد شامل ، وفى تطبيقاته العملية يجعل العمل وحده مصدر القيمة ويؤسس المجتمع اللاطبقى ؟ الى متى ستظل هذه الحملة على اليسار بأنه ملحد ؟ وهل تتحقق مصلحة الناس بذلك ؟ هل هذا هو اشكال مصر التى ما زالت ترزخ تحت وطئة الغزاة ، وما زال شعبها يناضل فى سبيل لقمة العيش ، والمقاومة الفلسطينية والقوى الوطنية مهددة أمام أعيننا بالفناء ؟ كفى تعمية عما يحدث ، وكفى تغطية لما يدور ، وكفى ابعادا للانظار عن مشاكلنا الحقيقية وتحدياتنا المصيرية .

الام الخلف بينكو الاما   وهذى الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكمو لبعض   وتبدون العداوة والخصاما
وأين الفوز لمصر استقرت   على حال ولا السودان داما

(هـ) المعارك الأخلاقية والصراع الاجتماعى :

يبدو أنها معركة طويلة بدأت حلقاتها منذ مايو ١٩٧١ ثم رد الفعل عليها فى يناير ١٩٧٧ ، وليست آخر حلقاتها أكتوبر ١٩٨١ ، فبالرغم مما يبدو على حادثة المنصة من أنها جريمة قتل يعاقب عليها القانون وهى اغتيال الرئيس الا أن مؤامرة الصمت حول دوافعها وأسبابها ونتائجها على الأمدين القصير والطويل جريمة أعظم ، فاذا كانت الجريمة الأولى جريمة أفراد فان الثانية جريمة نظام حكم بأكمله ،

ولا يحتاج الانسان الى قراءة أو ذكاء كى يدرك أن المعركة الدائرة حاليا باسم الدين والأخلاق دفاعا عن « حرمة الموتى » انما تخفى فى حقيقتها الصراع الاجتماعى الخفى بين الفئة الحاكمة التى بيدها المال والسلطة وبين جماهير الشعب المدافعة عن ثورة يوليو وانجازاتها الاجتماعية ، ولما كان من وسائل التعمية اخفاء هذا الصراع والباسه ثوب الدين والاخلاق وهما المكونان الرئيسيان لروح الامة وثقافة الشعب تحاول الفئة الحاكمة اليوم الاختفاء وراءهما دفاعا عن نفسها وحماية لمكتسباتها ، فبعد أن تهاوى رأس النظام يستميت الآن المستفيدون فى الدفاع عن حساباتهم فى الخارج وثرواتهم فى الداخل

كتب هذا المقال عام ١٩٨٢ بعد بداية نشر « خريف الغضب » للكاتب الصحفى الكبير محمد حسنين هيكل فى صحف الخليج وفى جريدة « الاهالى » فى مصر ثم صدور قرار بوقف نشر الحلقات وبداية الهجوم على الكتاب من الناحية الاخلاقية بدافع حرمة الموتى واخفاء للدافع الحقيقى وهو الاستسلام السياسى بعد النصر العسكرى فى اكتوبر ١٩٧٣ . وقد أرسل لجريدة « الاهالى » فى ذلك الوقت ، وهذه صياغة ثانية من المسودة الاولى كتبت فى خريف ١٩٨٧ .

ومراكزهم القيادية • الدفاع هذه المرة ليس عن نظام مجرد بل عن الجلد والرقبة خشية أن تهتز المناصب كما وقعت العروش من قبـــل وخشية يناير آخر يكونون هم أول ضحاياه • ولقـــد كان الرئيس المقتول يهددهم من قبل : تأخذون بدلين سفر ، بدلا من مؤسساتكم الصحفية وبدلا آخر من رئاسة الجمهورية ويمكن أن أجعـــله بدلا واحدا • وهو تهديد بسحب الرشوة ! كانت السياسة المتبعة هى اعطاء كل رئيس مؤسسة صحفية أو اعلامية أكثر مما يستحق والباسه ثوبا أطول منه ، واعطائه مركزا لم يكن يحلم به حتى يظل عبدا له ، مستميتا فى الدفاع عنه ، بائعا نفسه ، مزيفا ضميره • وقد يصل عند البعض الى حد خيانة البلاد ، والرضا بالضيم والهوان •

ليت أجهزة الاعلام قد دافعت بنفس الحماس والهوس المحموم الذى تهاجم به كتابا الآن عن شرف مصر وسيادتها على أرضها عندما كان يعلن فى العريش وعلى أرض مصر من رئيس وزراء اسرائيل عن فتح الحدود بين مصر واسرائيل وبجواره رئيس وزراء مصر السابق صاحب الحق فى هذا الاعلان ، وعندما طالب موسى ديان بالسكنى فى ميدان التحرير ، وزيارة الأزهر والحسين ، والتسوق فى خان الخليلى ، وركوب ترام الاسكندرية ذى الطابقين ومكوثه فى الدور الأعلى رافضا السكنى فى أطراف القاهرة بعيدا عن قلـــب مصر وليس متكئا على رؤوس الاشهاد • يا ليتها طالبت بالتريث قليلا فى الاعتراف ورئيس وزراء اسرائيل يعلن أنه ليس فى حاجة الى اعتراف أحد • يا ليتها دافعت عن حق شباب مصر ومثقفيها فى رفع علم فلسطين فى معرض الكتاب ١٩٨١ واسرائيل تشارك فى المعرض تحت حماية الشرطة ! يا ليتها قد طالبت بالتريث فى التطبيع وفى تجارة البيض والموز والملابس

وفى اصلاح الأراضى الزراعية والمشاريع المشتركة • ليتها دافعت عن رأى وليس عن مصلحة أو كذبت الوقائع الواردة فى الكتاب أو نظرت سياسة أو رشدت طريقا حتى تكون على الأقل جديرة بالحوار وبالنقاش • والى متى تستمر الأمور على هذا النحو ؟ الجماهير ما زالت منتظرة والأرواح ما زالت فى الأعناق •

ألم يكن لعبد الناصر حرمه تدافع أجهزة الاعلام عنها ؟ ألم يكن لزعماء مصر السابقين كلهم حرمه وهم الذين كان لهم شرف الدفاع عن الاستقلال الوطنى وتأسيس الاقتصاد الوطنى ؟ وماذا عن حرمة الأحياء ، واتهام الخصوم السياسيين بالكفر والالحاد وبالعمالة والخيانة ؟

ان المنهج النفسى منهج معترف به فى علم النفس وفى تحليل الشخصيات التاريخية • وقد تم اغتيال جيفارا بالمنهج النفسى بعد تحليل شخصيته وسيجاره ورؤية وهجها بالأشعة تحت الحمراء وسط الأدغال • كما حللت شخصية نيكسون بالمنهج النفسى • وقد حاول علماء الاستعمار من قبل رسم صورة نفسية لعادات عبد الناصر لاغتياله والتخلص منه • ومن المسلم به علميا أن الدوافع النفسية تكمن وراء السلوك البشرى •

وقد صدر قرار وقف الحلقات بعد الحلقات الأولى التى تحاول استعمال المنهج النفسى لتفسير الشخصية وسلوكها فيما بعد • لم يكن الدافع هو الأخلاق وحرمة الموتى بل ايقاف نشر الحلقات التالية التى تكشف عن التفريط فى حقوق الوطن ، وعدم ترجمة النصر العسكرى

الى كسب سياسى ، وكيف أدار العسكريون المعركة حتى النصر ، وكيف أساء السياسيون ادارة المعركة حتى الاستسلام • لم يكن الهدف الحلقات الاولى بل الحلقات الاخيرة ، ولم يكن الدافع الاخلاق بل السياسة ، ولم يكن الحرص على حرمة الاموات بل على كراسى الاحياء•

ولا يختلف فى ذلك النظام فى مصر عن باقى الأنظمة العربية • فالتواطؤ مشترك والمصلحة واحدة على الرغم من استسلام نظام ومقاومة ظاهرية لباقى النظم • فالدعوة الى الصلح مع العدو الصهيونى كانت رائجة من قبل ، والوصاية الأمريكية على الأنظمة العربية كانت عرفا شائعا • انما بدأت المزايدة عندما قدم أحد الولاة الاتباع خدمات أكثر من المتوقع عند الأسياد ولدى باقى العبيد على السواء • أصبح السبق فى الخيانة والعمالة شرف يناله الحكام • واذا كان مصير الشقيقة الكبرى التصدى فى الحروب فان مصيرها أيضا تلقى الضربات عند الاستسلام بدلا من باقى الأشقاء •

ما زالت أجهزة الاعلام تختلق معارك وهمية تعمية للجماهير عن مشاكلها الحقيقية ، وثرواتها المنهوبة ، وغذائها الفاسد ، وأموالها المهربة منذ الهجوم على « الفتوحات المكية » لابن عربى فى مجلس الشعب وجعله معركة مطية الى « خريف الغضب » • وهل القضية حديث مع الله أو الى الله أو من الله نشغل بها الرأى العام ونسيل فيها الأقلام ؟ أما القول بأن مصر واسرائيل هما البلدان الوحيدان المتحضران وسط شعوب همجية فلا يحرك أحدا ، ولا يغضب كاتبا ، ولا يغلق صحيفة ، ولا يثير معركة ! وكأن حرف الجر قبل لفظ أخطر على البلاد من جرها كلها تحت أقدام الصهيونية والاستعمار •

ليت أجهزة الاعلام تفكر فى مستقبل مصر وفيما نتج عن خروجها كمركز ثقل فى العالم العربى من تشتت وتشرذم وضياع ، وهل حرب أكتوبر هى آخر الحروب أم بداية عصر الامبراطورية الاسرائيلية ؟ وماذا عن غزو لبنان ؟ وماذا يخبأ لسوريا والاردن والعراق والجزائر والسودان ؟

ليت أجهزة الاعلام تكف عن التخوين والتكفير والاتهام . فالمركب غارق ، والكل هالك . ليتها تفكر فى وحدة وطنية من القوى الوطنية الرئيسية فى البلاد ، الاخوان والوفديون والناصريون والماركسيون ، والاتفاق على برنامج عمل وطنى موحد يعيد الى الأمة اســتقلالها الوطنى ، وحريتها ، وتخطيطها ، وهويتها ، وتقدمها ، وجماهيرها . ليتها تفكر فى القضية ، وترعى مشروعها القــومى الذى بدونه تتحلل مصر ، وجندها غير أجناء الأرض ، وشعبها مرابط الى يوم القيامة .

(و) افتراءات ضد اليسار :

يغلف اليسار هذه الأيام خاصة فى مصر ، وكما كان الحال فى الغرب فى القرن الماضى ، بظلال تجعل الناس غير قادرين على رؤية بريقه ، وهى ظلال باهتة سرعان ما تتبدد . وافتراءات كاذبة سرعان ما تنجلى . وأهمها :

أولا : يقال عن اليسار أنه ملحد ، ضد الدين لا يؤمن بالله ، ويطعن فى الأنبياء . ويزيف القرآن والحديث أو على أكثر تقدير يستغل ذلك لمصلحته الخاصة ، خوفا من الناس ، وتملقا لمشاعرهم ، ونفاقا لهم . وهو قول باطل مردود فالدعوة اليسارية جوهر الدين ، وأساس رسالات الأنبياء ، ولا يوجد نبى منذ آدم حتى محمد عليهما السلام الا وأنذر الأغنياء بالويل والثبور كما فعل عيسى وطالب بحق الفقراء كما فعل النبى عاموس ، وتوعد الطغاة والمستكبرين كما فعل موسى ، وطالب بحق الشعب فى الرقابة والمشاركة فى الحكم ، وطالب بتطبيق الحدود على الضعفاء والأقوياء ، وجعل العمل الصالح مقياس للناس جميعا لا فرق بين عربى ولا عجمى الا بالتقوى كما فعل محمد . ان كل من يشهر هذا السلاح ضد اليسار فليعلم انه سلاح غير بتار . انما السلاح البتار فى غير موضعه وضد مصلحة الشعب هو من يستغل الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر من أجل التعمية والتغطية والتستر على الأوضاع القائمة التى تضيع فيها حقوق الفقراء والتى

الاهالى ١٩٧٨/٢/١ .

تسلب حقوق الشعب من أجل الابقاء على مصالح الأقلية وامتيازاتها والدعوات الدينية اليسارية شائعة فى كل عصر ، وعامة فى كل دين •

ثانيا : يقال عن اليسار انه مادى وأنه ينكر الروحانية ، وانه يفسر الظواهر الانسانية تفسيرا اقتصاديا خالصا ، وان الانسان بدن لا نفس ، وان الواقع مادة لا فكر ، وان الحياة دنيا لا آخرة ، وان يهلكنا الا الدهر •• وهذا افتراء محض • فاليسار نظرة علمية للواقع • والواقع فيه فكر ، والانسان جسد وروح ، والعالم عالمان ، عالم الشهادة وعالم الغيب ، عالم الواقع والحس وعالم الأمل والرجاء • واذا كان اليسار أساسا دعوة فكرية ، ويحذر الجماهير بالفكر ويدعو الناس الى التفكير واعمال العقل كما يفعل الأنبياء فكيف يقتصر على الواقع وينكر الفكر • واذا كان اليسار أساسا دعوة الى العدالة الاجتماعية والى الدفاع عن حقوق الشعوب ، وحرصا على كرامة الانسان فكيف يكون مادية ينكر الروحانية ؟ وكيف يتسنى للانسان أن يدرك هذه المبادىء وهو بدن فقط بلا روح اللهم الا اذا كانت روحانية عرجاء بلا مضمون ، يتستر وراءها البعض ويتشدقون تغطية للمادية وتقنيعا لها •

ثالثا : يقال عن اليسار انه فكر مستورد غير نابع من تراثنا وأرضنا ووطننا وتراثنا وعاداتنا وتقاليدنا ، فاليسار والعمالة الفكرية شىء واحد • وهذا أيضا افتراء وبهتان وقول زور ، فاليسار هو التنظير السياسى للثقافة الوطنية • والثقافة الوطنية هى التنظير المباشر لواقع الناس • فاليسار يبدأ من الواقع ولا يبدأ من الفكر • وفكره تنظير الواقع وليس فكرا منقولا • فاذا حدث اتفاق عرضا بين فكر اليسار والفكر

الانسانى ازداد فكر اليسار ثقلا ، وأضاف الى التجـربة الانسانية رصيدا وطنيا • وهل انغلق تراثنا القديم على ذاته أم أضاف الفكر الانسانى ، اليونانى ، والهندى ، والفارسى ، والرومانى رصيدا آخر نعتز به ونفخر به حتى الآن • واذا كان عدو اليسار الأول هو الاستعمار الثقافى فكيف له أن يستورد فكرا يكون أحد مظاهر هذا الاستعمار ؟ ألم يكن اليسار هو الراعى للثقافة الجماهيرية والجامعة الشـعبية ؟ ولماذا لا يكون الفكر الرأسمالى مستوردا أيضا خاصة وانه لم ينشأ من ترابنا وأرضنا أيضا وان واقعنا لا يختاره ولا يفرضه ؟ ان شبهة الاستيراد هذه لأكثر دلالة على عقلية الاستيراد والبضائع المستوردة التى أصبحت احدى قوالبنا الفكرية واحدى موجهات سلوكنا المعاصر •

رابعا : ويقال عن اليسار بالاضافة الى الأفكار المستوردة القرارات المستوردة وكأن العمالة الفكرية تتحول الى عمالة سياسية • فاليسار تابع لموسكو أو بكين أو لغيرهما من العواصم اليسارية وكأن اليسار لا يكون وطنيا بالمرة • وهذا افتراء وتجن على أبرز أشـكال نضالنا الوطنى • فاليسار أساسا حركة وطنية ولا تصدر قراراته الا بناء على المصلحة الوطنية • وقد قامت كل حركات التحرر الوطنى على دعوات يسارية ، وكان اليسار هو الموحد لكل اتجاهات التحرر الوطنى • واذا كانت دعوات اليسار الوطنى قد سادت داخل معسكر اليسـار ذاته (الصين ، فيتنام ، يوغوسلافيا ، رومانيا •• الخ) فكيف يكون اليسار خارج معسكر اليسار تابعا لاحدى أنظمته ؟ لقد أصبح لليسار الوطنى اليوم (ايطاليا ، وفرنسا) الصدارة على اليسار الأممى فى حين أن الاستعمار العالمى يوحد صفوفه ويقوم على محور أساسى ، وبسلطة مركزية توجه أذناب الاستعمار وتحرك تابعيه • والرأسمالية العالمية

المتمثلة فى الشركات المتعددة الأجناس هى التى توجـه الرأسمالية الوطنية وتبتلعها وكل ذلك لا يكون عمالة أو تبعية لأحد !

خامسا : ويقال عن اليسار انه دعوة الى التغيير بالعنف والى اراقة الدماء وانه دعوة الى الحقد والضغينة ، واستغلال فقر الفقراء ، واللعب على أوجاع الناس • وهذا أيضا اثم وبهتان • فاليسار دعوة الأغلبية ، والأغلبية لا تحتاج الى العنف لانها تستطيع أن تحقق مطالبها بالوسائل الديمقراطية ، وطالما ضحى اليسار بالبرنامج السياسى من أجل الحفاظ على الوسائل الديمقراطية (اللندى فى شيلى) • ووسائل الضغط مثل حق الاضراب وحق التعبير تكفل لليســار تحقيق أهدافه بالوسائل السلمية • ويفرق اليسار بين العنف الطفولى والعنف الثورى • فالأول ليس من اليسار بل من الطفولة اليسارية التى يدينها اليسار والثانى هو العنف الذى يفرض على اليسار ، عندما يهاجم كبار الملاك أرض الفلاحين فى الريف ، وعندما تطلق أجهـزة الأنظمة الاقطاعية والرأسمالية النار على جماهير الشعب ، وعندما يقول الله : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » (٣٩ : ٤٠) هنا يظهر العنف الثورى كرد فعل على العنف الاجرامى فى حق الشعب • ويكون العنف الثورى أشبه بالجهاد المقــدس • والعجيب ان الذين يثيرون هذه الشبهة لا يدينون العنف الاجرامى البادىء بالعدوان بل يدعون له !

فما جزاء من يفترى على اليسار كذبا ؟

(ز) بريق اليســـار :

حتى يكون اختيارنا السياسى قائما على أساس ، وحتى لا نرفض اليوم ما اخترناه بالامس ، وحتى لا يتم اختيـارنا للهـوى أو للمزاج أو للضغوط الخارجية ، أقول أن اختيار اليسار يحدث طبقا لمقاييس موضوعية تجعل لليسار بريقا يستهوى الناس ، ويسترعى الانظار • فهو بريق ذو مضمون مثل بريق الجواهر ، وليس بريقا خادعا مثل بريق السراب ويتمثل هذا البريق فى الآتى :

١ — يقوم اليسار على فكرة ، وليس على سلطة ، وهـو اتجاه فكرى قبل أن يكون اتجاها سياسيا حتى أصبح اليسار نموذج العقائدية أو الأيديولوجية • واليسار صاحب فكر ، وناشر دعوة ، يقرأ ويدعو الناس للقراءة ، كما يدعو القرآن • لذلك كان المفكرون يساريون بالطبع لأنهم أهل الفكر ، والفكر يسارى بطبعه لأن اليسار فكرة • ويشمل الفكر كل مشتقاته من أدب وفن • وأصبح اليسار هو الوحيد القادر على اجراء الحوار مع الاتجاهات السياسية الأخرى لأن الفكر شرط الحـوار •

٢ — يتميز اليسار بالصدق لا النفاق ، وذلك لأن الفكر بمجرد تمثله يتحول الى تصديق داخلى ، كما هو الحال فى الايمان عندما يصدق المؤمن بما يؤمن به • فما يوجد فى قلب اليسارى يوجد على لسانه ، وما يشعر به يفكر فيه ، وما يفكر فيه يقوله ، ومن ثم فلا أثر لانفصام

الجمهورية ١٩٧٦/٧/٧ •

الشخصية التى تحدث فى الاتجاهات السـياسية الاخرى عندما يجد الانسان نفسه موضوعا فى اتجاه تحت ضغط السلطة أو تحت تأثير الخوف . لذلك كان أصحاب اليسار باستمرار أصحاب الصوت العالى وأول من يتلقون الضربات .

٣ ــ يعى اليسار الالتزام بمبدأ والتضحية فى سبيله ، فاليسار صاحب قضية ، وحامل رسالة مثل الأنبياء والصديقين والشـهداء . وطالما قاوم اليسار وسائل الاغراء والضغط وعوامل الترغيب والترهيب من أجل التخلى عن المبدأ أو تغييره ، وطالما استشهد اليسار من أجل الثبات على المبدأ ، وتحمل صنوف العذاب والهوان على ما نسمع فى قضايانا هذه الأيام . لذلك كان اليسار أقرب الى روح الشباب روح التضحية والفداء ، وكانوا زينة شباب أهل الجنة .

٤ ــ يرتبط اليسار بالواقع ، ومقياس فكره تصديق الواقع له ، ومن هنا جاءت تسميته بأنه الأيديولوجية العلمية لارتباطها بالواقع . وأصبحت الواقعية فى الفن والأدب وسيلته فى التعبير ، وهو فى هـذا شبيه بالوحى الذى يقوم على هذه الواقعية بتدرجه فى النزول طبقا لدرجات الوعى الانسانى ، ونزوله منجما طبقا لمقتضيات الواقع . ومن هنا جاءت تسميته باليسار الوطنى نظرا لارتباطه بالارض وبالتراب . وهو الوحيد الذى يملك تحليل الواقع تحليلا احصائيا عارضا مكوناته الأساسية ، ومن ثم كان قادرا على ابراز مشـكلات الواقع وتقديم الحلول لها .

٥ ــ يتجه اليسار باستمرار نحو المعارضة ، وعدم التسليم

بالأمر الواقع ، ورفض النظم القائمة ، لذلك كان اليسار أقرب الى الجديد والتطلع نحو المستقبل فى مقابل الاتجاهات السياسية الاخرى التى تريد الرجوع الى الوراء ، متطلعة نحــو الماضي أو التى تريد الابقاء على الوضع القائم ، متكالبة على مكاسب الحاضر ، لذلك كان اليسار ضد كل النزعات التبريرية للوضع القائم ، وضد كل الاتجاهات التسكين والتثبيت • وقد كانت رسالات الانبياء كلها بلا استثناء دعوات لتغيير الوضع القائم ، وكان الوحى رافضا للرضى بالحيــاة الدنيا ، وحاثا الناس على النهوض وعدم الاثقال •

٦ — يعبر اليسار عن نزعة غيرية فى الانسان ، فالتفكير فى الآخر سابق على التفكير فى الذات ، ومصلحة الجماهير سابقة على مصلحة الافراد ، والأغلبية صاحبة حق على الأقلية • لذلك عرف عن اليسار بأنه دعوة جماهيرية ترعى مصالح الناس ، وتدافع عن حقوقهم ، مهمة اليسار أشبه بمهمة فقهاء المسلمين فى الدفاع عن المصــالح العامة والرقابة على سير الأمور ، وأن يكون حاكم المسلمين آخر من يأكل وآخر من يلبس ، وآخر من يسكن •

٧ — يعتمد اليسار على روح الجماعة ، فالعمل الجماعى أبقى من العمل الفردى وأكثر حماية لصاحبه • ليس من شيمة اليسار عبادة الأشخاص ، وادعاء البطولات ، وتوهم الزعامات بل الاجتماع معا ، والعمل المشترك • لذلك فان الحزب هو عصب الجماعة • ويتفق ذلك مع ما هو معروف فى طبيعتنا من روح الترابط والتراحم ، وما هــو مشهور فى شخصيتنا القومية من عروة وثقى تظهر فوق الحصير ، وعلى المصطبة ، وفى الأرواح والأعياد والموالد •

٨ — ينحو اليسار دائما نحو العالمية ، فهو نزعة انسانية خالصه تدافع عن الانسان من حيث هو انسان . لذلك كان اليسار هو التطور الطبيعى لليبرالية ، والوريث الشرعى للعقلانية والتنوير . ولا تقوم العالمية على أى أساس عنصرى ، عرقى أو حضارى بل على المبادىء العامة الشاملة مثل حق تقرير المصير ، وحرية الشعوب والعدالة الاجتماعية ، والسلام .

هذا هو البريق الذى يمحو ما دونه من ظلال .

(ح) الشعارات الدينية ومضامينها السياسية :

انه لاشك ما يحزن الانسان أن يرى الاخوة الأعداء يتصارعون ، وأن تتساقط الرقاب بسبب سوء الفهم وأن تتبدد الجهود بسبب صورية التفسير ، وأن تتبعثر قوى الأمة وتتشتت طاقاتها بلا داع بل نتيجة بقايا الاستعمار الثقافى فى بلادنا ، وتحقيقا لسياسة « فرق تسد » .

فان كثيرا ما يحدث فى لقاءاتنا الجماهيرية هذه الأيام ، وحياتنا السياسية وقد دب فيها النشاط النسبى ، أن ينقسم الجمهور الى ثلاثة أقسام : الاول يصيح « الله أكبر ولله الحمد » ، « الله أكبر والعزة لله » ، « القرآن دستورنا » . ويهتف القسم الآخر « الله أكبر والعزة لمصر » ، « اشتراكية ، اشتراكية » ، « تحيا مصر » ، « ناصر ، ناصر » . أما القسم الثالث وهو الاغلب فانه يكون محصورا بين القسمين الأولين ، يترقب وينتظر ، والحيرة بادية عليه . وجدانه مع الأول . وواقعه مع الثانى ولكنه ينتظر لأيهما الغلبة !

والسؤال هو الآتى : هل هنـــاك تعارض بين الشعارات الدينية الأولى وبين المضامين الاجتماعية أو السياسية الثانية ؟

والحقيقة أن التعارض الناشىء ينتج من خطأ شائع يقـــع فيه الفريق الأول وهو التفسير الصورى الفارغ من أى مضمون . فشعار « الله أكبر والعزة لله » لا يعنى الا « الله أكبر والعزة لمصر » . وهل

الجمهورية ١٩٧٦/٨/٧ .

يكره الله أن تتحرر سيناء ؟ وهل ترفض عظمة الله أن تحيا مصر ؟ ان الشعار الدينى لا يمكن أن يكون فارغا بلا مضمون ، ولا يمكن أن يكون له الا مضمون من واقع من يرفع هذا الشعار • فالمصرى الذى يرفع شعار — الله أكبر — وهو محتل متخلف لا يمكن أن يعنى شعاره الا تحرير الأرض والقضاء على التخلف بكل صوره ، فاذا صاح أحد « الله أكبر » واذا هتف آخر — العزة لمصر — فالأول يقول بالصورة الفارغة بلا مضمون ، والثانى يقول بالمضمون الواقعى بلا صورة • والحقيقة انه لا توجد حقيقة بلا صورة أو مضمون ، ولكن نظرا لاننا نعيش فى عصر تغلب عليه الصور والأشكال فان اظهار المضمون يكون أوقع وأكثر التزاما بالواقع • واذا عرفنا أن الاسلام دين جوهر وليس دين شكل أى أنه يعتنى بالمضمون أكثر من اعتنائه بالصورة كان هتاف — العزة لمصر — أقرب الى روح الاسلام أى أقرب الى الواقع والمضمون • ولا تعنى مصر هنا أية نعرة قومية يرفضها الاسلام ولكن تعنى الدفاع عن الأرض ، والقضاء على التخلف ، وهما مطلبان اسلاميان •

وكذلك اذا صاح أحد بشعار — القرآن دستورنا — ، « قرآنية ، قرآنية ، لا شرقية ولا غربية » ، واذا هتف آخر « اشتراكية ، اشتراكية » ، « تحيا الوحدة العربية » ، ويكاد يحدث التشابك بالأيادى بين هؤلاء وهؤلاء ، وكل فريق ينظر الى الآخر على أنه عدو له ، يتهم الأول الثانى بأنه خائن للدين ، ويتهم الثانى الأول بأنه خائن لمصر ! والحقيقة أن شعار الفريق الأول شعار صورى لا مضمون له كمن يقول : اثنان واثنان يساوى أربعة أى أنه تحصيل حاصل • فمن منا لا يرضى بالقرآن دستورا ؟ ومن منا يرضى بأن ينحاز شرقا أو غربا ؟

انما المهم كيف نملأ هذا الشعار بمضمون . ما هو البرنامج السياسى والاقتصادى الذى يكفله هذا الدستور ؟ ولصالح من يتم الحكم والتخطيط للاقتصاد القومى ؟ ولصالح من تتم التنمية ؟ أن واقعا مثل الواقع المصرى بدخله المحدود — متوسط دخل الفرد حوالى مائة جنيه سنويا — لا يمكن أن يتحمل الا نظاما اشتراكيا ، وهـذا هو معنى ما نردده باستمرار : حتمية الحل الاشتراكى ، ومن ثم كانت الاشتراكية هى المضمون الوحيد لشعار « قرآنية ، قرآنية » أى القرآن بتفسير اشتراكى ، لما كانت الاشتراكية مطلبا للعصر وفرضا من الواقع . وكانت الوحـدة العربية التى نجـد فيها استقلالنا وكياننا ، وكان ارتباطنا بالشعوب المتحررة حديثا ، وبالحركات الوطنية التى ما زالت تناضل ، وبالعالم الثالث ، وبكتلة عدم الانحياز هو المضمون الواقعى لشـعار « لا شرقية ولا غربية » .

ان الحوار الجاد بين هذين الفريقين ، الأول الذى يرفع الشعارات الدينية ، والثانى الذى يبرز المضامين السياسية هو نقطة البداية فى العمل السياسى الجذرى . لقد كان ماضى مصر مرهونا بهذا الحوار ، وكانت القوتان الرئيسيتان قبل الثورة وبعدها بسنتين وربما حتى الآن هما الاخوان المسلمون والشيوعون وكنا نسمع عن التقاتل بين الاخوة الأعداء . ان مستقبل مصر أيضا ما زال مرهونا بهذا الحوار حتى تأخذ الشعارات الدينية مضامينها السياسية من واقع حرية الناس . فالناس مؤمنة تحركها الشعارات الدينية ومحتلة متخلفة ، وحياتها ووجودها فى الاستقلال الوطنى والتنمية لصالح الطبقات الكادحة . مستقبل العمل السياسى الجذرى فى مصر مرهون بتفسير الدين تفسيرا تقدميا

يعبر عن مطالب العصر ويلبى احتياجاته • فالدين هو الصورة التى تعطى القوالب النظرية ، والتقدم هو المضمون الذى يفرضه الواقع •

وفى الوقت الذى يحدث ذلك لا تصــبح أغلبية الجماهير ، وهى الفريق الثالث ، فى لقاءاتنا السياسية محصورة بين الصياح بالشعارات الدينية والهتاف بالمضامين السياسية ، بل تجد فكرا سياســيا ينطلق من دينها ، وتستلهم تراثها ، ويلبى مطالب واقعها ويحــقق حاجات عصرها ، هذه الأغلبية التى كانت قبل الثورة متمثلة فى الوفد بقيــادة مرجوة هى الطليعة الوفدية ، والتى أصبحت فيما بعد جماهير ثورة ٢٣ يوليو بقيادة فعلية للضباط الأحرار والتى نطلق على قلبها النابض الآن اسم قوى الناصرية أو على مجموعها القوى التقدمية الوطنية هى التى ستجد فى النهاية فكرها السياسى ، ودورها التاريخى اذا ما التقى الاخوة الأعداء وفسرنا الشعارات الدينية بمضامينها السياسية •

(ط) كلمة حق يراد بها باطل !

كثر الحديث فى مجتمعنا هذه الايام عن تطبيق الشريعة الاسلامية، ومن منا لا يريد ذلك ؟ فعلى الاقل سنجد مخرجا من مآسينا ورعاية لحقوقنا . ولكن بصرف النظر عن الاسباب النفسية والاجتماعية لظهور هذه الدعوة من تعويض لهزيمة سابقة ، أو ادعاء يعد بنصر لاحق ، أو مزايدة فى الدين ، أو طلب لشهرة ، أو ستار لعجز ، أو تعمية لواقع ، أو دفاعا عن مكاسب شخصية ، أو تثبيت لوضـع قائم فان هـذه الدعوة شرعية فى الاساس ، ولكن ينقصها الاسلوب العلمى فى التحقيق، وهو الاسلوب الاسلامى ، وكأنها كلمة حق يراد بها باطل . الدعوة الى تطبيق الشريعة الاسلامية اذن لا تجوز الا بمنهج اسلامى نصفه على النحو الآتى :

١ — لم يبدأ الوحى بشريعة ولكنه بدأ بعقيدة ، ولم تبدأ حياة المسلم بنظام ولكنها بدأت بتصور ، فالشريعة الاسلامية صادرة عن عقيدة ، والنظام الاسلامى ناتج عن تصور . فلنحاول أولا عرض العقائد الاسلامية وتفسيرها طبقا لحاجات العصر ، وملئها بمضمون من واقع المسلمين . ولنحاول أولا عرض التصور الاسلامى ، وتحديد معالمه . فاذا تمت صياغة الفكر النظرى أولا حاولنا صياغة الشريعة العملية ثانيا . ألم تأت السور المدنية وهى التى حوت الشريعة بعـد السور المكية وهى التى حوت التصور ؟ وكيف نأتى نحن ثم نضـع الحصان قبل العربة !

الجمهورية ١٩٧٦/٦/٤ .

٢ ــ تحويل هذا التصور من مستوى النظر الى مستوى الاعتقاد عن طريق ايمان بعض الافراد والتصديق به ، وهم الذين سيكونون فيما بعد طليعة للنظام . وقد ربى الرسول بضعة أفراد ، هم صحابته على مدى ثلاثة وعشرين عاما ، وهم الذين عاونوه فى تطبيق النظام الاسلامى الذى حدث فى عشر سنوات ، وفى تأسيس الدولة الاسلامية بعد وفاته ، فتربية الافراد أشق وأصعب ، ويطول اعدادها عن تطبيق النظام . فأين هم صحابتنا ، وطليعة أمتنا ؟

٣ ــ لم تنشأ الدولة الاسلامية الا بعد الهجرة ، فى مجتمع المدينة ، وبدستور المدينة ، وبتحالف المدينة أى أن الجماهير كانت فى أغلبيتها مسلمة ترنو الى نظام جديد ، ينبع من العقيدة الجديدة أو متعاطفة مع الحركة الجديدة مثل أهل الكتاب ، ومن ثم كان من السهل اقامة الدولة الاسلامية لاول مرة فى التاريخ على يد الرسول فى المدينة . ولكن أين جماهيرنا اليوم التى تستقبل طليعتها استقبال الفاتحين أم أن ضنك العيش قد أضناها واحتلال الارض قد استنزفها وأدماها ؟

٤ ــ تطبيق الشريعة الاسلامية كل لا يتجزأ ، ولا يمكن استئصال جزء منه حسب هوانا وتكويننا النفسى المعقد ونجعل منه كل الشريعة . فهناك النظام السياسى ، والنظام الاقتصادى ، والنظام الاجتماعى ، والنظام الاخلاقى . لماذا لا ننادى بتطبيق النظام الاقتصادى القائم على أن المجتمع الواحد الذى فيه انسان جائع تبرأ ذمة الله منه ؟ لماذا نتحرج من تطبيق النظام السياسى الاسلامى القائم على البيعة والشورى ، وعدم تولية هذا الامر من يطلبه ؟ لماذا لا نطبق النظام

الاجتماعى القائم على مشاركة الامة ورقابتها ومسئوليتها عن مجريات الامور ونفرض الوصايا على الناس ؟ لماذا لا نطبق النظام الاخلاقى القائم على التربية والفضيلة دون الاثارة والحرمان ، ننادى بالاسهل ونترك الاصعب ، ونترك الجماهير ونستعدى السلطان على الناس !

٥ — تقوم الشريعة الاسلامية على أداء الامانات أولا ثم تطبيق الحدود ورعاية الحقوق ثانيا . وأداء الامـانات يأتى فى الولايات والاموال . فمن ناحية الاولوية تأتى السياسة والاقتصاد قبل القانون أى أن تحرير الارض والتنمية لهما الاولوية المطلقة على الحدود التى هى حق الله أى النظام الاسلامى يعطى حقوق الانسان أولا قبل أن يعطى حقوق الله .

٦ — واذا كان لابد من تطبيق الجزء قبل الكل خوفا من الكل واستئسادا على الجزء أليست النظافة من الايمان وبيوتنا وشوارعنا على ما هى عليه ؟ أليس السلوك الخلقى العام أيضا دون بذاءة القول من الاسلام؟ أليس توفير الخدمات للناس ، وسهر الحاكم على مصالحهم لاطعام الجائع وكسى العار ، من الدين ؟ أليست العمولات على مشتريات الدولة نهبا لاموال المسلمين ؟ أليس الرقص الشرقى قبل الاذان أو بعد القرآن فى أجهزة الاعلام وأخبار نجوم الاغراء وتفسير القرآن على صفحتين متقابلتين فى صحافتنا خروجا على الحياء ؟ نستمتع بالدنيا ونتستر بالدين !

٧ — قبل مطالبة الامة بتطبيق حدود الله علينا اعطائها حقوقها ، وقبل مطالبة الفرد بالقيام بواجباته علينا اعاطئه حقوقه . فمن حقوق

المسلم العمل لا البطالة ، والكفاية لا الحاجة ، والتربية والفضيلة لا الاثارة والحرمان ، ودرأ الشبهات لا تعريض الناس لها . يتم تطبيق قانون العقوبات أى الحدود فى حالة اقامة الشريعة الاسلامية ، فاذا انحرف سلوك الناس عن نظامها جاء دور العقوبات . فتطبيق الشريعة يأتى أولا والحفاظ عليه بالحدود يأتى ثانيا . فالعقوبات نتيجة وليست مقدمة ، نهاية وليست بداية .

٨ — والحدود الاسلامية ليست قوانين صورية بل هى أوضاع اجتماعية سماها الصوليون « أحكام الوضع » لا يطبق الحد الا اذا كان السبب والشرط موجودين والمانع غائبا حتى يصح تطبيق الحد . فالجوع والبطالة والمال بلا رقابة موانع من تطبيق حد السرقة . والاثارة والحرمان وغياب التربية موانع من قيام حد الرجم . وايقاف عمر تطبيق حد السرقة عام المجاعة أشهر من أن يذكر .

٩ — ولماذا نطبق نصف الحد أو ربعه ؟ ألم يلعن الله شارب الخمر ، وساقيها ، وصانعها . فكيف تقدم الخمور فى بلد مسلم ؟ ليس المقصود هو الشارب فقط ، بل الساقى والصانع وصاحب المتجر . أليس كل هؤلاء مسلمين ؟ ولماذا نطبق الحد على مسلم دون آخر ؟ أليس السائح العربى مسلما ؟ ولماذا لا تطبق الشريعة على الحاكم قبل المحكوم ؟ ألم يقل الرسول « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » عسى ألا نطبق الحدود فى الضعفاء ونترك الشرفاء !

(ى) الوثنيــة الجــديدة :

يخطىء من يظن أن الوثنية هى عبادة الاصنام فحسب ، اللات والعزى وهبل وغيرها ، فهذه هى الوثنية الصريحة التى لم يعد يؤمن بها أحد • ولكن هناك وثنية أخرى مقنعة أخطر من الاولى ، لا يراها أحد ، ولكنها تستشرى فى النفوس ، وتهدد حياتنا وتهدم ديننــا ، وتجعلنا مثل عبدة الاصام • وتبدو مظاهر هذه الوثنية الجديدة فى الآتى :

١ ــ التأنق فى طبع المصاحف ، وتغليفها بالقطيفة الحــمراء الموشاة بماء الذهب الاصفر ، ووضعها فى صناديق مطعمة بالصدف كقطع أثرية أو معروضات سياحية بجوار « الشيشة » الشرقية وتماثيل نفرتيتى وأبو الهول ، وصور بائع العرقسوس والملاية اللف ، وتبادلها فى المناسبات • فلا يوجد أمير أو وال أو حاكم فى البلاد الا ونال منها العشرات فى الاعياد الدينية والوطنية يزين بها مكتبه أو منزله أو ناديه بجوار كؤوس النصر ودروعه ونياشينه ووثائق الدم الاحمر ، وما من وال قد قرأها أو فتحها بل وضعهــا الكل فى عرباتهم وراء الزجاج الامامى أو الخلفى تقيهم العين وتمنع عنهم الحســد وتكثر عليهم الرزق ! لقد أصبحت تجارة حقا ، رابحة عند الناس وخاسرة عنــد الله ، تقوم بها بعض دور النشر التى عجزت عن نشر الثقافة فتخصصت فى الاتجار بالمصاحف والتأنق فى عرضها •

ليست المصاحف ولا الكتب المقدسة للزينة أو هدايا نقدمها للولاة

الجمهورية ١٩٧٦/٧/١٦ •

والحكام اعلانا عن تأييد مصطنع أو مغالاة فى اظهار ولاء ، بل تحتوى على فكر يتمثله الناس ، ويصبح تصورهم للعالم ، وعلى منهج عملى يصلح حال الناس ، ويغير واقعهم ، فالمصاحف والكتب الدينية مقدسة بما تحتويه من برامج ثورية لمجتمعات العصر ومشكلاتها الكبرى وعلى رأسها التخلف والاحتلال ، وليست مقدسة بمادتها وطباعتها . وقد فرق القدماء بين كلام الله الازلى وهى المعانى المحفوظة فى الصدور وهى المبادىء الشاملة التى بها قوام الحياة وبين كلام الله الحادث وهو المكتوب أو المقروء أو المسموع الذى نتفنن فى ابراز مفاتنه بالصوت أو بالحرف ، ونكون حينئذ « كالحمال يحمل أسفارا ! » .

٢ — طبع اسم « الله » أما على أوراق ملونة مزركشة نزين بها جدران منازلنا أو حوائط مكاتبنا بجوار صور الولاة أو فوقها أو أمامها مما يشير الى طاعتنا لله ولاولى الامر على حد سواء ، أو حفرها على قطع من البلاستيك نعلقها فى عرباتنا أو كحلى نحيط بها رقابنا ، وتتدلى على صدورنا ، ابرازاً لمهارتنا فى فنون الطباعة أو لقدراتنا فى صناعة البلاستيك أو تجارة رابحة يضمن بها التجار الربح مادام رجل الشارع يدين لهم بالولاء . وفى نفس الوقت نصيح « تعالى الله عما يصفون » ، ونعظ الناس بأن الله ليس كمثله شىء ، لا تدركه الابصار . كما نضع فى كثير من مساجدنا فى ركنيها الرئيسيين على جانبى المنبر لوحتين الاولى « الله » والثانية « محمد » وكلاهما على نفس المستوى من الكتابة والزخرفة والتعليق وكأنها بقايا نفيسة من معلقاتنا السبع القديمة التى كانت تنشر فوق جدران الكعبة . كما نعلق على مساجد أخرى ، على أركانها الاربع لوحات أربع أخرى « عمر » ، « أبو بكر » ، « عثمان » ، « على » ، وهم بشر فانون مع

« الله » الذى يتصدر المحراب بالنور ، وهو الخالد الابدى • وهل يتم ذكر الله على هذا النحو الوثنى أم بالدفاع عن المبادىء التى أعلن عنها الوحى ، وبتطبيق الشريعة التى فيها مصالح الناس ، وذكره فى القلب ورعا وتقوى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » •

٣ ــ تشييد المساجد والحفر على جدرانها الداخلية بآيات من القرآن الكريم تتشابك فيها الحروف ، وتكثر فيها الزينــات حتى تستحيل قراءتها أو استذكارها ، وعلى جدرانها الخارجية بالنــور الاخضر وعلى أكشاك السجائر المقابلة مثل الدعاية والاعلان ! وقد كان مسجد الرسول على الحصى وبلا جدران • كما أن الارض جعلت لنا مسجدا طهورا « وأينما تولوا فثم وجه الله » •

ونضىء المساجد ، ونغلف المآذن بالمصابيح وحولها أكوام من النفايات ، وبداخلها دورات مياه لا تتوافر فيها شروط الطهــارة ، وحصر نضع عليها أحذيتنا وجباهنا • كما نتجمل فى صناعة سجاجيد الصلاة ونتحذلق فى صناعة المســبحات ، ونطيل الذقون ، ونلبس البياض ، ونتمتم بالقرآن ، ونكثر من الطيب ، وننشر البخور وقت الصلاة داخل المساجد وفى البيوت ، ونعلى من صوت القارىء فى مكبرات الصوت والناس تلهو • وتصبح أحياؤنا الشعبية التى تكثر من هذه المظاهر أحياءنا الدينية !

٤ ــ ونقرأ على عربات النقل : ما شاء الله ، سبحان الله ، يا صلاة النبى ، يا نور النبى ، باسم الله مجريها ومرسيها ، فى أمان الله ، ومع سلامة الله كل ذلك بجوار يا حلوة •• يا زين ، يا جميل

يا أسمر ، وكأن كتابة هذه الشعارات الدينية تحفظ من مخاطر الطريق وتقى العين ، وتدر الربح ، وفى نفس الوقت ينام السائقون ليلا ، ويتعاطون الحشيش ولا يحترمون قواعد المرور ، وتكثر الحوادث ، ويموت الناس رغما عن الشعارات المكتوبة .

وعلى عربات الطعام المتجولة ، وفوق أكشاك الخضار والفاكهة نجد أيضا فى جميع الاركان الله ، كبدة ، محمد ، مخ ، أبو بكر ، كباب ، عمر ، كفتة ، مما يدل على اختلاط ايمان الناس بحياتهم اليومية ، وان هموم الآخرة وهموم الدنيا قد تثاقلا معا على أكتاف الناس . فالى متى سنظل عبدة الاوثان الجديدة ؟

(ك) للمخطىء أجر .. وللمصيب أجران :

لقد أصبح الاتهام بالردة أو بالكفر سلاحا مشهرا هذه الايام على كل من تفوه بكلمة أو قال برأى فى الدين ، وأصبح استنفار الناس على الرجم وحرق البيوت واستعداء السلطة لاهدار الدماء جزاء كل مجتهد أخطأ أم أصاب ، ثم نبكى على ما وقعنا فيه من تقليد ، ونعاتب من أغلق باب الاجتهاد ! وكأننا لم نع بعد حرية الفكر وغير حريصين عليها ، ونريد تسليم أنفسنا للسلطان كما كنا نفعل من قبل .

١ — لقد ظهر مقال « مع القرآن من جديد ، ترتيب جديد للسور فى المصحف الشريف » فى فبراير الماضى ، وكان حماة الاسلام صامتين اما لانهم لا يدرون ما يدور حولهم وهم أهل الفتيا فى الديار ، واما لانهم كانوا يدرون ولم يروا فى الرأى غضاضة الا بعد أن انضم كاتب المقال الى التنظيم اليسارى الشرعى فى البلاد ، وأصبح الهجوم عليه واعلان ردته جزءا من الحملة المنظمة الشعواء على اليسار ، واتهامه بالكفر والالحاد .

٢ — كان الاجدى بأهل الفتيا قبل اصدار حكم الردة الاطلاع على المقال نفسه بدلا من الاعتماد على تعليق أحد مهاجميه . ومن تقاليد علماء أصول الدين القدماء عدم أخذ مقالات الاسلاميين وآراء الفرق عن معارضيها ومخالفيها تأكيدا لامانة النقل وحرصا على صدق الرواية .

الجمهورية ١٩٧٦/٦/٢٣ .

٣ — لم يأت الكاتب بدعة بل أعاد اجتهادا قديما وحديثا في آن واحد ، له مؤيدوه ومعارضوه ، فهو جزء من التراث . فلماذا لم يتم اعلان كفر الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني شيخ المقارىء المصرية في اعادة ترتيبه لسور القرآن معتمدا على دراسات حفني ناصف ، والشيخ أحمد الاسكندري ، والشيخ مصطفى عنان ، وكأن كاتب المقال وحده ، لسبب ما ، يتحمل أوزار الناس أجمعين !

٤ — لم يأت الكاتب بدعة بل أعاد ما هو معروف في علوم القرآن وفي علم أصول الفقه من نزول القرآن منجما على ثلاثة وعشرين عاما . ولا يشك أحد في أن « أسباب النزول » تعني أن الوحي الاسلامي نداء من الواقع وليس فرضا عليه ، فالواقع أسبق من الفكر من حيث مناهج التغيير الاجتماعي وحصر المشكلات وطرق التفسير . فتحريم الخمر كانت بدايته في واقعة سكر ، والحجاب كانت بدايته في واقعة التعرف على نساء الرسول ، فلا يوجد حكم الا وله بداية في واقعة .

٥ — ولا يشك أحد في أن وجود الناسخ والمنسوخ يعني التدريج في الاحكام من اللين الى الشدة (تحريم الخمر) أو من الشدة الى اللين (المحاسبة على أعمال الجوارح فقط دون أعمال القلوب) طبقا لقدرات الانسان ، وحسب درجة استقلاله الفكري والارادي . قاعدة التدرج هي قاعدة النسخ ، أما قاعدتا الاطلاق والتعقيد ، والتخصيص والتعميم فهما من مباحث الالفاظ في علم الاصول وليسا من مباحث القرآن .

٦ — لم ينكر الكاتب الترتيب الحالي للسور ولكنه تساءل عن ضبطه على هذا النحو ان لم يكن بتوقيف ، والتساؤل ممكن ، والاجابة

ضرورية . فاذا كان الترتيب الحالى توقيفا من عند الله آمنا به ، واذا كان اجتهادا كما يقترح كاتب المقال طالبناه بالدليل . واذا كان الترتيب التاريخى للسور راجحا والترتيب الحالى مرجحا طالبناه أيضا بالدليل . والمطالبة بالدليل شىء والاتهام بالردة شىء آخر .

٧ — هناك فرق بين « قرآن العبادة » و « قرآن التشريع » ، فالاول للتلاوة ، والثانى للاحكام . وهناك من الآيات ما نسخت أحكامها ولم تنسخ تلاوتها . فالقرآن المرتب ترتيبا تاريخيا قرآن تشريع وليس قرآن عبادة ، وهو مثل المعاجم المفهرسة لالفاظ القرآن الكريم أو غيره من المناهج والدراسات على القرآن ولكنه لا يكون مصحفا بل دراسة فى أحكام التشريع . ويجوز فى قرآن العبادة قراءة المدنى قبل المكى ، والسور الطوال قبل القصار ، وسورة البقرة قبل سورة الناس ، والوسط قبل البداية أو النهاية . فكله عبادة . وقد كنا نقرأ فى المدارس جزء « عم » ثم جزء « تبارك » ثم جزء « قد سمع » . ولا يعنى ذلك قراءة القرآن من اليسار الى اليمين . ليس كل قارىء للقرآن يبغى تشريعا منه فذلك عمل الفقهاء . وقراءة عامة المسلمين هى قراءة عبادة لا قراءة تشريع . ولا ضير أن يقرأ كل مسلم القرآن قراءة تاريخية دون ما حاجة الى طبع مصحف جديد .

٨ — ولماذا قصر ترتيب الآيات فقط على التوقيف دون ترتيب السور ؟ اذا كان المقصود هو ترتيب القرآن كله حسب ميقات النزول فلا فرق فى ذلك بين الآيات والسور فكل سورة لم تنزل كلها مرة واحدة انما نزلت آياتها مفصلة أحيانا . فما الحكمة من التوقيف .

٩ — قد تكون الحكمة فى ترتيب السور على هذا النحو التأكيد

على ان كل ذلك وحى من الله ، وان التصور العام للحياة لا يتطور بتطور التشريع ومن ثم فيمكن قراءة المدنى قبل المكى . وقد تكون الحكمة فى ادخال الآيات المدنية فى السور المكية أو الآيات المكية فى السور المدنية هو التأكيد بأنه لا فرق بين العقيدة والشريعة ، بين التصور والنظام . وان كليهما متداخلان ، ينبع أحدهما من الآخر فى رباط عضوى داخلى . فيمكن تفسير المكى بالمدنى ، فالتفسير يبحث عن المعنى والدلالة وليس عن الاحكام . فلا ريب أن يفسر الانسان أحد ببدر ، ومجتمع المدينة بمجتمع مكة . فالتاريخ لا يعنى بالضرورة التتالى فى الزمان بل يمكن للحاضر أن يفسر الماضى .

١٠ — ان العرف مقياس من مقاييس الشرع . وقد تعارف الناس على مدى أربعة وعشرين قرنا على هذا المصحف الشريف بترتيب سوره وآياته ، وان وضع ذلك موضع التساؤل يكون خروجا على العرف . وقبول العرف شيء ورفض التقليد شيء آخر .

١١ — قد تسبب هذه الدعوة الاجتهادية فى نشأة مصاحف كثيرة . بترتيبات مختلفة مع تطور البحوث والدراسات حول القرآن ، وبالتالى تكون لدينا عدة مصاحف بعدة ترتيبات . وينشأ الخلط ، ويعم التشويش ، مرة فى ترتيب السور ، وأخرى فى ترتيب الآيات ، وثالثة فى الزيادة والنقصان ، ورابعة فى القرآن كله وبذلك يفقد القرآن ميزته على سائر الكتب المقدسة وهى صحته التاريخية وتواتره الذى يعترف به علماء الشرق والغرب على السواء .

١٢ — ان التجديد لا يكون فى المسائل النظرية الا اذا نتج عنها

أثر عملى فى حياة الناس • وقد كان الهدف هو معرفة ما أحدثه القرآن من ثورة فكرية واجتماعية ومناهج فى التغيير والاصلاح • ويمكننا معرفة ذلك من خلال أسباب النزول و « الناسخ والمنسوخ » ، وعلم أصول الفقه ، والشريعة الاسلامية دون ما حاجة الى طبع مصحف جديد • ان قضية ملكية الارض فى الاسلام وفى مصر لهى أكثر جدوى ، واعطاء « الارض لمن يفلحها » لهو أكثر نفعا • واقامة المجتمع الاسلامى اللاطبقى هو فى نهاية الامر مناط التجديد •

(ل) الاســلام والمعارضــة :

(انه لمن دواعى العجب أن تتحول الامة التى تقيم نظامهـا السياسى على حقها فى المعارضة السياسية الى أمة مستكينة وظيفة أهل الحل والعقد فيها تبرير السلطة القائمة والتخوف منها والسعى وراءها والحرص على مناصبها فى حين أن « الامر بالمعروف النهى عن المنكر » هو شعار الامة) •

المعارضة السياسية هى جوهر النظام السياسى الاسلامى والتى عبر عنها القرآن فى آية « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » وهو شعار الامة الاسلامية وسلوك أهل الحل والعقد ، وحق الرعية على الراعى ، والذى أصبح عند المعتزلة أصلا من أصول الدين ، وفى الفقه بابا من أبواب الاحكام السلطانية ونظاما للحسبة • وقد ذكر القرآن هذه الآية فى تسعة مواضع مركزا على الحقائق الاتية :

١ ـ انه هو السبب الوحيد الذى من أجله تصبح الامة الاسلامية خير أمة أخرجت للناس « كنتم خير أمة أخرجت للنـاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » (٣ : ١١٠) • فالافضلية هنا لا ترجع الى النسب أو الحسب ، الى العصب أو العرف ، الى الغنى أو الملك ، الى الارث أو الميراث بل ترجع أساسا الى قيام الامة بالرقابة على الدولة وممارستها لحقها فى المعارضة السياسية ، ووجوب الدفاع عن

الاهالى ١٩٧٨/٤/٥ والفقرة بين قوسين محذوفة وهى التى تضع المقال فى المعارضة وتنقد رجال الدين •

المصالح العامة • فالتوحيد لابد وأن يتحقق فى فعل الخير للناس عن طريق النصح واعلان الحق ودحض الباطل • الامة الاسلامية تفكر بصوت مرتفع يسمعه القاصى والدانى الحاكم والمحكوم ، ولا تخشى فى الله لومة لائم •

٢ ـــ انه أمر الهى نصدع به « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٣ : ١٠٤) • وليس مجرد اختيار ناشىء عن مزاج أو هوى • هو فرض لا نافلة ، وواجب لا ندب على كل قادر ، والتخلى عنه يوقع تحت طائلة العقاب • فهو ليس شغبا أو عمالة أو حقدا أو كراهية بل طاعة لامر الهى تقوم به القلة القادرة • فهو فرض كفاية على المسلمين • لذلك كانت المعارضة السياسية دائما تتم بالقلة ، وهى الطليعة الواعية التى تبغى الصالح العام • ولا يضرها النقص فى الكم من حيث العدد لانها هى التى تعبر عن الكيف •

٣ ـــ انه شرط الايمان بالله والطريق اليه « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣ : ١١٠) • فالايمان بالله ليس مجرد قول أو نية أو عمل فردى بل هو عمل جماعى يؤثر فى حياة الناس • الايمان اذن طريق محفوف بالمخاطر ، وثمن لابد من دفعه وهو الاعلان عنه أمام الملأ • فالمعارضة السياسية لا تكون سرية لان الايمان واضح جلى لا يخفى على أحد • ومن ثم وجبت المجاهرة بالمعارضة كمجاهرتنا بالتوحيد أن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق • وهو أيضا نتيجة للايمان وظهور له فى حياة الناس « يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٣ : ١١٤) •

فالايمان لا يكون ميتا بل حيا ولا يكون داخليا بل خارجيا يوجه حياة النـــاس •

٤ ـــ هو ما يميز مجتمع المؤمنين عن مجتمع المنافقين « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٩ : ٧١) • فالعلاقات الاجتماعية القائمة على الايمان هى علاقات النصح المتبادل والتوجيه المشترك • أما مجتمع النفاق فانه يقلب الحق باطلا والباطل حقا « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف » (٩ : ٦٧) • فيزين للقوم المنكر وينفرهم من المعروف • فالمعارضة السياسية بغية الصالح العام هى أساس مجتمع ايمان • أما تبرير السلطة القائمة دفاعا عن الصالح الخاص فهو أساس مجتمع النفاق •

٥ ـــ انه لا يقل عن الصلاة ، وهى ما تميز المؤمن عن غير المؤمن « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة » (٩ : ٧١) • هى صلاة اجتماعية تهدف الى ما تهدف اليه الصـــلاة من النهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، تمنع الخوف ، وتخرج عن الصمت ، وتجهر بالقول ، وتذهب بالنفاق والمداراة • فالمعارضة السياسية أشبه بصلاة المؤمنين وليست خروجا على الطاعة لله وللرسول ولاولى الامر منا ، وأذان الصلاة ، الله أكبر ، يحوى فى داخله أكبر قدر من المعارضـــة لكل متكبر جبار يجعل نفسه كبيرا للقوم •

٦ ـــ لا يكفى الانسان أن يكون تائبا عابدا سابحا راكعا ساجدا بل بد أن يكون آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر « التائبون العابدون

الحامدون السابحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله » (٩ : ١٣٢) • فأفعال العباد الاولى فردية فى حين أن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر هى العبادة الجماعية التى ترعى حدود الله وتحرص على قيامها • فالمعارضة السياسية الجماعية من خلال حزب للمعارضة يدافع عن حقوق المسلمين ويبين واجبات الحكام هو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، أى ممارسة شرعية دفاعا عن حقوق المسلمين •

٧ — انه دعوة للخير وليس شغبا أو حقدا أو فسادا أو تخريبا فى الارض « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات» (٣ : ١١٤) فهو دعوة من أجل الخير وليس من أجل الشر ، من أجل الحلال وليس من أجل الحرام ، من أجل الطيبات وليس من أجل الخبائث « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات » (٧ : ١٥٧) • فالمعارضة السياسية تهدف الى الصالح العام والى تعميم الخير والى المشاركة فى الغنم والجرم وليس الى تعميم الفقر وسد الرزق ، والحد من النشاط وتكبيل المجتمع بقوانين الردع والعقوبة •

٨ — هو شرط التمكين فى الارض والبقاء فيها وتعميرها بعد الصلاة والزكاة « الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهو عن المنكر » (٢٢ : ٤١) اذ تنهار المجتمعات عندما لا تتناهى عن المنكر ولا تأمر بالمعروف فتسود الرذيلة وتذهب الفضيلة « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا

يفعلون » • فالمعارضة السياسية هى وسيلة الابقاء على نظام الدولة ، والقضاء على المعارضة انهيار للدولة وسقوط للنظام •

٩ — انه لابد أن ينتج عنه مكروه وأذى للذين يقومون به اذ يقول لقمان لابنه واعظا اياه « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك » (٣ : ١٧) • وهذا هو ما يجعل المعارضة فى كل نظام تتحمل كل صنوف الاذى والقهر من السلطة القائمة • فكيف يخشى الناس المعارضة وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر !

(م) ذهب المقصورة .. وجوع الفقراء !

طالعتنا الصحف ووكالات الانباء بتركيب مقصـــورة من ذهب للسيدة زينب رضى الله عنها وتصفها مجلة أكتوبر كالآتى :

« المقصورة مصنوعة من رقائق الفضة ، وتكلفت ٢ مليون دولار، ومصنوعة على الطراز الفاطمى ، ومطلية بالذهب فى أماكن متفرقة منها ، وزن الفضة بها أكثر من طن ، وهيكلها الحديدى يزن خمسة أطنان ، ترتكز على قاعدة تزن ١٠٠ كيلو جرام من الفضة ، ينكون الجزء الاسفل من الرخام الفاخر ، القبة الفضية زنتها ٣٠٠ كيلو جرام ، ويعلو القبة هلال من الذهب ! » .

والاغرب من ذلك أن يتم هذا أمام سمع وبصر علماء المسلمين فى مصر ، رئيس جامعة الازهر ، ووكيل وزارة الاوقاف ، كما يتم بموافقة وتأييد أولى الامر ، ويتم النقل بطائرة حربية مصرية والافتتاح على مرأى من ملايين المسلمين فى أجهزة اعلام . اننا نلاحظ الآتى .

١ — أن هذه الاموال الطائلة كانت كافية لاطعـــام آلاف من المسلمين الجياع فى الهند وبها خمسون مليونا من المسلمين ، ويضرب

الاهالى ١٩٧٨/٢/٨ وقد حذفت الجريدة فقرتان : الاولى فى المقدمة عن عدم جواز بناء مســـاجد على قبور الانبياء والاولياء والاشـــارة الى الوهابية . والثانية فى الخاتمة « فأيهما أولى بالرعاية ، الاموات فى مقصورة السيدة أم الاحياء على باب السيدة ؟ » . وبعد الحذف من المقال السابق ومن هذا المقال والتردد فى نشر باقى المقالات انقطعت عن الكتـــابة فى « الاهالى » .

بهم المثل فى الفقر فى العالم وفى انحطاط مستوى المعيشة ، أو فى مصر باقامة المستشفيات أو بناء المدارس أو رصف الطرق أو تشييد المساكن، أو تجديد شبكة المياه الجوفية • وهل يقبل الله مقصورة ذهب بيتا للاموات بجوار أكواخ طين يعيش فيها الفقراء ؟

٢ — ان الذهب والفضة محرم على المسلمين من الرجال استعمالها فى اللباس أو الزينة بنص الحديث « حرم لبس الحرير والذهب على ذكور أمتى » وغيره من الاحاديث المتواترة • فاذا كان حراما على الاحياء فان الاموات يكونون أولى بالحرمة ، فلا زينة للاموات • وان اكتنازهما محرم بنص القرآن « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم • يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (٩ : ٣٤ — ٣٥) • فتكديس هذه الاطنان من الذهب والفضة دون انفاقها فى الصالح العام حرام بنص القرآن • أما بالنسبة للنساء فالاولى انفاقها فى تجهيز جيوش المسلمين فى حالة الحرب والاعتداء على أراضى المسلمين وهو حالنا الآن •

٣ — ان بيوت الذهب والفضة هى بيوت الكفار لا بيوت المسلمين فالله يعد الكفار بسقف من فضة « لجعلنا لمن يكفر بالرحمن سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون » (٤٣ : ٤٤) • انما بيوت المسلمين تلك التى تؤسس على التقوى والصلاح •

٤ — ان الذهب والفضة لن يغنيا عن العمل الصالح ، ولن يزيدا

السيدة زينب رضى الله عنها كرما وطهرا ، ولن يزيدنا نحن قربا ولا صلاحا •

٥ — ان التنعم بالذهب والفضة لا يحدث فى هذه الدنيا ، انما يعد الله به المؤمنين فى الآخرة : أســاور من ذهب وفضة فى أذرع المؤمنين وصحاف من ذهب يأكلون منها ، وآنية من فضة يطاف عليهم بها ، وقوارير من فضة يشربون منها ، ولكن ليس زينة للاموات أو فرحا للاحياء يسر بها الناظرون •

٦ — ان تكريم السيدة زينب رضى الله عنها لا يتأتى بتغطية قبرها بقباب بالذهب والفضة ولكن بأخذها قدوة للسلوك ، ونموذجا للفداء ، وقائدة لمقاومة الظلم والطغيان وعلامة على الشهادة فى سبيل الله ، وتمسكا بالشرعية ورفضا لكل أنواع الاغراء ودفاعا عن حقوق الفقراء فى أموال الاغنياء ، واصرارا على العودة الى النبوة والخلافة بعد أن تحولت الى ملك عضود •

٧ — ويتم ذلك بحضور علماء المسلمين وبمساعدة أولى الامر ، والدين والنصيحة ، لله وللرسول ولائمة المسلمين وعامتهم • ولم نسمع أحدا من علماء المسلمين يقوم بها وكأن حب الذهب والفضة عند المترفين والمحرومين على السواء جعل الجميع صامتا عن دين الله « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا • والله عنده حسن المآب » (١٣ : ١٤) •

(ن) هل تجوز الصلاة فى الدار المغصوبة ؟

عرض علماء أصول الفقه لهذا السؤال وهم بصدد البحث عن استحالة الجمع بين الحظر والوجوب فى فعل واحد من جهة واحدة لتقابل حدييهما الا على رأى من يجوز التكليف بالمجال ، وهو باطل باجماع الامة . والخلاف هل يجوز انقسام النوع الواحد من الافعال الى واجب وحرام من جهتين كوجوب الفعل المعنى الواقع فى الدار المغصوبة من حيث هو صلاة وتحريمه من حيث هو غصب شاغل لملك الغير .

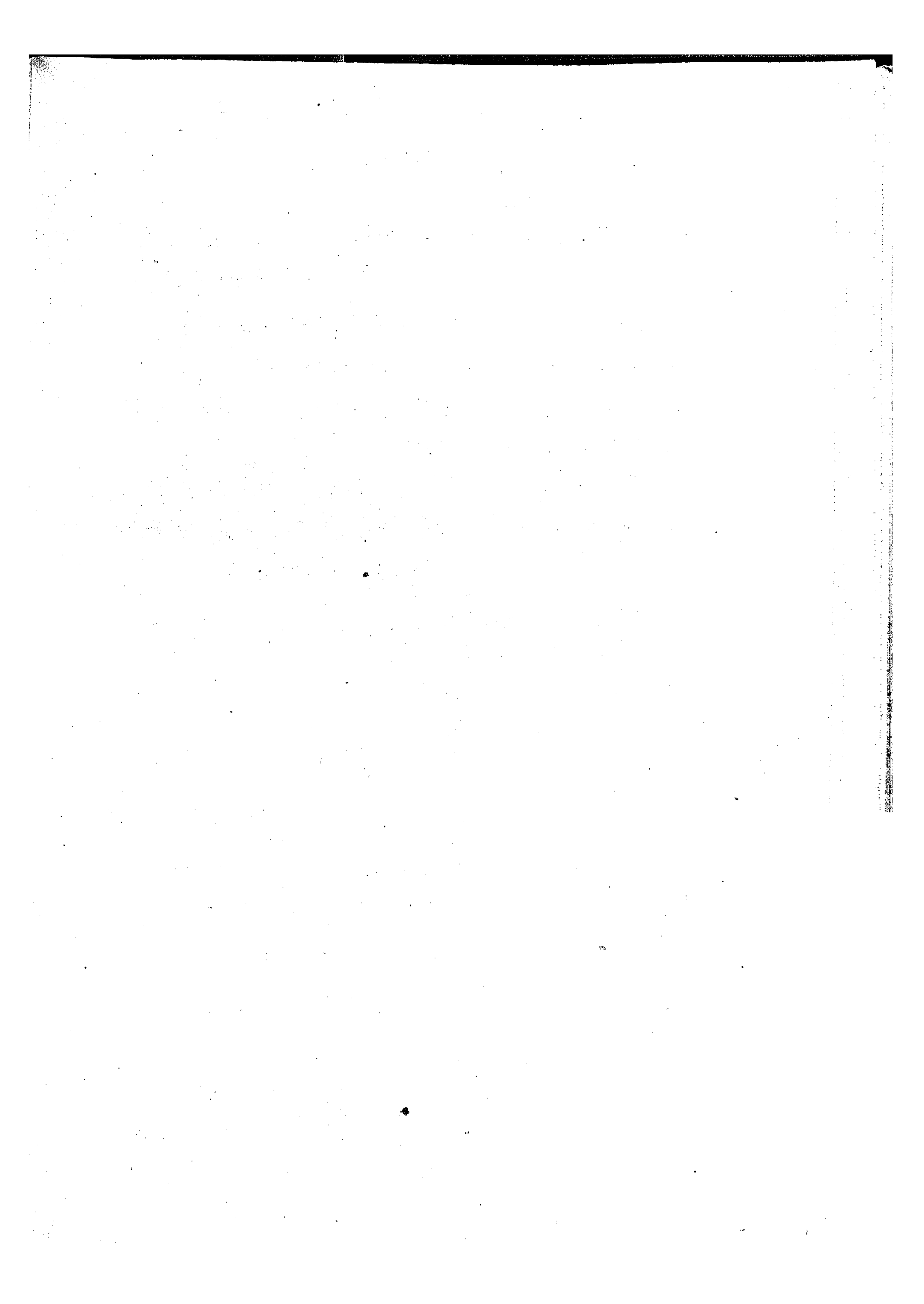
قال الجبائى وابنه أبو هاشم والقاضى أبو بكر وأحمد ابن حنبل وأهل الظاهر والزيدية وقيل انه رواية عن مالك . وقالوا : الصلاة فى الدار المغصوبة غير واجبة ولا صحيحة ولا يسقط بها الفرض ولا عندها ووافقهم على ذلك القاضى أبو بكر الا فى سقوط الفرض فانه قال يسقط الفرض عندها لا بها مصير أمنهم الى أن الوجوب والتحريم انما يتعلق بفعل المكلف لا بما ليس من فعله ، والافعال الموجودة من المصلى فى الدار المغصوبة أفعال اختيارية محرمة عليه وهو عاص بها مأثوم بفعلها ، وليس له من الافعال غير ما صدر عنه ، فلا يتصور أن تكون واجبة طاعة ولا مثابا عليها متقربا بها الى الله لان الحرام لا

قدمت هذه الفتوى الى جريدة « الاهالى » بعد زيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ ورفضت « الاهالى » نشرها ، ولما أصررت على النشر والتصويت عليها فى مجلس المستشارين لم تنل اغلبية الاصوات . وكان هذا آخر عهدى بجريدة « الاهالى » فى ١٩٧٨ .

يكون واجبا ، والمعصية لا تكون طاعة ولا مثابا عليها ولا متقربا بها مع أن التقرب شرط فى صحة الصلاة •

(الآمدى : الاحكام فى أصول الاحكام جـ ١ ص ٥٩ ، صبيح) •

الواحد بالنعيين كصلاة زيد فى دار مغصوبة من عمرو فحركته فى الصلاة فعل واحد بعينه هـو مكتسبه ومتعلق بقـدرته • فالذين سلموا فى النوع الواحد نازعونا فقالوا لا تصح حتى الصلاة اذ يؤدى القول بصحتها الى أن تكون العين الواحدة من الافعال حراما واجبا وهو متناقض (المستصفى جـ ١ ص ٧٧ ، الحلبى • بادشاه : تيسير التحرير جـ ٢ ص ٣٧٠ — ٣٧١) •



أحاديث فى اليمين واليسار فى الفكر الدينى

(أ) من الاخوان المسلمين مع اليسار .. ومن اليسار مع الدين :

روز اليوسف ١٩٧٦ وأجرى الحديث عبد الله امام وصدره بالفقرة الآتيـــة :

اعترض على طريقتى فى اجراء الحوار عندما قلت له أنه ليست عندى أسئلة محددة أوجهها اليه ، وكل ما أريده هو أن أتعرف عليه واناقشه .. ولدى لذلك مفتاح واحد ، هو موضوع الدين والتقدم . وموضوع الرأسمالية والاستغلال .. وقال الدكتور حسن حنفى أن هذا ليس منهجا سليما فى الحوار فلابد أن تكون لدى أسئلة محددة ومكتوبة بدقة ، حتى يستطيع أن يجيب عليها . والحقيقة انه كان على حق .. وكنت على حق ايضا . فليس من الممكن أن أواجه مفكرا دون أن يكون لدى ما أريد أن أحاوره فيه .. كما انه لم يكن من الممكن أيضا أن أعد أسئلة معينة لرجل كل المعلومات التى دفعتنى للتعرف عليه — ومعذرة — هى بضع مقالات فى الصحف .. اغلبها نائم !

وحدثتنى عنه أيضا ابنتى التى تدرس الفلسفة ، فهو كما يصف نفسه فى مدرج الجامعة « فقيه » .. يترك مقعده على منصة الاستاذ فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مرة كل أسبوع للطلاب ليتحاوروا ويتحدثوا .. وينتقدوا .. معبرين عن رأيهم « فالحوار المفتوح بين كل التيارات — فى رأيه — هو الذى يخدم قضية الديمقراطية والحرية فى مصر ، ولقد أضر بالجامعة الخواء الفكرى الذى عشناه نتيجة انعدام الدميقراطية ! » وليس من المهم أن يعتنق الشاب أى موقف فكرى ، المهم أن يكون صادقا وأمينا ، وأن يكون له مذهب وعقيدة .. وتأتى المرحلة التالية بعد ذلك ، وهى الحوار بين هذه المذاهب .. ليبقى الاصلح منها » .

ومن هنا فان تجربة المنابر رائدة ، وينقصها أن يكون لكل منبر صحيفة تعبر عنه ، وأن تكون السلطة فى حياد تام بينها ، والا ينحاز رئيس الجمهورية لمنبر دون آخر ، بل يظل ابا للجمع وربا للاسرة . لقد شجعنى هذا الذى سمعته عنه ، أن أطرح أفكاره للمناقشة العامة .. بكل ما فيها من جراة وجدة .. وكل ما أتمناه هو أن يقابلها من يريد مناقشتها بوقار العلم ، لا بتهريج المعارضة العمياء التى ترفض أن يفكر الناس .

- الملكية فى الاسلام لله وحده •
- ساعة علم خير من عبادة الله سبعين عاما •
- التفسير العصرى للقرآن ••• يعنى التفسـير الاجتماعى والاقتصادى •
- التفسير الرجعى والرأسـمالى للدين تختفى وراءه عوامل الاستغلال •
- لماذا كان فقراء مكة من أول المؤمنين بالاسلام وكان الاغنياء أول من حاربوه ؟
- هل يفسر الدّين لصالح أقلية مستغلة أم لصالح الناس ؟
- لا يجوز احتكار تفسير الدين •

قابلت ابن باب الشعرية الدكتور حسن حنفى حسنين اسـتاذ الفلسفة فى منزله بمصر الجديدة فهو لا يغادر مكتبته الا الى الجامعة أو نادى السينما مساء الاربعاء ! وكانت بداية اللقاء غير مشجعة ، فقد صدمته طريقتى « غير العلمية » ، ولكن سرعان ما ذاب هذا الشعور ، عندما سألته عن رسالته للدكتوراه التى حصل عليها من جامعة السربون•

رسالته للدكتوراه كانت حول مناهج التفسير •• وكان آخر من حصل على تأشيرة دخول لفرنسا قبل عدوان ١٩٥٦ ، وقطع العلاقات مع فرنسا ، ورغم ان البعثة كانت مقررة على نفقة الدولة ، الا أنه دبر حاله ، ورحل على نفقته فقد أحس أن حربا يمكن أن تنشب فتؤجل

بعثته الرسمية ! وبدأ يكتب فى المنهج الاسلامى ، وقرأه معظم المستشرقين ، وعديد من الفلاسفة ... فقد كانت البداية فى تفكيره أن يعيد بناء علم أصول الفقه القديم ، بأبعاده التاريخية ، والفكرية ، والعملية . وقال المستشرقون أنها فاتحة عهد جديد فى الدراسات الاسلامية منذ جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده . وهو ما ينبىء عن متاعب لابد أن يلقاها كل من أراد أن يجتهد ويفكر فى أمور الدين .

● لماذا اخترت موضوعا اسلاميا لرسالتك ؟

لاننى نشأت فى الجامعة المصرية ، وفى حضن الاخوان المسلمين ، والفكر الدينى الاصلاحى فى وقت كانت المشكلة الثقافية المطروحة فى مصر هى محاولة تجديد الاسلام ، وكان السؤال المطروح هو : هل يصلح الاسلام كمنهج عام للانسان فى كل عصر ، وزمان ؟ وبدأت أكتب عن المنهج الاسلامى العام ، وخاصة أن كلمة منهاج موجودة فى القرآن .. وفى تلك الفترة كنت متأثرا جدا بمقالات ، ودراسات سيد قطب .

ولا أعتقد أنه يوجد شاب مصرى الا ومر بجماعة الاخوان المسلمين ، فهى تمثل اختيارا أصيلا فى مجتمعنا .. واذا أعيدت الآن .. طبعا أنضم اليها .. ولكن دعنى أحدد لك موقفى الفكرى بوضوح . أنا أمثل تيار اليسار الدينى . وأنا مستعد لان أعمل مع أى جماعة أو تنظيم أو حزب يفسر الدين تفسيرا تقدميا لصالح الجماهير الاسلامية .. فأنا لا أفكر فى مصر وحدها .. بل أفكر فى فقراء الهند ، وبنجلاديش ، ومالى ، وتشاد ، وفى أوضاع المسلمين

بوجه عام ، حيث تركز أموالهم فى يد الاغنياء • والغريب أن مشكلة الثراء تحدث فى بلاد الاسلام ، وفيها ما يسمى بعائدات البترول ، ومشكلة الفقر تحدث أيضا فى بلاد الاسلام ، وفيها ما يسمى بالمجاعة ، وسوء التغذية والفيضانات • ومن هنا فاذا قامت جماعة الاخــوان المسلمين من جديد ، فسأكون فى الجناح اليسارى فيها ، واذا أنشىء تنظيم يسارى فسأكون فى الجناح الدينى فيه ••

● القضية التى تشغل الدكتور حسن حنفى هى اعادة تفســير القرآن الكريم •

لان فى هذا خدمة لقضية العدالة الاجتماعية ، ضد الفوارق بين الطبقات •• خدمة للتنمية ضد التخلف والاستقلال ضد الاحتلال •• ولحسن الحظ فان الاسلام يسمح بذلك ، فقد أتى للدفاع عن مصالح الجماهير ، وللحفاظ على الاستقلال ، والشخصية القومية •• وأنا أحاول تكوين ثقافة وطنية ، مســتخدما اعادة الموروث الحضارى عنــد الجماهير ، والتى آراها فى التراث الدينى القديم ، والامثال الشعبية •• والتفسير العصرى للقرآن فى رأيه لا يعنى التفسير العلمى ، فالعلم يتغير ، ويخضع لقوانينه الخاصة •• ولكنه يعنى التفسير الاجتماعى ، السياسى والاقتصادى ، الذى يرى الواقع الاجتماعى مستلهما النص الدينى • فنحن فى مصر مثل يجب ألا نغفل قضية الارض •• فعندنا ٦ ملايين فدان ، و ١٨ مليون فلاح ، والتوزيع العادل أن يكون لكل فلاح ثلث فدان •• فالذى يملك فدانا يأكل طعام اثنين من زملائه ، والذى يملك عشرة أفدنة يأكل طعام ثلاثين فلاحا ، والذى يملك ٥٠ فدانا يأكل طعام ١٥٠ فلاحا • فالواقع المصرى لا يسمح على الاطلاق

بملكية الارض أكثر من ثلث فدان لكل مزارع ، وبهذا الشكل تحل مشكلة ١٢ مليونا من الاجراء الزراعيين ••

والمثل الثانى الذى أريد أن أوضحه ••••

● قبل أن نتحدث عن هذا المثل الثانى •• دعنى أقف هنا يا دكتور •• متسائلا عن قضيتين •• الاولى •• موقف الاسلام من الملكية ، الثانية ما قد يتسبب عن ذلك الذى تطالب به ، من تفتيت للملكية • وكان الذى طرحه الدكتور حسن حنفى مفاجأة غريبة بالنسبة لى ••

قال : الملكية فى الاسلام لله وحده « لله ملك السموات والارض » والانسان مستخلف فيما أودعه لديه كأمانة له حق الانتفاع بها ، وليس له حق الاضرار بالغير •• والاسلام يمنع المؤاجرة فى الارض ، فهو ضد أن يملك انسانا أرضا ، ويؤجرها الى غير يعمل فيها ، ولكنه يسمح بالاشتراك فى زراعة الارض بمجهود مشترك ، ومن ثم فالاسلام أقرب الى المزارع التعاونية والجماعية • فاذا تذكرنا أن الاسلام يمنع تكديس الاموال ، وكنزها ، ويوصى باستثمارها ، يستحيل على المسلم أن يترك وراءه سوى العمل الصالح ، والذكرى الطيبة • والرسول لم يترك وراءه سوى درع مرهونة لشخص يهودى •• واذا حللنا آية الميراث نجد أن الوصية تمتد الى الوصية بالدين ، وبالتضحية وبالعواطف ، وانه يمكن كتابة وصية للمصلحة العامة ، وتوريث غير الاقرباء •• ووفاء الدين بالوصية ، وان تخصيص نصيب للرجل ضعف نصيب المرأة ، يدل على أن الغاية هى الاستثمار • أما تفتيت

الملكية الذى نتحدث عنه فهو ليس خطرا ، والداعون الى الميكنة الزراعية هم مقلدون للغرب الذى يعانى من اتساع رقعة الاراضى ، ونقص الايدى العاملة وظروف الجو التى لا تسمح بالعمل فى العراء ، وطبيعة الارض الصحراوية •

هناك الآلة ضرورة ، لانها تقوم بعمل أكثر من مائة عامل • أما فى مصر ، فالرقعة محدودة ، والايدى العاملة متوفرة ، والتربة طينية •• يستطيع كل فلاح بفأسه ، ومحراثه أن ينتج أكثر مما تنتجه الآلة •

● مؤلفات الدكتور حسن حنفى ، ودراساته بالانجليزية ، والفرنسية ، أكثر مما كتبه بالعربية ، وكلها تركز على قضية الدين والتقدم •• والثورة •• وهى من أشهر المؤلفات فى أوربا •• وكانت البداية لمناقشة هذا الموضوع هو المثل الثانى الذى ضربه •

ــ ان متوسط الدخل القومى فى مصر ، وفقا لآخر الاحصائيات حوالى مائة جنيه سنويا للفرد الواحد ، فالذى يتقاضى مائة جنيها شهريا يأكل طعام ١٢ مواطنا والذى يأخذ ٥٠٠ جنيه قد أكل طعام ٦٠ مواطنا اذ أن الواقع المصرى لا يسمح بأية فوارق كبيرة فى الدخول ، أو أى تركيب طبقى ، ولابد من وضع حد أدنى وحد أعلى للدخول •• وقد آخى الرسول بين المهاجرين والانصار ، واقتسموا أموالهم فيما بينهم •

● ولكن هناك نص صريح فى القرآن الكريم على تفضيل البعض على البعض الآخر •• ؟

— المسألة هنا ليست فى النص ، ولكن فى طريقة التعامل مع النص ، فنحن نذهب للقرآن بحثا عن تلبية مطالب المجتمع . البداية هى الواقع الذى أعيشه ، وأعانى منه ، والذى أريد أن أغيره . فمأساتى هى تفاوت الناس فى الرزق ، أو كما يقول الاقتصاديون ، العمولات ، والقطط السمان ، والدخول الطفيلية ، وقطاع المقاولات وتجار الجملة ومملكة العجول .. أليست هذه مأساتى ومشكلتى ، اذن لابد أن أبحث فى القرآن عما يحل هذه المشاكل ، ويضع حدا للجشع ، والكسب الحرام .. ومن ثم فانى أقرأ القرآن فأجد فيه « كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » . وأجد فى الحديث أن المجتمع الواحد الذى فيه انسان جائع تبرأ ذمة الله منه كما أجد « الناس شركاء فى ثلاث : الماء ، والكلأ ، والنار » والذى يختار من القرآن آيات تعكس التفاوت فى الرزق ، وتعمل على زيادة الكسب غير المشروع فانه يكون ضحية التفسير الرأسمالى للدين . المسألة اذن هى : هل يفسر الدين لصالح الجماهير أم لصالح الاقلية ، والتفسير لصالح الاغلبية هو الذى يخدم المصلحة العامة .. وكان فقهاء المسلمين دائما فى صالح الجماهير ، يعذبون ، ويسجنون ضد التفسير لصالح الاقلية أو السلطة . السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو من الذى يكشف عن الوجه التقدمى للاسلام ومهمة من هذه .. ؟ ان علينا أن نبدأ بمتطلبات الواقع ، مثلا التنمية ، والعدالة الاجتماعية ، والاستقلال الوطنى .. وهذه مهمة يقوم بها جميع المسلمين . فليس فى الاسلام رجال دين ، والجماهير الاسلامية تفرض مصلحتها على الولاة ؛ كما أنها أيضا مهمة فقهاء المسلمين الذين هم الرقباء على السلطة والمدافعون عن المصلحة العامة التى هى أساس الشرع .

● ان هذا يعنى — يا دكتور — أن على كل مسلم أن يجتهد ، ولكن مجمع البحوث الاسلامية له رأى مختلف ، فقد أباح الاجتهاد لجماعات الفقهاء من المسلمين وليس للافراد •• أى أنه أباح الاجتهاد الجماعى •

وقال : ان هناك شروطا فى المجتهد ، فى مقدمتها بالاضافة الى العلم ، الوعى بمصالح المسلمين ، وقرار مجمع البحوث الاسلامية يضعه فى موقف الاحتكار التفسير ، ويرجعنا الى تاريخ الكنيسة فى الغرب ، والى ما حذر منه الاسلام • فالاجتهاد — فى الاسلام — حق لكل فرد اذا استوفى شروطه ، وعلى رأسها العلم بالكتاب والسنة ، والوعى بمصالح المسلمين •

يمكننا أن نقول ان الاسلام عندما أتى كان أول من اعتنقه هم فقراء مكة ، ومضطهدوها ، وضعفاؤها ، وأول من عاداه هم أشراف مكة وأغنياؤها الذين كانوا يخشـــون من الدين الجديد على مكاسبهم ، وأوضاعهم وتجارتهم واستغلالهم للعبيد • فالدين ثورة فى صـــالح الفقراء •• والمضطهدين •

● تحركت فى مقعدى ، أشعل سيجارة ، أتأمل انفعالات الدكتور ، أرشف فنجان القهوة ، ولحظة سريعة مضت قبل أن أقول له : وماذا عن القول بأن الماركسية مادية يا دكتور حسن ؟ وانفعل الرجل لاننى أردد خطأ شائعا ، واتهاما تركه الاستعمار الثقافى فى بلادنا بأن الماركسية مادية ، والرأسمالية روحانية ••

وقال الرأسمالية تقوم على الاستغلال ، والسعى وراء الاستهلاك والرفاهية ، وهى أعلى درجات المادية • لقد كانت المادية فى القرن التاسع عشر نظرية تقدمية كرد فعل للنظريات المثالية الخيالية فى القرن الثامن عشر ، وهى — مع ذلــك — ليست الاطار النظــرى الوحيد للماركسية • فالمادية فى هذه الظروف اختيار حضارى حقيقى ، وهى أيضا أساس الرأسمالية • فلماذا نتهم الماركسية بالمادية ، ولا نتهم بها الرأسمالية التى لا تقوم على التفسير المادى للظــواهر الاجتماعية فقط ، ولكنها أيضا تقوم على ترسيخ القيم المادية فى النفوس ، مثل الجرى وراء المال ، والاستغلال ، والمنافسة ، والربــح ؟ الدين فى النظام الرأسمالى نفاق •• اذ يظن الرأسمالى أنه بمجرد حضوره قداس الاحد ، وتبرعه لبناء كنيسة قد نال جزاء الآخرة ، وفى الحقيقة هذه تعمية ، وتغطية على ما يفعل فى الايام الستة الاخرى من استغلال واحتكــار • دعنى أسألك أننا نثنى على ثورات وأعمال جيفــارا ، وكاسترو ، وهوشى منه ، وغيرهم •• هل هؤلاء ماديون أم أن ثوراتهم الاجتماعية ، هى أعلى درجات الروحانية ، ودفاعهم عن اســتقلال بلادهم هو أول واجب من واجبات الدين ، ألا وهو الجهاد ؟ فالانسان — طبقا للاسلام — يقيم بعمله الصالح • وماذا يعنى الدين ، هل هو مجرد العقائد أم أن الدين يعنى الشريعة التى تقــوم على العدل والمساواة ؟ فالعقائد يختلف فى تفسيرها حتى المتدينون ، والماركسية لها تفسير العقائد مثل تفسير المعتزلة ، والاشــاعرة ، والشيعة • فالاساس الاول الذى قامت عليه الشريعة الاسلامية هو الحفاظ على المصلحة العامة • النظم الرأسمالية تركز على الجانب العقائدى من الدين حتى تطمس وتعمى الجانب التشريعى فيه ، من أجل المحافظة

على بنيان المجتمع الرأسمالى الذى يقوم على الاستغلال والاحتكار . فالماركسية اذن لا ترفض العقائد ، ولكنها تفسرها ، وتفسيرها مشابه لتفسير النظام ، والجاحظ ، ومعمر ، وثمامة ، ومن يسمون أنفسهم بالطبائعيين . وليس الدين طقوسا وعبادة ، فقط ، ولكنه انتاج ومعاملة أيضا .. والعمل فى الاسلام هو مصدر القيمة . والذى يعمل بيديه ، ويطعم الآخرين الذين يعبدون الله بالشعائر والطقوس ، هو أفضل منهم . العبرة ليست ببناء المساجد والجوامع ، والصوامع .. ومن يركز على الجانب الشعائرى فى الدين ، هو ضحية للاستعمار الثقافى الذى روج له الفكر اليمينى الرجعى ، والرأسمالى للدين . فبناء المساجد فى الاسلام حرام ، ذلك لانه « جعلت لى الارض مسجدا وتربتها طهورا » . فنحن نستطيع أن نصلى فى الصحراء ، وبدلا من أن نقيم مسجدا نكلفه مليونا من الجنيهات ، فلنعد بهذا المبلغ بناء مجارى القاهرة حتى لا تطفح ، وتلوث الناس ، ويموت المسلمون نتيجة جراثيمها .. أو ننفقها فى بناء مصانع فى الاحياء الشعبية من أجل تشغيل الشحاذين والعاطلين والنائمين على الارصفة من المسلمين . وكان مسجد رسول الله حصى فى العراء[1] .

---

(١) وانهى عبد الله امام حديثه بالعبارة الآتية :

وقال لى الدكتور حنفى وهو يودعنى .. وكأنه يوصينى بمزيد من العمل والعلم .. ان ساعة علم يا أخى خير من عبادة الله سبعين سنة ولقد امضينا فى جلستنا هذه ساعتين .. انهما أفضل من مائة وأربعين سنة عبادة .

(ب) اليسار الاسلامى مشروع حضارى :

سؤال : برز أخيرا عنوان جديد فى عالم الصحافة المصرية والاسلامية عموما ونعنى به صحيفة « اليسار الاسلامى » فلماذا وقع الاختيار على هذا العنوان المثير وما هى أبعاد هذا المشروع الاعلامى ؟

د. حنفى : انى أعتبر نفسى تلميذ سيد قطب ففى سنة ١٩٥١ دخلنا سويا الى الاخوان غير أنه لسوء الحظ ذهب هو ضحية الاخوان، فبدل أن يستمر فى التيار الذى أنتج « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » و « معركة الاسلام والرأسمالية » و « السلام العالمى والاسلام » وهو التيار الذى كان بامكانه أن يخلص العالم الاسلامى من مآسيه ، حدث الصدام بين الاخوان والثورة ودخل سيد السجن وبقى سنتين ثم عاد مرة ثانية واستشهد سنة ١٩٦٥ دون أن يمارس الثورة ويشارك فى العمل الوطنى ولم يطور أفكاره . وكان آخر نتاجه « معالم فى الطريق » الذى أصبح « انجيل » الجماعات الاسلامية حاليا . أما أنا فقد غادرت مصر فى تلك المحنة وذهبت الى فرنسا . وعدت بعد عشر سنوات وأنا فى ذهنى استئناف المهمة التى بدأها سيد فى أواخر الاربعينات : أى بلورة الاسلام الثورى ، الاسلام الاجتماعى وأخذت على عاتقى لم الشتات وتحويل الاسلام الى مظلة يستطيع من خلالها كل وطنى أن يعبر عن آرائه . وفى هذا السياق أنشئت مجلة اليسار الاسلامى ووضعت صورة الافغانى باعتباره أبى الروحى الاول قبل سيد قطب وجعلت الآية القرآنية « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » كشعار للمجلة لاننا نحن

مجلة ١٥ — ٢١ تونس ، عدد صفر ١٤٠٣ نوفمبر ١٩٨٢ .

المستضعفين فى الارض : نحن الذين لا حرية لنا ولا ثورة لنا ، نحن الذين نعانى من الاستعمار واحتلال الارض وتشتت النسل •

والمجلة تعبير عن مشروع حضارى لان اليسار الاسلامى حسب اعتقادى — لا أقول حتمية تاريخية حتى لا أهضم حق الحـرية الانسانية — ولكنه ضرورة حضارية • فالمد الاسلامى الآن مد تاريخى يحاول أن يقيم دورة ثانية للاسلام نحن الآن فى فجرها • وهى بهذا المعنى حتمية تاريخية الا أن التاريخ لا يسير طبقا لقانون حتمى فقط ان لم يزدوج مع ارادة وحرية وعمل وجماهير وجهد حتى تلتقى الحتمية التاريخية والقانون التاريخى مع الارادة والوعى الانسانى والاجتماعى وعندها يمكن أن نحقق ثورتنا المنشودة •

سؤال : ما هى طبيعة المشروع الذى يحمله التيار الاسلامى اليسارى الذى تتحدثون عنه ؟

د• حنفى : اليسار الاسلامى عبارة عن حركة تاريخية جماهيرية. ثقافية حضارية اجتماعية سياسية وثقافتنا ترتكز على ثلاثة أصول : أولا : التراث القـديم — ثانيا : التراث الغربى — ثالثـا : القرآن الكريم • فالموقف من التراث القديم يتحدد باعادة بنائه بحيث أجدد القوالب الذهنية للناس حتى أستطيع فى الاخير أن أحمى الامة وأحمى مصالحها ابتداء من اعادة بناء قيمها ومفاهيمها وتصوراتها وهـذا هو شرط الثورة الدائمة • فالثورة العربية بالرغم من صياغتها لاكبر مشروع فى التحرر العربى الحديث الا أنها انتكست بعد خمسة عشر عاما وانتهت الى ردة • لماذا ؟ لان نفسية الجماهير لم تتغير وعقليتها

لم تصغ بشكل جديد ولان قيمتها ونظمها بقيت ثابتة بالرغم من تغير الهياكل الاجتماعية • فمهمتى اذن هى أن أعيد بناء التراث من أجل بدائل تقدمية مكان المقولات السائدة •

القضية الثانية هى أن أفهم الغرب فى اطاره وتطوره التاريخى وبالتالى أتمكن من أن أحمى نفسى من التغريب • فالتغريب هو اللجوء المستمر للثقافة الغربية بحثا عن حل المشاكل الذاتية اعتقادا أن الغرب يمثل دائما نقطة احالة Point de référence والتحرر من التغريب لا يكون الا بالقضاء على أسطورة الثقافة العالمية التى جعل الغرب نفسه مركزا لها • عندئذ فقد أقدر على مواجهة الغير والتعامل معه •

أما بالنسبة للقرآن الكريم فالذى أعتقده أنه لا وجود لتفسير من أجل التفسير ولا نظرية من أجل النظرية • لقد جاء رجل الى عمر فقال له « يا أمير المؤمنين ماذا تعنى « فاكهة وأبا » فالفاكهة علمناها ولكن ما هذه الابا ؟ فنظر اليه عمر وقال تقريبا : « افرض يا أخى أنك فهمتها أو لم تفهمها فماذا سيغير ذلك من حال المسلمين » • وهذا يجعلنى عندما أقرأ القرآن لا أهتز الا للآيات التى تساعدنى على حل القضايا المطروحة وهى الآيات التى تدعو الى الحرية والآيات التى تدعو الى التعقل والآيات الموجهة ضد الاغنياء والتسلط المواجهة للاستعمار والسيطرة على أراضى المسلمين •

سؤال : لو سمح الدكتور نستوقفه قليلا لنعود به الى بداية الحديث • لقد تحدثت عن سيد قطب معتبرا نفسك تلميذا له والذى نريد أن نعرفه هو : هل التلميذ انحرف عن خط أستاذه أو أن الاستاذ ارتد عن أفكاره الاولى ؟

د. حنفى : سيد قطب هو من أهم الشخصيات التى أثرت ومازالت تؤثر فى الحركات الاسلامية المعاصرة . بدأ حياته ناقدا أو شاعرا فى الثلاثينات وكان يدافع عن الادباء الشبان وساند العقـــاد ضد طه حسين . وكان الناس يأملون من ورائه خيرا فى تطور النقد الادبى . ومع أواخر الاربعينات اكتشف الجانب الادبى فى القرآن يعنى بدأ يكتشف الاسلام ولكن من جانبه الادبى . وكانت الاربعينات أتون الحركة الاجتماعية والسياسية فى مناهضة الاستعمار والدعوة الى استقلال مصر وطرح العدالة الاجتماعية . وهنا تحول سيد قطب من الجانب الادبى الى الجانب الاجتماعى فى القرآن فكتب آثاره الثلاثة التى ذكرتها آنفا . وكان سيد محورا للتقدميين الاشتراكيين والقوميين والوفديين وكان مآله دخول حركة الاخوان . ولقد حرر بعد ثورة « يوليو » برنامج الاخوان وذلك عندما طلبت قيادة الثورة من كل الاتجاهات السياسية أن تقدم برامجها . وعندما صدر قرار حل الاحزاب لم تحل جماعة الاخوان لانها لم تعتبر حزبا سياسيا . وكانت الجماعة عنصر ثقة من الناس وتمثل الجميع فيها خيرا . ولكن لسوء الحظ ولحرص كل من الاخوان والثورة على السلطة حدث صدام ٥٤ بعد معارضة الاخوان لمعاهدة الجلاء التى عقدها عبد الناصر مع الانجليز والتى كانت تسمح لهم بحق العودة الى قنال السويس واستعمال مطارات مصر ... الخ . وهكذا عارض الاخوان عبد الناصر وأخذوا محمد نجيب الذى كان يدعو الى الوحدة الاسلامية . وخسر محمد نجيب وخسر الاخوان واستشهد عبد القادر عودة ورفاقه ووضع الآلاف فى السجون . وفى السجن تكون سيد قطب آخر هو الذى ظهر فى معالم فى الطريق والذى عبر فيه عن نفسية السجين بين الجدران فدعا الى

تكوين جيل قرآنى وطليعة مؤمنة قادرة على التغيير • والافتراض الذى أطرحه هو لو قدر لسيد أن يعيش خارج السجن وأن يساهم فى العمل السياسى ويرى تأميم القنال فى ٥٦ ويعايش نضال الشعب المصرى ضد العدوان الثلاثى ويرى الوحدة مع سوريا ٥٨ والبناء الاشتراكى لمصر فى ٦١ لان ما حدث فى مصر هى أفكار سيد قطب الاولى لكان من مؤسسى اليسار الاسلامى • ومن هذه الزاوية أعتبر اليسار الاسلامى استئنافا لسيد قطب فى كتاباته الاولى •

سؤال : وكأنى بك تعذر سيد وكل الذين ساروا على دربه ؟

د• حنفى : أنا يا أخى أفهم جيدا لماذا مثلا يستهوى « معالم فى الطريق » الشباب المسلم لاننا فى نفس الظروف النفسية التى عاشها سيد قطب : مضطهدون ، مسجونون لا السجن فى معناه الضيق « أربع جدران » ولكنه السجن الكبير حيث لا حرية لنا فى التعبير • وحيث لا حل يبدو الا تكوين طليعة مؤمنة « جيل قرآنى فريد » وأن نعتبر أن لا اله الا الله منهاج حياة ••• الخ • ولكن كيف سنحقق ذلك بالفعل ؟ هل بالصراع بين الاسلام والجاهلية « الواقع المضاد » أم عن طريق احتواء الاسلام « للجاهلية » ؟

أنا أعتقد أن هناك صراعا بين الاسلام والواقع المضاد • هذا هدف لكنه لابد أن يتم عبر مراحل • فالذى يريد تحرير فلسطين باسم البروليتاريا العالمية هل أعتبره عدوى أم صديقى المرحلى ؟ الذى يريد أن يوحد الامة باسم القومية العربية هل أعتبره عدوى أم صديق المرحلة ؟ كذلك الذى يدافع عن العدالة الاجتماعية • ومن ثم فأنا مع

سيد قطب وتلميذ له وتعلمت منه الكثير ولازلت حتى الآن عندما أقرأ « معركة الاسلام والرأسمالية » أشعر وكأننى مع أكثر من ماركسى. ومن ثم فأنا أضع يدى مع أيدى كل من يشاركوننى أهداف الحرية والعدالة الاجتماعية ومقاومة الاستعمار والصهيونية ومقاومة التخلف والقهر وسيطرة الاغنياء واستيلائهم على خيرات البلاد .

ولماذا الوقوف عند « معالم فى الطريق » ؟ فكلنا مجتهدون ومهمتنا تطوير الفكر النظرى للحركة الاسلامية ولعل على شريعتى مثلا يمثل احكاما نظريا أكثر من سيد قطب بل لعله يمثل قطيعة مع سيد قطب الثانى . وبالتالى مع احترامنا لسيد قطب الاول واعتزازنا بـه وفهمنا لسيد قطب الثانى الا أننا نريد أن نخرج الحركة الاسلامية من مرحلة رد الفعل الى مرحلة الفعل ومن مرحلة نفسية السجين الى مرحلة الافق الواسع والارض الرحبة والتسامح مع الناس . ولا يجب أن يغلب الثأر قلوبنا بل علينا أن نتطور ونعى الدروس ونعذر مخالفينا الذين نشأوا فى غياب البديل الاسلامى الثورى .

سؤال: هناك شبهة تثار دائما تؤكد أن « اليسار الاسلامى » هو خليط بين الاسلام والماركسية ، فما هو ردكم على هذه الشبهة وكيف تحددون العلاقة بين الطرفين ؟

د. حنفى : السؤال فى ذاته يدل على مدى التغريب الذى شمل مجتمعاتنا . مازلنا نظن أن الماركسية نتاج الغرب وأن الاسلام نتاج الشرق وأن أى انسان يريد أن يحافظ على هويتـه ويحل قضاياه الرئيسية التى يعيشها فى مجتمعه فما عليه الا أن يوفق بين الاسلام

والماركسية انطاقا من خلفية تجعل من الغرب مقياسا حضاريا . هذا خطأ فى وضع السؤال . وقد تسألنى ماذا أفعل وماذا سأرفض من الماركسية أو من غيرها ؟ فأجيبك أننى يا أخى لا أرفض ولا أقبل أننى أفعل كما فعل الفلاسفة المسلمون عندما اكتشفوا العقل فى القرآن الكريم واستخرجوه من ابراهيم . فكان الفلاسفة اليونان رفاق نضال بالنسبة لهم . وكذا الشأن عندى أنطلق من الاسلام باعتباره دعوة من أجل الحق والخير والعدالة والمساواة وفى الطريق سألتقى بمن يهدفون الى نفس الغايات فأعتبرهم رفاق نضال ومن بين هؤلاء ماركس الذى نجله ونحترمه لانه ساهم فى كشف عدة حقائق عامة كما استطاع نقد المثالية ودافع عن الطبقة العاملة وأقام نظرية فى « رأس ماله » وبين أن العمل هو مصدر القيمة وقد أقيم له تمثالا فى ميدان الاستقلال تعبيرا عن احترامى له ولكنه لن يتحول عندى الى بديل عن ابن خلدون. أننا فى غياب البديل الاسلامى الثورى لجأنا الى الماركسية لحل قضية العدالة الاجتماعية والى الليبرالية لحل القمع المسلط على شعوبنا والى القومية لانهاء حالة التشرذم والى ديكارت لتأكيد العقلانية . والرد على موجة التغريب هذه تمثلت فى الدعوة التى طرحتها فى مجلة « اليسار الاسلامى » وفى كتابى « التراث والتجديد » والقائمة على اعادة تأسيس العلوم الاسلامية وقراءة جـديدة للتراث الاسلامى وللتراث الغربى .

سؤال : اذن فأنت تعتبر انهاء حالة التغريب تتم عبر الحسم فى اشكالية التراث والمعاصرة ، وعبر تحديد موقف علمى من الغرب باعتباره التحدى الثانى بعد التراث ؟

د. حنفى : لابد أن آخذ موقفا من الغرب . أنا لست غربيا وان درست فى الغرب ودرست فلسفته ولكنى مسلم . والغرب بالنسبة لى هو التحدى الاعظم لا فقط فى الارض والزراعة والصناعة والاقتصاد ولكن فى الغزو الثقافى والروحى يريد أن يجعلنى دائما متعلما وأن يوهمنى أنى مهما حاولت اللحاق به فمعدل انتاجه أسرع بكثير من معدل لحاقى به وبالتالى تتسع الفجوة الحضارية بينى وبين الغرب فأصاب بالصدمة الحضارية فأجرى يائسا حتى أموت . تلك هى نظرته الينا هو الاستاذ ونحن التلامذة . أنا أريد أن أغير هذا الوضع أن أنقل الحضارة الاسلامية الحديثة من مرحلة التتلمذ على الغرب الى مرحلة الانفصال والتحدى ثم الأبداع والاحتواء . أصبح المسلم حاليا لا يستطيع أن يتكلم فى الحرية الا اذا كان ديكارتيا وفى العـدالة الاجتماعية الا اذا كان ماركسيا . فأصبح الغرب هو المعيار والميزان . فمهمة المسلمين هى الوقوف أمام الغرب وتحديه ثم الابداع المستقبلى. وهى ليست مشكلة التكنولوجيا فقط ولكنها معركة التحدى الحضارى. أن القاء نظرة على الساحة الفكرية للعالم الاسلامى تبرز انتشـار العديد من التيارات الغربية لغياب وعينا الثقافى بعد أن استعمر الغرب أراضينا منتقلا من الاستعمار السياسى الى الاستعمار الاقتصادى والثقافى . ومن ثم نشأ بيننا ممثلون للحضارة الغربية ووكلاء من المذاهب الفلسفية الغربية . وحين أردنا حل مشاكلنا ولم نجد البديل الاسلامى الثورى القادر على حلها لجأنا بالضرورة الى الماركسية لحل قضية العدالة الاجتماعية والى الليبرالية لحل قضايا القمع . أما بالنسبة لى فبوعيى لتراثى القديم وبقدرتى على مواجهة الغير أقوم بمهمة ثانية وهى القضاء على أسطورة الثقافة العالمية التى يروج لها

الغرب • وبالتالى أفهم الغرب فى اطاره وتطوره وأستطيع أن أحمى نفسى من التغريب ومن أجل أن أحل مشاكلى باللجوء الى الثقافة الغربية فليس كل مدافع عن الحرية بليبرالى ••• اذن فالقضاء على التغريب هو فى نفس الوقت حماية للمسلمين من الاستلاب الثقافى واكتشاف النظرية الابداعية من الداخل وليس من الخارج •

ان شرط عمليات الابداع هو عدم التقليد وأن ايمان المقلد فى علم أصول الدين لا يجوز • ومن ثم فأنا أردت أن أحل قضية العدالة الاجتماعية نظرا لانى أعيش بين الفقراء والاغنياء وأحل قضية الحرية لانى أعيش فى ظل نظم قمعية • وأنا لا أستطيع أن أكون مسلما ثوريا لو كنت مقلدا لابى ذر الغفارى لان شرط الابداع هو عدم التقليد •

سؤال : أود أن •••

د• حنفى : أريد لو سمحت أن أتعرض بالمناسبة الى مقولة سمعتها كثيرا هنا فى تونس وأيضا بالمغرب وهى ما تسمونه « بالقطعية الابستمولوجية » Coupure epistemologique وهى مقولة أصبحت تستعمل كالمفتاح السحرى الذى به يستطيع المثقف العربى أن يرفع كل التباس• وأنا هنا لا أنقد ولكنى ألاحظ • فالغرب بعد عصر الاحياء فى القرن الرابع عشر ميلادى أحيا الادب القديم وأقام الاصلاح الدينى فى القرن الخامس عشر بربط الانسان مباشرة مع الله ثم بعد الاصلاح الدينى جاء عصر النهضة فى القرن السادس عشر وكانت بداية القطعية بين الماضى والحاضر واللجوء الى العلم والطبيعة باعتبارها المصدر الوحيد للمعرفة • ومع اكتشافات القرن السابع عشر تطورت مناهج البحث ووسائل المعرفة ونظرية المعرفة فى ذاتها حيث لم يصبح الوحى طريقا

اليها ولا الكتاب المقدس طريقا للعلم ولم يعد أمام الانسان الغربى الا الحواس والعقل وربما الوجدان فيما بعد عند الرومانسيين . فنظرية المعرفة الغربية تأسست بعد أن فقد هناك الغطاء النظرى للوعى الاوربى الذى قطع نفسه عن الماضى على عدة فترات وقطع نفسه عن كل المعارف المسبقة بعد أن اكتشف زيفها وتسلطها وتعارضها مع العلم والطبيعة والانسان . انطلق الجهد الانسانى الخالص يعالج القضايا الاوروبية التى أفرزها عصر التنوير والنهضة الصناعية والفكر الدروينى والمادية الوضعية .. الخ ثم أزمة القرن العشرين أزمة كل المدارس . فى هذا السياق عندما أسمع عن القطيعة الابستمولوجية والتحديات النظرية يتملكنى احساس بالخشية أن تكونوا قد وضعتم أنفسكم فى تطور الوعى الاوربى بينما نحن خارجون عنه لان الغطاء النظرى للعالم بالنسبة لنا لم يسقط بعد . فأنا عندما أريد أن أعرف مازالت نصوص القرآن وأقوال الرسول والقدامى والغزالى وابن تيمية وابن رشد جزءا من طريق المعرفة . يعنى مازال التراث بالنسبة لى مصدرا من مصادر المعرفة ولم تحدث قطيعة بينى وبينه وبالتالى لا توجد لدى نظرية للمعرفة بالمعنى الاوربى لانى لم أمر بعد بهذه المراحل . وأرجو أن لا يحدث ذلك لانه ليس بالضرورة أن يكون نمط القطيعة مع الماضى هو نمط لكل حضارة ولكل شعب يريد أن يتقدم . نمطى هو الآتى وسأكون دقيقا : أنا جزء من التاريخ وأنا حامل رسالة أربعة عشر قرنا وأنا مسؤول عن هذا التراث وكلنا مسؤولون عنه . نحن لسنا مستشرقين لان المستشرق هو الذى ينظر الى هذا التراث كما ينظر الى التراث الهندى أو الصينى أو الفارسى باعتباره مادة علمية أما نحن فجزء من الموضوع نحن الذات والموضوع فى وقت واحد . فعندما أدرس

التراث أدرس أبى وجـدى وروحى وجسمى وتـاريخى وحاضرى ومستقبلى • وبما أنى جزء منه ومسؤول عنه لابد أن أعرف تماما فى أى مرحلة من التاريخ أنا • لابد أن يكون فى ذهنى احساس بالاربعة عشر قرنا فأعى أن فى القرن الاول نشأت الحضارة الاسلامية وفى الثانى بدأت تتأصل ووصلت فى القرن الرابع الى أوجها ثم محنة الغزالى ومحنة العلوم العقلية على يديه ومحنة ابن رشد فى القرن السادس وآخر صحوة عند ابن خلدون وابن تيمية فى القرن الثامن • وفى أواخر القرن الثمانية انتهت الحضارة الاسلامية التى مازلنا معجبون بها • وفى القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر وهى الفترة التى استكانت فيها الحضارة الاسلامية ولم تعد قادرة على الابداع فسميت بعصر الشروح والملخصات ثم كانت بداية عصر نهضة اسلامية جديدة مع محمد بن عبد الوهاب ، الافغانى ، محمد عبده ، رشيد رضا ، البنا وسيد قطب • اذن فنحن ورثنا هذا التيـار كله ونعى أنه لم تحصل قطيعة وانما حصل تواصل واستمرار •

سؤال : اذن ما العمل ؟ وكيف يجب أن تكون علاقتنا بهـذا التراث ؟

د• حنفى : كل ما أستطيع أن أفعله هو الآتى : أن آخذ العلوم الاسلامية كما ورثتها وهى كالآتى ثلاث شعب رئيسية :

١ ــ العلوم النقلية •

٢ ــ العلوم العقلية •

٣ ــ العلوم النقلية ــ العقلية •

العلوم النقلية وهى التى تعتمد على النقل فقط وتشمل خمس علوم : علوم القرآن ، علوم الحديث ، علوم التفسير ، علوم السيرة وعلوم الفقه . ويعتمد كل منها على النقل والرواية . أما العلوم النقلية الخالصة فهى تمثل علوم الرياضة والطبيعة والفلك والهندسة والحساب. ثم العلوم العقلية النقلية وهى الاهم التى تجمع بين العقل والنقل مثل علم أصول الدين وأصول الفقه والحكمة وعلم الكلام وعلم التصوف الالهى خاصة فى فترته الاخيرة . وربما نضع بعض العلوم الانسانية من علوم اللغة والتاريخ والجغرافيا والادب . هذه هى صورة الحضارة الاسلامية التى وثناها كما ورث الغرب اليونان والرومان والعصر الوسيط والذى حاول أن يخلد نفسه باحياء الرومان واليونان فى القرن الرابع عشر (عصر الاحياء) فلم يفلح فحاول أن يصلح الدين فى أواخر العصر الوسيط فلم ينجح فجاء عصر النهضة وقام بالقطع فنتج عصر اقامة النظريات .

أما أنا فالتحدى النظرى الذى أعيشه هو فى الحقيقة من باب الاشكال النظرى وليس الاشكال الاشكالى . فأنا عندى ثلاث منظومات من العلوم فآخذها علما علما وأعيد تأسيسها فى ضوء المتغيرات .

سؤال : لو ضربت لنا أمثلة حتى ندرك أبعاد ما تقول :

د. حنفى : لنأخذ مثلا علوم القرآن انطلاقا من كتاب « الاتقان فى علوم القرآن » للسيوطى فسنجد علم المكى وعلم المدنى وعلم الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وأول ما نزل منه وآخر ما نزل . ومسؤوليتى

أن أعيد بناء هذه العلوم لا أن أقطع معها لانني مازلت أرى لها دلالة • فمثلا يعيب علينا الغرب ويتهمنا بأننا شعوب تعيش مع الخلود ولا تعرف معنى للتقدم ولا للزمان ولا للمراحل ، ولا نعرف الا السباحة فى الفناء والالوهيات الى آخر الزمان • أما أنا فانى أجد فى قضية الناسخ والمنسوخ أساسا لقضية الزمان : فهناك قانون ثم قانون ثم أهلية ثم قدرة وتغيير الاخف بالاثقل والاثقل بالاخف ونسخ بالقراءة ثم نسخ الحكم من القراءة ونسخ القراءة من الحكم وبالتالى فقضية الناسخ والمنسوخ هى وجود الوحى داخل الزمان وداخل التاريخ ويعمل بسنن التقدم •

كما أجد فى أسباب النزول أولوية الواقع على النص فالله سبحانه وتعالى لا يتكلم جزافا بلا سبب ولا مطلب فكانت الواقعة تقع ثم يتلوها الوحى • فالمنهج الاسلامى لا يبدأ بقال الله ، قال الرسول ، انما يبدأ بالواقعة بطرح المشكلة وأن الواقع الاجتماعى يسبق الفكرة (نزول القرآن منجما) • والمكى والمدنى دلالته تتمثل فى أن الآيات المكية تحتوى على التصور النظرى للعالم فى حين أن المدنى هو القانون الذى خرج من ذلك التصور • اذن فالتصور الاسمى يجب أن يكون نظرية للكون وللحياة كما عبر عن ذلك سيد قطب ثم ينبثق عن ذلك التصور قانون وتشريع • فالاولوية اذن للتصور لا للقانون •

سؤال : وماذا ستصنع مع علم أصول الدين (علم الكلام •

• حنفى : آخذ مثلا صفات الله المشهورة : العلم ، القدرة وغيرها ، واذ دافع علماء الكلام القدامى عن الله الموحد ونجحوا فى علم العقائد) ؟

ذلك ووصلوا الى أن الله ذات لها صفات مطلقة العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام كما هو موجود فى الكتب السلفية وكتب العقائد منه « الفقه الكبير » لابى حنيفة حتى كتب العقائد التى ندرس بجامعاتنا ، لكن بالنسبة لى فان المهم هو كيفية استعمال تصورنا لله فى حاجات المسلمين ، العلم مثلا صفة الاهية ، لكن الامية متفشية عندنا فكيف يعقل أن نؤمن بالله عالم ونحن جهلة ؟ فاذا أردنا أن نقول أن الله عالم كان لزاما علينا نشر العلم والقضاء على الجهل باسم الله ، كذلك القدرة لله لكن المسلمين عاجزون بلا قدرة فلابد أن يتشبه المسلمون بصفات الله ، الحياة والمسلمون أموات ! البصر والسمع والكلام والمسلمون لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتكلمون ! ومن ثم لابد أن يتحول تصورنا لله الذى ورثناه فى علم العقائد الى تصور حى فى قلوبنا نسمع ونتكلم ونبصر باسمه ،

فعلم الكلام ليس علما مقدسا ولكنه نشأ فى ظروف معينة ، اذا تغيرت هذه الظروف تغير هذا العلم ، فعدم احساسى السياسى وعدم ادراكى لظروف العصر هو الذى جعلنى أنقل العلم بمادته وظروفه القديمة دون أن أتفطن الى الفارق بينها وبينى وبالتالى فان هذه الصفات الالهية التى قدسها المعتزلة والاشاعرة وغيرهم اعتبرها أهدافا وغايات اجتماعية وسياسية ، فوفقا لهذه الصفات أعمل على تحقيق العلم ، وأدعو الناس الى الرؤية والسماع والقدرة وبالتالى أعمل من أجل حرية الفكر والقول والعمل والتجمع أى الديمقراطية ومن هنا فان مهمتى فى علم أصول الدين تتمثل فى اعادة صياغة قضية علم التوحيد حتى أستطيع مواجهة الخطر الحالى ،فاربط بين العقيدة والارض

وأجد فى القرآن ما يحمينى فى مسألة نهب الارض والثروات • هذا ما أعتقد أنه احدى الوسائل التى بامكانى استعمالها بالنسبة لعلم أصول الدين من الداخل وبالتالى فهناك تواصل فى آداء المهام بينى وبين القدماء • هذه اذن محاولات أقوم بها لاعادة احياء التراث القديم للدخول فى مشاكل العصر لاتمكن من تقديم البديل الاسلامى الثورى المستنير الذى يستطيع أن يحرس المسلمين من التيارات الرجعية أو من التيارات العلمانية الحديثة •

سؤال : ألا ترى أن منهجك التأصيلى هذا قد يدخلنا فى متاهات واشكالات القرون الماضية ونحن فى أشد الحاجة الى الارتباط بواقعنا ؟

د• حنفى : على العكس من ذلك فاعادة بناء التراث تستهدف تحريك القوالب الذهنية للناس حتى نستطيع فى الاخير أن نحمى الامة وأن نحمى مصالحها ابتداء من اعادة بناء قيمها ومفاهيمها وتصوراتها • هذا هو شرط الثورة الدائمة • فمهمتى أن أعيد التراث القديم لاجد بدائل تقدمية مكان البدائل السائدة • مثلا فى علم أصول الدين سادت الاشعرية قديما وهى التى دافعت عن التوحيد ولكن خطورتها أنها ازدوجت مع الدولة السنية وأصبحت أيديولوجية الدولة فى حين أن الاعتزال مثلا فى علم أصول الدين يدعو الى أن العقل أساس النقل ، الى أن الله واحد ليس كمثله شىء دون أن يشخص ، والى أن الانسان له ماض ومستقبل ، والى أن العمل جزء من الايمان • وكذلك فى الفقه أعطى الاولوية للفقه العملى الذى يقوم على المصالح العامة على الفقه النظرى الافتراضى • كذلك فى الفلسفة لابد أن أظهر أهمية الفكر الاجتماعى والسياسى دون أن أرتبط بالضرورة بالتفكير الميتافيزيقى

النظرى • وأنا فى كل ذلك لا أقلد أحدا من القدامى ولا من الغربيين والمحدثين ولكنى أجتهد رأيى • عندى القرآن والسنة والاجماع والقياس وعندى المصالح العامة وعندى طرق الاستدلال وعندى شروط وهى أن لا أبغى هوى ولا أفتى لسلطان ولا أبغى مالا وأكون عالما بالشريعة وباللغة العربية وأدرك مصالح المسلمين وأبغى وجه الله • لذا فانه من الضرورى بالنسبة للحركات الاسلامية أن تكون واعية بأهمية المصطلحات والمناهج واللغة والقضايا المصيرية وأن تكون قادرة على الدخول فى تحديات العصر • كذلك فان كل مسألة نظرية عارية عن أى غاية عملية يكون وضعها فى أصول الفقه ضمن الاوهام • ومن ثم فأنا ألجأ كثيرا الى النواحى العملية فى الاسلام وقد أبدأ بالاجتهاد مباشرة • خذ مثلا قضية العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة فأنا لا أحتاج أن أبحث مباشرة فى القرآن عن نص وان لم أجد أتجه الى السنة ثم ••• الخ • ففى تقديرى هناك واقع ومصالح مرسلة وبالتالى أنا أقلب هذه الادلة فأبدأ بالاجتهاد وبالرؤية المباشرة وبالواقع فان لم أجد ضالتى على بالاجماع : اجماع الناس والقرآن سيكون معى • الاحساس بالناس وبالواقع والملابسات والتاريخ هى التى تجعلنى قادرا على أن أعيد بناء علم أصول الفقه حتى أعطى للناس الجرأة على الاجتهاد والتشريع •

(ج) العلمانية والفكر الانقلابى وتحديات العصر :

- العلمانية خطأ استوردته النخبة مسقطة أسبابه فى أوربا •
- الفكر الانقلابى غريب عن الاسلام •
- سبع قضايا تتحدى الامة ، والاسلام قادر على مواجهتها •

سؤال : الحركات الاسلامية الآن التى تحاول أن تخرج بالامة من واقعها الراهن فيها تيارات تعبر عن الواقع الاسلامى ، بما يعرف اليوم بـ « الصحوة الاسلامية » ، هذه التيارات تضم مساحة واسعة من مجموعات تكفر المجتمع ، وترى الثورة على هذا المجتمع ، وتيارات ترتبط بالسلف ، الى جانب آراء الذين يؤمنون بضرورة التطور من البداية • هذه الهوة الكبيرة بين المواقف ، نحب أن نسمع رأى الاستاذ حنفى فيها ؟

جواب — أشكر الاخوة فى جريدة « الرأى » على هذه الثقـة التى أولونى اياها • ونحن نعرف أن الصحافة العربية منذ نشأتها كانت صحافة « رأى » وحتى لفظ « الرأى » لفظ جيد ، والرأى أحد الالفاظ القديمة فى علم أصول الفقه •

ندوة فكرية فى جريدة « الراى » الاردنية ، ٢٩ /١٩٨٤/٣ وقـد صدرت الجريدة الندوة بالفقرة الآتية :

نظمت « الراى » ندوة فكرية للاستاذ الدكتور حسن حنفى استاذ بقسم الفلسفة فى جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس بالمغرب ، شارك فيها السيد كامل الشريف ، والدكتور عبد السلام العبادى وكيل وزارة الاوقاف ، وعدد من الزملاء فى « الراى » . وادار الندوة السيد جمعة حماد ، المدير العام لـ « الراى » ، وعلى مدار الساعة ، تحدث المفكر الاسلامى الدكتور حسن حنفى فى هموم الامة الاسلامية ، وتناول بالشرح والتفصيل الاوضاع الراهنة للحركات الاسلامية بجميع ملامحها واتجاهاتها، وتناولت الندوة بواعث الحركات الاسلامية المتطرفة ، والعلاقة بين الجماهير والحكام . قضايا كثيرة ، من التراث والواقع ، والتغريب والهوية ، كانت فى ندوة « الراى » التى تحدث فيها الدكتور حسن حنفى .

ويفرقون بين « الرأى » والهوى ، فالهوى هو الرأى الخاص الذى لا يبغى الحق ، فى حين أن « الرأى » هو الرأى الذى يبغى صاحبه الحق ، ولذا فاننى أرجو لهذه الندوة أن تكون تحقيقا « للرأى » بالمعنى الاسلامى ، الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم • أقول اذن أننا نرجو من هـذا الحوار ما ينفـع الناس جميعـا ، ربما تعليقـا على سـؤالك قبل أن نبـدأ أقـول ان هنـاك تيـارين ، تيـار يكفـر ، وهـو تيار بعيـد عن السـلف ، وهنـاك تيار السـلف • ربما أهم شىء فى التعامل مع الحركات الاسلامية . هو فهم ظروفها : فهم أبناؤنا واخوتنا ، وهم أقرب الى قلوبنا ! « السلف القدماء » كانوا منتصرين ، حضارتنا الاسلامية ، كانت حضارة منتصرة وفاتحة ، ومن ثم نشأت ظروف صحية للحديث عن الاسلام • الجيوش فاتحة ، والبلاد مفتوحة ، والعقول مفتوحة ولهذا فان أهل السـلف ، كانوا يدافعون عن الاسلام من منطلق المنتصر الصحيح ، كما يفعل الغرب الآن حين يتعامل معنا •

لكن الحركة الاسلامية الحالية ، ليست كذلك . تعيش فى مجتمع متخلف ، ومهزوم ، وتقع عليها ألوان من الاضطهاد • ولذلك علينا أن نأخذ هذه الظروف فى الاعتبار ، وهناك الكثير ، مما يقولون ، فى عقائدهم ، وآرائهم وممارساتهم ، يرجع الى هذا الاختلاف فى الظرف التاريخى ، بين السلف وبين الخلف ، وأرجو أن تأخذ هذا بالاعتبار •

سؤال : كيف يمكن أن تبلور نظرية موجودة من هـذا التراث

بحيث يناسب العصر الذى نعيش وكيف يمكن أن نجمع الانصار لمثل هذه النظرية ؟؟

جواب : عندما نتحدث عن الاسلام فاننا لا نتحدث عن الاصول الاسلامية وهى القرآن والسنة ، أى الوحى ، فالوحى « كلنا لرسول الله منتسب » ومن ثم يهمنا نحن « التراث » ، أى كل اجتهادات القدماء والمحدثين لفهم هذا الوحى كل طبقا لظروفه . التراث متعدد ، وبه نظريات متضاربة ، ونشأ التراث الكلامى الفلسفى ، الصوفى ، والفقهى ، ... الخ . كل جانب يخدم قضية ، أو فرقة ، أو مصلحة ، فهى الصورة النظرية لتاريخ الاسلام السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وذلك دارج ، وفى كل حضارة . لكن المهم أن نعرف ، ان التراث القديم فيه فرق عديدة ، لنأخذ مثلا علم الكلام ، حيث ساد فى علم الكلام تيار يخدم استقرار الدولة ، وهو « التيار الاشعرى ». ليقف فى وجه الفرق السياسية المعارضة لاستقرار الدولة ، واستمرار النظام .

أقول اذن التراث متعدد ، طبقا للمواقع السياسية التى فيها كل فرقة ، وكل مذهب ، وفق المواقع السياسية والمصلحة الاجتماعية . ويسهل على أن أدرك أين مصالح الامة بعامة ، وابن مصالح فئة أو طبقة دون غيرها ، وبأى نظرية يمكن أن أحقق بها هذه المصالح ؟ مثلا ، اذا كنا نعانى من غياب العقل والموضوعية وغياب نوع من الحريات وغياب العدالة الاجتماعية ، وقضايا تحرير الارض ، قضايا الهوية والتغريب ، قضايا سلبية الجماهير ... وهذا مثال أمامنا من ٥ر٣ مليون

صهيونى يقفون وقفة ثبات ، وقوة وغزو ، فى وجه ٨٠٠ مليون مسلم ولا نعمل شيئا ، أقول اذن هذه تحديات رئيسية ، ولدينا خزائن قديمة فيها كل شيء ، وهناك قضايا عصرية ملحـة ، ودورى أنا ـ كمفكر اسلامى ـ أن آخذ من الكنز الاول ما يساعدنى على التحدى فى هذه القضية ، ولهذا اذا كانت القضية مثلا قضية انحسار العقل ، ولابد من اعمال العقل فى هذه المرحلة ، فان بالامكان الانتقاء من هذا المخزن الذى بحوزتى ، بما يتفق مع العلم والموضوعية ، ومن ثم أدعو الى الاعتزال واعتزال الرأى ، كما فعل محمد عبده فى رسالة التوحيد ؛ نحى منحا اعتزاليا ، ويقول أن الاسلام قد انتشر فى التاريخ ، وان المستقبل له ، وليس فقط أنه انتصر فى التاريخ . اذا كنت بحاجة الى الفقه والتشريع ، وكلنا نود تشريعا ومجتمعات اسلامية فالذى يساعدنى فى التشريع ، هو المخزن القديم . فلا آخذ جوانب فقهية تقدم النص على المصلحة ، أو تدخل فى فقه افتراضى . كما كان يقال قديما « ما قيمة وصية يكتبها رجل بين أنياب الاسد ؟ ! » هل تجوز أو لا تجوز ! ولكن أركز على أصول الفقه التى أخذت مصالح المسلمين عامة وعالجتها ، وما رآه المسلمون حسنا فهو حسن ، ولا ضرر ولا ضرار . وهـذا يساعدنى على الدخول فى العصر والاجابة على تحدياته . أقول اذن انتقى من القديم ما يساعدنى على تحديات العصر ، ويدخلنى فيها . واذا لم أجد فى القديم أجتهد ، أنتقى من هذا الكل غير المتجانس ما يساعدنى على الدخول فى القضايا الرئيسية ، وهذا مطلب رئيسى شرعى ، فنحن مجتمع تراثى ، الماضى فى قلوبنا ، نحن لسنا مجتمعا علمانيا ، فالعلمانية قضية محصورة فى عقول المفكرين ، ولكن الشعوب

كلها مازالت تقول « الله أكبر » ، وهذا شىء يجب الاعتراف به ، ولذلك فلا تقدم « بعلمانية » ولا تقدم أيضا « بالمخزون غير المتجانس » . فقد آخذ شيئا يضرنى ، ولهذا فهناك عملية قام بها الفقهاء القدامى ، وعلى المفكرين المحدثين أن يفعلوا كذلك . نفس القضية ، وهى ، كيف أستطيع أن أحقق تطور هذه الامة وليس ثباتها ، دون أن أفقـد تجانسها فى الزمان ، وحتى لا أكرر مأساة تركيـا التى انفصلت عن الماضى ، فلم يشفع لها الحاضر بشىء !!

سؤال : أشرت الى مسلمات الامة ، وقلت ، ان الاسلام تريده هذه الامة ، وان العلمانية ، أمر عارض . لكن التناقض الرئيسى الذى يكشفه التعبير اننا نرى أن الذى يسود فى المنطقة العربية ، والاسلامية ، على مستوى التخطيط ، هو العلمانية وليس الاسلام ، وان ما لدى الشعوب من أشواق وطموح ، يواجه بمواقف مختلفة ، من الطبقات المفكرة ، اما بالحوار ، واما بالكبت ، واما بالتجاهل ، وهذا يصور ، ان الرحلة ليست سهلة باتجاه الاسلام ، وانه بالقدر الذى يوجد فيه رغبة فى الاسلام بنفس القدر هناك رفض له ، وهذا الرفض يدعمه نفوذ دولى كبير فى المنطقة .واننا مجتمع يعانى من الاختراق منـذ مئات السنين ربما ، وان الهدف من الاختراق نفسه ، هو الحيلولة دون نجاح النظرة الاسلامية ، وهذا الاختراق ، له جنوده فى بلادنا . كيف يمكن أن نصل الى معادلة للتوفيق بين هذه الاتجاهات المتناقضة ؟؟

جواب : هذا صحيح ، وأنت على حق فى أن المقدمة العامة فى هذه الندوة كانت بحاجة الى تخصيص وان السؤال وضعنا أمام قضية

جوهرية خاصة أساسية ، فربما نبدو اننا مختلفون فى المظهر لكننا متفقون فى الجوهر • وانطباعى عبر دراسات أجريتها ، والعديد من الزملاء « المهمومين » ، بقضايا الامة ، فى هذا الموضوع ، تؤكد على أن العلمانية ، كانت اختيار النخبة ، النخبة المثقفة القائدة ، والتى أتيح لها ظروف التعلم ، لكن الجماهير ليست كذلك ، وربما هذه واحدة من تناقضاتنا فى هذا العهد ، فالنخبة تطالب بالعلمنة ، والجماهير متمسكة بالاسلام • كذلك فان جيلنا ، قد شاهد عدة تجارب ، من القومية ، والاشتراكية ، لكن هذه التجارب ، لم تزل بعيدة عن قلب الجماهير وروحها ، وانه فى الوقت الذى تقوم فيه حركة اسلامية مستنيرة فربما تكون أكثر قدرة على الالتحام بالجماهير •

سؤال : لكن هل يعنى هذا ان هناك تعارضا بين الاسلام والعلمانية ؟ وماذا تعنى العلمانية ؟ !

الجواب : العلمانية فى الغرب ، انما تعنى ما يسمى بفصل الكنيسة عن الدولة ، والدين لله والوطن للجميع ، هذه ظروف الغرب ، حينما حاولت الكنيسة أن تسيطر على الدولة وسببت أضرارا ، وهذه ليست قضية عندنا ، فليس لدينا رجال دين واكليروس ، فكل منا مسلم ، يصلى الى الله مباشرة • ولهذا فالمشكلة الاوربية ، لا توجد عندنا ، لان اسلامنا علمانى ، فلا تعارض بين الاسلام والعلمانية على مستوى دين العقل ، ولهذا فان العلمانية بالمعنى الغربى ، تتطابق مع الاسلام ، لان الاسلام والعقل شىء واحد ، لان الله سخر لنا الطبيعة ، والاسلام البحث العلمى • بينما فى الغرب ، تعنى العلمانية ، فصل الدين عن

الدولة ، لكن بالنسبة لنا لم يحدث فى تاريخنا أن نشأت سلطة دينية معارضة لسلطة سياسية ، كما حدث فى الغرب ، حدث ربما فى تاريخنا القديم أن استعملت بعض العقائد والمذاهب السياسية ضد الاكتشافات العلمية ، لكن كل العلوم العقلية ، فى تاريخنا ، ابن الهيثم ، والخوارزمى والطوسى ، اكتشفوا علوم الرياضة ، بفضل علم التوحيد ، وعقلية التوحيد،نشأ علم النحو،بفضل الاسلام فالاسلام بطبيعته ، دين العقل . والغرب يريد أن يظهر ابداعاته العلمية ، على أنها له وحده ، وربما كل اصلاحات الغرب لها رصيدها من عندنا فى عصر الترجمة ، وكان المفكر الغربى العلمى ، متهم بأنه نصير للاسلام ، ويضهدونه ولكنه انتصر فى النهاية على الكنيسة ، وعلمانية الغرب فى رأيى ، كانت تطويرا للنزعة الفلسفية الكلامية عندنا . فحينما أدعو الى العلمانية بمفهومها الغربى ، فاننى أبتعد عن الناس ، لكن حين أدعو للعلمانية باعتبارها جوهر الاسلام ، وان العقل والفكر شىء واحد ، وكما يقول ابن تيمية ، « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول » ، وان الذى يشكك فى العقل يشكك فى النقل ، والدين وسيلة والصلاح فى الدنيا غاية ، فاننى لا أبتعد عن سواء السبيل .

سؤال : هل المقصود أن نتحاور فى قضية أن الاسلام هو البديل الحضارى لهذه الامة ، أم أن المطروح هو مشكلة الحركات الاسلامية وما يعتريها من معاناة ومشاكل ؟ ما تفضلت به حول ما جرى فى الغرب . وهو حل مشكلات الغرب خارج اطار الدين ، وبالتالى تطورت نظرية الاصلاح الاجتماعى ، وأعقبه الغزو الغربى لامتنا ، ولذلك تسرب الى أذهان مفكرينا أننا يجب أن نحذو حذو الغرب فى العلمانية ، كى

نتخلص من مشاكلنا ، وهذه النخبة من المفكرين ، لم تتح لهم فرصة التعرف على المسلام • اذن التحدى الذى يوجه المفكر الاسلامى هو : كيف يقدم الاسلام لهذه النخبة التى لم تتطلع عليه بسبب ظروف هذه الامة ؟؟

جواب : أنا مع الاخ الدكتور ، ربما ركزت أنا على الجماهير ، وأنت ركزت على القيادة ، وكلاهما ، مهم • لكننى ركزت على الجماهير بسبب أن جيلنا ، عاش تجربة التغيرات الاجتماعية ، المفروضة من القيادة وكانت الجماهير بمعزل عنها • وتركيزى على الجماهير بحيث يكون هناك نوع من الرقابة على القيادة ، وعندما أقول رغبات الجماهير، لا أعنى الرغبات الشخصية ، بل المصالح العامة ، مصالح الامة • ولابد أن يكون هناك رقابة عامة على القيادة ، حتى لا تغير رأيها نظرا للظروف ، بحيث تشعر هذه القيادة بأنها ملتزمة ، وهذه هى قضية الديمقراطية فى جوهرها ، أن تكون القيادة معبرة عن مصالح الامة ، ومن ثم فكلاهما مهم ، كذلك فان أهمية مراقبة الجماهير ، ومراقبة أهل الحل والعقد،أهمية الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وأهمية الحسبة، أهمية الدين النصيحة ، أهمية استقلال القضاء ، بالرغم من أن قاضى القضاة ، يعينه الحاكم ، الا أنه لا يحق له أن يعزله ، وان قاضى القضاة ، يستطيع أن يعطى « فتوى » يعزل فيها الحاكم ، وهذا معروف بالنظم القضائية والاحكام السلطانية • وكما ركزت على الجماهير ، ودورها فذلك خشية أن تعطينا القيادة تفسيرا للاسلام وتقول هـذا هو الاسلام الصحيح ، ويكون مضادا للمصالح العامة ، والشـواهد على هذا كثيرة ، وربما الاشتراك مع القيادة ، من أهل العقد والحل ،

يساعد على فهم الاسلام من الناس فهما صحيحا ، حتى لا تتدخل الاهواء والرغبات •

وهنا أقول ان مصالح المسلمين فوق الجميع ، ولا أريد أن يكون الفقهاء بعيدين عن الواقع ، كما حدث فى بيزنطة ، أيام كان يحاصرها محمد الفاتح ، وهم يتناقشون فى العلاقة بين الله والابن والروح القدس • أى علينا أن ندافع عن مصالح الناس ، ونحن لسنا علماء أصول دين ، ولكننا علماء أصول فقه ، أى يتصدى الفقهاء للمصالح العامة ، وبالتالى ، أرصد ما هى القضايا الجوهرية التى على الاسلام أن يجابهها حتى لا أتهم اننى فقط ذو لحية ، وذو مسبحة ، واننى أدعو الى الحجاب ، واننى أريد قطع يد السارق ، ورجم الزانى •• والخ من مجموع الدعاية المضللة التى تقال فى الحكم الاسلامى ، كلمات حق يراد بها باطل •

وهناك سبع قضايا تمثل تحديات الامة وهى :

أولا : قضية تحرير الارض ، هذه القضية الهامة ، حتى عند الفقهاء القدامى نالت الاهتمام الخاص ، ففى الفقه الحنفى ، لا تجوز الصلاة ، « فى الدار المغصوبة » لان تحرير الدار سابق على الصلاة فيها •• أى أن قضايا الجهاد وتحرير الارض أمر الهى ، وهو أصل من أصول الاسلام ، ولهذا فالاسلام يدعونا الى تحرير الارض •

ثانيا : قضايا العدالة الاجتماعية ، الكنائس المسيحية فى العالم

الغربى ، توزع الخبز على فقراء المسلمين فى تشاد ، والهند ، هنـــاك قضية رئيسية فى المجتمعات الاسلامية ، وهى ان الثروة فى ايدى المسلمين ، غنى ، فوق غنى ، فوق غنى ، وفقر فوق فقر ، فوق فقر ، وهذا لا يرضاه أحد ، والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم قيل يا رسول الله أهى الزكاة ؟؟ .. قال فى المال حق غير الزكاة . وهذه قضية لا أستطيع التخلى عنها ، والا فتكون أفكار كثيرة قـــد سبقتنى الى العدالة ، وأخسر أنا دينى ، وجماهيرى وأمتى ، وأساعدهم على الذهاب الى من يغنى على هذه النغمة وأنا أولى بها .

ثالثا : قضايا الحريات ، الاجتهاد مفتوح للجميـــع ، والدين النصيحة ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب ، وقول الحق فى وجه امام جائر شهادة عند الله كما نعلم ، فأنا لا أخشى أحدا ، ولا أنضم الى حزب تحت الارض ، وأن يكون للمسلمين منبرهم يعبرون عن آرائهم ، أى نعطى للماركسيين « جريدة » والقوميين جريدة ونحرم المسلمين حريتهم ليقولوا كلمتهم فى قضايا الامة وبصراحة ، ما رأيهم فى الزراعة والسياسة ، والصناعة ، والتجارة .. الخ .

ابن حزم يقول الارض لمن يزرعها ، أى يفلحها الى أى حد هذا صحيح ؟ وهناك اجتهادات رائعة « ليوسف القرضاوى » فى الملكيـــة وتوزيع الثروة وغيرها ، فقضـــية توزيع الثروة فى العـــالم العربى الاسلامى قضية هامة ، فنحن أمة ، يضرب بها المثل بأعلى درجات غناها ، وأشنع درجات فقرها ، وهذا لا يرضاه الله ولا الرســـول ولا الخلفاء .

رابعا : قضايا الوحدة والتجزئة : نحن أمة واحدة ، الهكم اله واحد ، وأنا ربكم فاعبدون ، وأنظر الى هذا التشتت ، وكأننا نطبق شعار الاستعمار (فرق تسد) ولا يعقل أن يكون هذا الانفصـــال وهذه الدماء فى أمة واحدة •

خامسا : قضايا الهوية والتغريب : ولا يعقل أن نكون فى حياتنا ، وسلوكنا ، وتصوراتنا باستمرار الشخص « الآخر » الذى يعيش فينا ، اذا أردت أن أفعل أقلد فى بناء المطار ، والمستشفى وطريقة التفكير •• وكأننى أصبحت عاجزا ولهذا فان قضايا الهوية ، والتأكيد على الهوية قضية أساسية ، حتى لا تحدث انفجارات ، هل أنا ضد « الآخر » ، كما حدث فى ايران ؟ ! وقد تكون الحركة الاسلامية معذورة فى التمسك بالعادات الاسلامية حتى بأشكالها ، لمواجهة أنماط التغريب المفروضة • لقد درست فى الولايات المتحدة أربع سنوات ، وكنت أدرس تطوعا خارج الجامعة للاخوة المسلمين فى أمريكا من أصل أفريقى ، كنت أدرس لهم اللغة العربية ، والقرآن الكريم ، فنصحنى أخوة لى سبقونى من انتقاد السبحة ، واللحية ، وذبح الكبش فى الاعيـــاد ، ولبس الطربوش الاحمر ، قالوا لى اياك أن تنتقد هذه المسائل ، لان هؤلاء المسلمين يواجهون عنصرية بغيضة ، ويقاومون « الآخر » • فالاسلام يعطيه هوية ، وهذه الشعائر ، تعزز موقفه فى مقاومة « الآخر » •

سادسا : قضية التقدم والتخلف : أنا غير مستعد على الاطلاق أن يتهمنى الآخرون بالرجعية لاننى مسلم ، لاننى لست رجعيا •

فاسمع ما يقول عمر ، والله لو عثرت بقرة أو بغلة فى العراق •• الخ ، ولكننا الآن كشعوب بأكملها نعثر كل يوم فى مخيماتنا وقرانا ، ومدننا ، وبالتالى فان قضايا التقدم والتخلف ، يجب أن نتبناها بصياغة اسلامية •

سابعا : مشاركة الامة ، وتجنيد جماهيرها : فالمرء بمفرده لا يستطيع أن يفعل شيئا ، وبالتالى أنا بحاجة للجماهير ، وتجنيدها ، ووضعها ، ضمن برنامج ، وكما خاطب الافغانى المسلمين • والله لو كنتم ذبابا ، أو جرادا ، وحططتم على الجزيرة البريطانية ، لاغرقتموها !! لماذا لم يتحول هذا الكم الى كيف ؟؟ وكيف أحوله ؟

سؤال : أنت تحدثت عن برنامج ، لكن كيف يتم تنظيم هذه الجماهير ، تجاه قضية فكرية واحدة ، وبشكل منظم ، وهذا هو التحدى الكبير الذى يواجهنا ، والنقاط السبع التى أثرتها قضايا مطروحة كشعارات ، لكن كيف أحقق هذه الشعارات ؟؟ ان كل الذين طالبوا بهذا انتهوا الى هذه « الحيرة » ، وانتهوا الى العنف مثل « التكفير والهجرة » وغيرها من حركات ، لكن كيف أطبق برنامجا اسلاميا شاملا ؟؟ ، وما هو بديل التكفير والهجرة مثلا ؟ !

جواب : القضية المطروحة ، قضية هامة وخطيرة ، وهى ما هى وسائل تحقيق هذا البرنامج ؟ وأريد أن أبدأ من الخاص ، قبل العام • وهو قضية التكفير والهجرة • هذه الجماعة أنا أعرفها ، وفيهم من

طلبنى ، وأحاورهم دائما ! لا نستطيع أن نتكلم عن جماعة التكفير والهجرة ، بدون استعمال منهج التحليل النفسى والاجتماعى . هؤلاء الناس ، نشأ تفكيرهم فى السجن ، وهم فى زنزاناتهم فى أوائل السبعينات، وكانوا يحاولون الاجابة على سؤال ما الذى حدث فى حركة الاخوان المسلمين ، وهل حدث خطأ ، فى الصدام بينهم وبين الثورة ؟ وكان كل ذلك يجرى تحت أسواط التعذيب ، وبالتالى فهناك ظرف نفسى اجتماعى ، أى نقاش عن انهيار أكبر حركة اسلامية ، ربما شهدها الاسلام المعاصر ، والتى كانت وريثة لحسن البنا ، ورشيد رضا . وانهيار أمل الوصول الى الحكم الاسلامى باصطدامهم مع الضباط الاحرار . وانتصور ، وأنا أفكر تحت التعذيب ، مخلوع الاظافر ، محروق الظهر ، وأنا برىء ! ! حتما سأتطرف .. واستشهد عبد القادر عودة ، وسيد قطب ، أكبر كاتب مقروء ، ومهما أكتب أنا الآن ، فانهم سيقرأون سيد قطب ، ولا يقرأوننى لانه يعبر عن ظرف القهر والكبت . ولهذا كانت جماعة التكفير ، من أنصار الرأى الواحد ، والفكر الواحد ، مع العلم أن الاسلام يجيز الخلاف ، ولهذا مطلوب من المسلمين بجميع فرقهم أن يتحاوروا ، واعطاء نوع جديد من التفكير ، يقوم على احترام الرأى الآخر . وأنا ضد أى حركة سرية ، لان الحق ليس سريا ، لان عيون السلطة أقوى من سرية أية حركة ، وبالتالى فان الحركة الاسلامية تصبح حركة تآمرية ، كذلك فان الحركات العلنية المسلحة حركات خاطئة ، ولا أرفع السلاح على أحد على الاطلاق ، ومادامت الامة تقول لا اله الا الله لا يجوز محاربتها ، والصحيح ان ما ضاع شيئا فشيئا ، لابد أن يعود شيئا فشيئا . والحاكم حين يشعر أن كلمة الحق قوية ، لابد أن يقبل بها ، واذا لم يعطنا الحاكم

القدوة ، نعطيه نحن القدوة ، وهذه معركة طويلة ، وليست سهلة، ونريد أن ننزع عن الاسلام الفكرة التى ألصقت به ، وهو خروج وتكفير ، وحرب ، وقنابل ، ومتفجرات ، وأنا أدعو من أصحابى الى الدعوة الاسلامية الشاملة ، والتآلف بين القلوب •

سؤال : قلت ان سبب خروج جماعة التكفير والهجرة ، هو مناخ التعذيب ، والتعذيب ليس هواية من هوايات الحاكم الذى عذبهم ، ولكن وسيلة من وسائل كبتهم ، اذن هناك سبب قبل التعذيب ، وهـو التناقض • التناقض بين النخبة الرافضة للاسلام ، ومحكومة بفهم قاصر للاسلام ، ومحكومة باعتبارات كثيرة ، يقابلها حركة اسلامية ، مفادها ان هذا الحكم غير اسلامى ويجب محاربته ، وبالتالى يقـع الصدام ، وهنا الاشكال ، لان التناقض مركزى • كيف يمكن حل هذا التناقض ؟؟

جواب آساس هذا التناقض ، كما ذكرت الظروف النفسية ، التى ظهرت فيها هذه الجماعة ، هذه الجماعة التى تتلمذت على المرحوم سيد قطب ، وخاصة كتاب معالم فى الطريق ، الذى حدد فيه استحالة اللقاء بين الحق والباطل ، وكتاب معالم فى الطريق ، وضع فى السجن • وماذا يقول معالم فى الطريق ؟؟ يقول العالم ايمان وكفر ، أبيض وأسود ، وانه لا توجد مصالحة بين الطاغوت ، والحرية ، ولابد من التقلب الشامل للاوضاع على يد الجيل القرآنى ، وأعتقد أن هـذا الفكر سيظل مؤثرا فى ضمير الجماعات الاسلامية طالما ظلت مضطهدة • وقد تكون دعوتى لحرية التعبير ، واحدة من الاسباب التى تخفف

من هذا الاتجاه الذى تبناه الشهيد سيد قطب فى ظروف خاصة ، ولا نستطيع أن نقول الآن ، باستحالة اللقاء بين الطاغوت والحرية ، لان هناك درجات ، مثلا ، كل من يريد أن يساعد على الحرية فأنا معه ، كل من يريد ايقاف نهب الثروات أنا معه ، كل من يدعو الى وحدة الامة فأنا معه ، وبالتالى ، فالاصلاح ليس هو المهادنة ، ولكن الاصلاح ، فى أن ما هو قائم يمكن اصلاحه ، ولا يكفر لاننا أرسلنا هداة أولا .. هناك وعى تاريخى ضرورى للحركة الاسلامية ، لو قفزت على المستقبل أكون كالماركسى الذى يريد أن يبنى مجتمعا طوباويا ، أى الاحساس بالحاضر ، وان التاريخ له مراحل . وان كل محـاولة للاقتراب من الهدف هى محاولة اسلامية اذ كيف أستطيع أن أهدم السلم الذى عليه سأصعد ؟ ! وهذه المرحلية ، هذا الاصلاحية هى التى اعتمدها حسن البنا فى الاربعينات ، حتى يأتى الاسلام محمولا على الاعناق ، ولا نريد للاسلام أن يأتى حكما انقلابيا ، أريد أن يأتى محمولا على الاعناق ويطالب به الناس .

سؤال : يبدو أننا نبالغ فى حركة التكفير والهجرة ، ويبدو أننا وقعنا فى فخ أعداء الاسلام ، الذين نفخوا فى أهداف التكفير والهجرة ، بقصد الاساءة للاسلام ، وكأن الاسلام هو هكذا دموى ، وقمعى ، والمطلوب الآن من المفكرين المسلمين ، وضع هذه القضية فى اطارها الصحيح ، وأن نطرح الاسلام الصحيح ، كى يفهم على حقيقته . كيف نستطيع أن ننقل قناعاتنا العقلية الاسلامية لاجيال شبابنا ، وللامم الاخرى أى عملية النصح الضاغط ، وتلوين المجتمع باللون الاسلامى ؟

جواب : تأكيدا للحديث ، تصوروا أنه فى محاكمة « شكرى مصطفى ورفاقه » ، قال أريد أن أطلب شيئا واحدا ، ثم اقتلونى بعده، وهو ، « انشروا كتاب الخلافة قبل أن أموت » !! ورفض له هذا المطلب ، أنا قرأت هذا الكتاب مخطوطا ، وأعطته لى « المباحث العامة » لمدة ساعة ، وكأنه « حشيش » ، ولو أنه نشر لكان كتابا عاديا ، لكن هذه صورة من صور القمع . شكرى مصطفى طالب أن يأتى رجال الازهر ليناقشوهم فيما يقول ، رفض طلبه أيضا !! تصوروا أن القاضى الذى حاكم شكرى مصطفى تنازل عن القضاء بعد المحاكمة ، ورفض القضاء ، والآن تصوف واتجه للاسلام . المحامون الذين ترافعوا فى قضية جماعة الجهاد بدأوا اعتناق الفكرة الاسلامية ، من صدق هؤلاء الشباب ، وراء القضبان . ولهذا فان حرية التعبير قضية أساسية فى التخفيف من ردة فعل الشباب الذى ذهب باتجاه التطرف واذا كنا نسمح للمراكز الثقافية فى بلادنا ، شرقية وغربية ، لماذا لا نسمح بمراكز ثقافية اسلامية ؟ ! والاسلام روح الامة ، وتراثها وتارخها ، وهو الشرع . والمطلوب ، ايجاد تنظيم عام يلتقى فيه المسلمون على شعار العروة الوثقى ، والله ولى التوفيق .

(د) المرأة العربية محرومة من حقوقها كمسلمة :

- تعدد الزوجات يتطلب العدل فى العواطف وهذا مستحيل .
- القضية ليست حقوق فالرجل بلا حقوق أيضا .

تشغل قضايا المرأة تفكير الكثيرين فنسمع أصواتا ترتفع تارة

تؤيد وأخرى تعارض وكل له حججه وبراهينه . واذا كانت المرأة الاوربية قد وجدت فى ظروف تفرض عليها أن تصارع لتنال بعض حقوقهـــا

زهرة الخليج ١٩٨٥/٦/١٥ أجرى الحوار بمدينة العين انشراح الجداوى وقد صدرته بالفقرة الآتية :

الحديث عن حقوق المراة المسلمة التى اعترف بها وشرعها لها ديننا الحنيف لن يتوقف ، مادام هناك نساء مسلمات مؤمنات بهذه الحقوق ، ومادام هناك رجال مسلمون يعترفون بهذه الحقوق ويفهمون الروح السمحة لشريعة الاسلام ..

وهذا الحيث يكتسب بعدا جديدا واهمية خاصة اذا كان طرفا فيه واحد من أبرز المفكرين العرب الذين طرحوا قضية الاصالة والمعاصرة فى فكرنا الحديث ، انحازوا بلا تعصب الى الاصالة متمثلة فى الفكـــر الاسلامى ، شريطة ان يحكمنا العقل وروح الاسلام الثورية الوثابة التى تؤمن بقيمة الانسان وحريته وحقه فى تقرير مصيره سواء كان رجلا أو امراة .. وليس ادل على ذلك من اقرار الدين لحق الفتاة فى اختيار شريك حياتها مثلا .. انه المفكر العربى المصرى الدكتور / حسن حنفى استاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة القاهرة .. والاستاذ الزائر بجامعة طوكيو فى اليابان والأستاذ الزائر بجامعة الامارات حاليا ..

ثم قامت بالتعريف الآتى :

من هو الدكتور حسن حنفى ؟

من مواليد القاهرة سنة ١٩٣٥ .. تخرج من جامعة القاهرة سنة ١٩٥٦، وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة من فرنسا سنة ١٩٦٦ ثم عين استاذا زائرا بجامعة تمبل بأمريكا وفى جامعة طوكيو باليابان .. كما قام بتأسيس الدراسات العليا بجامعة فاس بالمغرب .. وهو الآن استاذ زائر بجامعة الامارات ..

أهم مؤلفاته :

بالفرنسية : مناهج التفسير ـــ ظاهريات التفسير . اى كيف يفسر النص (القانونى ، الدينى ، الادبى ، الفنون الشعبية ، الحكم والامثال) .

المساوية ، فان المرأة العربية المسلمة أمامها سياج يحميها من ذلك ، فالقرآن الكريم يعطيها كثيرا من الحقوق ولو حرصنا على تطبيقها لاصبحت المرأة المسلمة على غير مـا هى عليه الآن .. لقـد كرمها الاسلام خارج وداخل بيتها ، وحفظ لها حقوقها وكرامتها بل وعمل على رفع شخصيتها المعنوية من خلال الخطاب القرآنى نفسه ، والمرأة المسلمة التى تخاف الله فى دينها ودنياها تعتبر قدوة للمرأة فى العالم واذا كان هناك بعض الحدود التى وضعها الاسلام فلا شك ان الهدف منها هو حمايتها وحماية أسرتها وأطفالها ..

قالت : ما هى حقوق المرأة العربية المسلمة ومدى ما تحقق منها فى رأيك ؟

قال : فى حقيقة الامر ليس هناك شىء اسمه قضية حقوق المرأة

بالانجليزية : الدين والثورة ، والدين والتنوير ، الدين والتفسير الاجتماعى . اما بالعربية فقد عمل فى حقلين هما :

الترجمة : رسالة فى اللاهوت السياسة (لاسبينوزا) — تربية الجنس البشرى (للسنج) — تعالى الانا موجود (لسارتر) .

المؤلفات العربية : قضايا معاصرة (كيف يمكن تجاوز الهزيمة) — الثقافة الوطنية واليسار الدينى — التراث والتجديد (كيف تنهض الحضارة الاسلامية) — الكبير (من العقيدة الى الثورة) اعادة بناء التوحيد — والآن اعيد بناء علوم الحكمة القديمة ..

الحالة الاجتماعية : متزوج وله ثلاثة ابناء واسرته تقيم الآن باليابان

العربية ، انها قضية مغلوطة ومستوردة من أوربا ، ففى الغرب تشغل هذه القضية المرأة لوضعها غير الكريم خلافا للمرأة العربية المسلمة .. ففى أوربا والى وقت قريب كانت المــرأة لا تتمتع بحق الانتخــاب وفى أمريكا اذا قامت المرأة بنفس عمل الرجل فانها تتقاضى أجرا أقل .. وليس هناك حتى الآن قانون يساوى المرأة بالرجل ، ولذلك نشأت قضية المطالبة بالمساواة والحريات التى يتصورون أنها حرية الاجهاض والشذوذ الجنسى ..

قلت : هل يعنى ذلك ان الاسلام لم يعط المرأة حقوقا ؟

فقال الدكتور حسن حنفى معترضا : لا ليس هذا ، لكن المشكلة الحقيقية تكمن فى واقع المرأة فى حياتنا ووضعها فى مجتمعاتنا وهذه مشكلة اجتماعية صرفة وقد لا يختلف فيها الرجل عن المرأة .. فاذا أخذنا قضية الحقوق على سبيل المثال سنجد أن الرجل عندنا ليس له حقوق .. اذن القضية الرئيسية هى حقوق المواطن سواء أكان الرجل أو المرأة .. واذا تحدثنا عن العمل فسنجد البطالة موجودة بين الرجال والنساء .. وفى التعليم ، نجد أن الصبى الصغير فى الريف لا يتعلم مثل الصبية الصغيرة .. وبالنسبة لحق الانتخاب فالرجل لا ينتخب مثل المرأة .. أما بالنســبة للحرية والتعبير عن الرأى .. فلا الرجل يتمتع بذلك ولا المرأة .. اذن هناك قضية عامة هى الحريــات التى لا فرق فيها بين المرأة والرجل كما أكدتها الشريعة الاسلامية ، فالخطاب فى القرآن الكريم موجه دائما كالتالى : يا أيها الناس ، يا

أيها الذين آمنوا ، يا أيها المؤمنون والمؤمنات ، وغير ذلك •• باستمرار اذن هناك تركيز على الاثنين ولا فرق فى الخطاب القرآنى بين المرأة والرجل من حيث الحقوق •• نستطيع اذن أن نعرف الميزات الضخمة التى حققها الاسلام للمرأة اذا قارنا حالها قبل الاسلام بحالها بعده •• فالشريعة الاسلامية تعطى المرأة شخصيتها المعنوية باعتبارها كائنا حيا ووجودها ليس عيبا ولا سببا لسواد الوجوه ، فيكون الخطاب البالغ والقول العظيم « واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » • والمرأة العربية المسلمة تبقى محتفظة بشخصيتها وهويتها بعد الزواج فلا تنادى باسم زوجها كالاوربيات ، كما أنها تتمتع بحق البيع والشراء ••

أما عن تعدد الزوجات فقد كان الزواج قبل الاسلام مشاعا وبلا حدود ، ولكن الاسلام حرم معظم الحالات ولم يتبق الا الزواج فى نطاق الاسلام ، وقد أباح الاسلام تعدد الزوجات فى حالات ضرورية استثنائية صرفة •• وضمنها الفقهاء على أن يستأذن الرجل زوجته •• وقد كان لهذا ما يبرره • فالظروف تتطلب مثل هذا التشريع نظرا لاستشهاد عدد كبير من المسلمين فى الجهاد وبقاء أعداد كبيرة من النسوة بدون أزواج ، ودرءا للاخطار كان يسمح بالزواج بأكثر من واحدة منهن •• والاسلام دين واقعى جدا ، ففى حالة عدم وجود أفضل الحلول يأخذ أقل الحلول شرا •• كما أعطى الاسلام المرأة حق التعليم والعمل اذا أرادت وحق الجهاد كذلك وكل ما يتعلق بحقوقها المالية والتجارية ، ولها أيضا الحق فى رؤية من يريدها للزواج قبل اتمامه وحق رفضه اذا رأت أنه لا يناسبها ، ولها الحق أن تكون

العصمة بيدها لو أرادت ، كما أن لها الحق فى الصداق ومقدم المهر ..
وفى الحقيقة لو عرفنا وفهمنا جيدا الحقوق التى منحها الاسلام للمرأة
لقلنا ياليتنا نصل الى هذه الحقوق .. ولكن ربما كانت هناك بعض
الحدود التى تشوه وتروج لكن لها أسبابها مثل عدم السماح للمرأة
بالصوم والصلاة فى حالة الحيض واعتقد أن هذه عملية نظافة صرفة
ولا دخل للمفاضلة فيها وليس لنقص فى المرأة أو لانها دون الرجل ..
وأيضا عدم السماح لها بالحج الا مع محرم .. وهذه أيضا ليست
لقصور فيها ولكن لحرص الاسلام على حمايتها من المضايقات التى
قد تتعرض لها فى زحام الحجيج .. أما عن عدم جواز قبول شهادة
امرأة واحدة ، فهذا أيضا ليس تمييزا أو تفضيلا أو لنقص فى المرأة ..
ولكن للتذكير فقط ، والرجل أيضا قد تغلب عليه العواطف كما هى عند
المرأة .. والحقيقة أنه ليس هناك دين ولا شريعة أعطى للمرأة ما
أعطاه لها الاسلام .

وسألته : ماذا عن واقع المرأة العربية ومظاهر الغبن الواقعة
عليها ؟

فأجاب : اذا كان واقع المرأة مريرا فكذلك واقع الرجل ، فكلاهما
يعانى من هذا الواقع الذى نعيش فيه .. واذا كان هناك مظاهر غبن
على المرأة فانها ناشئة عن الوضع الاجتماعى وليس من الدين الاسلامى
ففى مجال التعليم مثلا يظل سائدا فى نطاق الاسرة ان المرأة ليست
مطالبة بالتعليم مثل الرجل ، فتعليمها قضية ثانوية لا تلقى التشجيع
أو الاهتمام . لكن هذا جهل فالمرأة تشكل نصف المجتمع وعليها أن تدافع

عن حقها الطبيعي فى التعليم •• وفى السياسة ، ينظـر للمرأة التى تشارك فى الحياة السياسية على أنها شذوذ عن القاعدة •• لماذا ؟ أليست شريكة الرجل فى كثير من الاشياء •• فلماذا تحرم من حـق المشاركة فى الحياة العامة ؟ أما بالنسبة للمناصب العليا فانـه على المستويات الرسمية لا يسمح للمرأة بالوصول الى المراكز القيادية العليا ، فقط عليها أن توقف عند سقف معين ولا تتعداه • أليست هى « شجرة الدر » و « زنوبيا » قبل أن تكون « انديرا غاندى » و « تاتشر » و « جولدا مائير » ؟ بل انه غير مسموح للمرأة بالخروج الى الحياة العامة فالظن ان المرأة أقل نشاطا ولذلك يجب أن تكـون مساهماتها فى الحياة العامة محدودة جدا •• بل وأحيانا لا يسمح لها بأى دور حتى ولو كان مجرد الخروج واذا تحقق ذلك يكون بين كم هائل من القيود •• وبخصوص مهمة التربية وتحمل آعباء المنزل فهى تقوم بأخطر دور • ولقد أثبتت المرأة العربية أنها أفضل بكثير من المرأة الاوربية ، انها مستعدة للتضحية فى سبيل أبنائها بينما الاخرى ليست مستعدة للتضحية حتى بعطلة نهاية الاسبوع ممها كان السبب • والمرأة العربية لا تتحمل عبء التربية فقط بل عبء القيام بالاعمال المنزلية رغم وجود المساعدين والخدم فى عدد لا بأس به من المنازل مما يجعلها تئن وتتألم ••

واذا ما حدث خروج على القواعد فى الصلة بين الرجل والمرأة فان المرأة عادة هى التى توجه لها أصابع الاتهام ، وتظهر كما لو كانت هى المجرمة بينما الرجل يعتقد بأنه حر ولا صلة له بما يحدث وحتى ينسى انه طرف فى ذلك !!

وعن وضع الارامل والمطلقات قال أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة: فى الحقيقة هذه الفئة من الناس تكاد أن يقضى عليها فى مجتمعاتنــا العربية وذلك من النظـرة الاجتماعية المتخلفة والظالمة التى تقترن بهن حتى انهن يشعرن بأن وجودهن غير مرغوب فيه ، بل يعشن بين كم هائل من اللاءات وكأن هذا كتب عليهن • فهن فى مجتمع تقليدى نظرته ظالمة جدا • فكيف يمكن لهن العودة للحياة من جديد ؟ وان المجتمع يعاملهن وكأنهن أصبحن شرا أو فسادا حتى يموت الشباب ويمــر العمر وتذبل الوردة ••

ان من بين مظاهر الغبن الواقعة على المرأة العربية ان نقاط القوة فيها لم تظهر بما فيه الكفاية فى مجلاتنا النسائية العربية • فقد خضعنا لتقليد المجلات النسائية الاوربية ، فالمرأة العربية ليست فقط هى المرأة بنت الطبقة العليا التى تريد آخر صيحات الموضــة والذهب والعطر •• لكنها المرأة التى فى الطريق وبين الطبقات الشعبية والتى هى الغالبية العظمى من النساء •• وفى هذه الحالة يجب أن تتميز المجلات النسائية العربية وتكون تعبيرا صادقا عن وضع المرأة العربية بمميزاتها وأفضالها وأوضاعها الاجتماعية السلبية ، عندئذ نستطيع أن نقول بأن المجلات النسائية العربية استطاعت أن تتجاوز مرحلة التقليد وتفرض خصوصيتها فى الاعلام •

سألت : ما هو رأيك فى الغاء قانون الاحوال الشخصية فى مصر ؟

فأجاب : ان الغاء هذا القانون لا يعنى عدم الايمان بالمواد التى

احتواها • فهى مطـابقة تماما لحكـم الاســلام ، ومضمونها لا يختلف عن مقاصده لان الرجل الآن يسىء اسـتعمال الطـلاق •• ففى تونس مثـلا لا يجـوز طـلاق الرجل للمرأة بمجـرد كلمـة قالها وهــو غاضب ، واسلاميا هـذا لا يجوز ، فالرجل عليــه أن يذهب للقاضى ويتحدث اليه ليتعرف منه على الاسباب الحقيقية لهذا القرار ويحاول اصلاح البين ، واذا فشل فى ذلك فان القاضى يصر على سماع كلمة منه ، واذا ما أساء الرجل استعمال أى حق فانه من الممكن أن ينتزع منه دون اصدار قوانين •• لكن ما أخذ على قانون الاحوال الشخصية فى مصر هو الاشخاص الذين كانوا وراء اصداره وصدوره فى ظرف معين • ولذلك فان وجوده كان مقترنا بوجود الظرف الذى صدر فيه • ان القانون لم يمر على المجالس الدستورية فلم يرتبط بالناس ولم يكتسب صفة الشرعية ، فيجب أن يوضع القانون بعـد نقاش بين العلماء وحوار مع ذوى الاختصاص ودراسة متعمقة لواقع المرأة أحوالها ومشاكلها وما تتعرض له فى ظل الظروف القاسية التى نعيشها الآن •

أما بالنسبة لتعدد الزوجات ، فأعتقد أن الاسلام دين واقعى يعرف أن الغريزة الجنسية رئيسية عند الرجل ، ومن ثم فانه قد لا يوجد دين أعطى اشباعا للرجل قدر ما أعطى الاسلام من خـلال (الزواج المبكر ، تعدد الزوجات) بعد أن ألغى مظاهر ارضاء الغريزة القديمة وقضى عليها فلم يعد هناك اماء ولا جوارى ولا زواج المتعة •• هذا كنظام صورى واقع • لكن الظروف والاحوال تغيرت ونظرا لذلك أبقى الاسلام على التعدد كمخرج فى كثير من الاحوال شريطة العدل •

وانى أرى اننا فى الوقت الحاضر وفى ظل الظروف الاقتصادية الصعبة لا يمكننا تحقيق العدل المطلوب ، وذلك باعداد بيت مستقل لكل زوجة وحتى الاثرياء ، فان هناك شيئا لا يمكن أن يعدلوا فيه وهو ان عواطف الانسان لا يمكن توزيعها بالعدل • ولذلك فان هذا الزواج الثانى يكون غير شرعى •

(د) الفراغ السياسى والثقافى للشباب :

الظـاهرة موجودة فى صـورة غير سـوية منها السـفر الى الخارج أو الانضمام الى جماعات دينية أو روابط فكرية بالداخل لسد هذا الفراغ والانغماس فى متاعب الحيـاة اليومية •• ولعلهـا تظهر عندما ينعزل الشباب عن الحركة الوطنية الذى سبب بدوره غياب الولاء لقضية كبرى يعبـر الشباب عن ولائه بالنسبة لهـا مثل : الاشتراكية ، الرأسمالية ، الصلح مع اسرائيل • كل هـذه القضايا يجب أن يشارك فيها الشباب ، ولا تكون حكرا على القيادة السياسية حتى يمكن أن يملأ الشباب فراغه ، وذلك يتأتى باطلاق الحـوار والسماح بالخلاف فى الرأى • •واختلاف الرأى رحمة ! •• فالجميع أبناء وطن واحد يتشرف الجميع بالانتماء اليه •

مايو ، ديسمبر ١٩٨٠ ، مناقشة حول : هل يعانى الشباب من فراغ سياسى وثقافى ، ومن المسئول ، وما هو الحل ؟

هذا بالاضافة الى وجود أيديولوجية فكرية وهى « اسلامية مستنيرة » ، فالاسلام روح الامة وتراثها وتاريخها وحاضرها ، ومستقبلها •• وقد جربنا أيديولوجيات التحديث المعاصرة مثل « العلمانية ، الماركسية » فلم تنجح •• أما الاستنارة فتعنى تفسير الاسلام وعرضه طبقا لمشاكل العصر الاساسية •

ويجب أن تتحول مناهج التعليم من تلقين واملاء الى تفكير وبحث، لتنمية جوانب الخلق والابداع لدى الشباب ، وهذا يتحقق باستقلال الجامعات ، ويتحمل أيضا الاعلام مسئولية التعبير عن وجهات نظر الشباب وفتح المجال لهم للمشاركة بالرأى وعرض الآراء كافة دون سيادة رأى واحد !

(و) الشورى عقيدة وممارسة :

● لا يجوز أن يكون فى المجتمع طبقة مترفة وطبقات محرومة تعيش فى أكواخ الصفيح •

ان الحديث عن الاسلام كنوع من ارضاء الذات ، والشعور

الرأى العام ، ديسمبر ١٩٨٣ ، ندوة حزب الشورى والاستقلال بمدينة فاس ، وهى المحاضرة التى استدعيت بعدها الى قسم الشرطة لقضاء ليلة وبعدها امرت بمغادرة المغرب فى نهاية العام الدراسى ١٩٨٤/٦/٣٠ . وقد صدرت الجريدة خلاصة المحاضرة بالفقرة الآتية :

بالغبطة والسرور لنوع من التخدير النفسى عما يحيط بنا من مآسى اجتماعية تتجلى فى مظاهر الفقر والتسلط من ناحية والظلم الاجتماعى من ناحية أخرى • كما أن الهروب اليه كنوع من تغطيـة النقص

=

فى نطاق التوعية السياسية التى يلتزم بها حزب الدستور الديمقراطى على مستوى قاعدته الشعبية نظم الحزب بمدينة فاس ندوة حول موضوع: « الشورى عقيدة وممارسة » .

ولقد شارك فى هذه الندوة بالاضافة الى الاستاذين حماد العراقى ، وعبد الواحد معاش كلا من الدكتور محمود اسماعيل استاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بفاس ، والدكتور حسن حنفى استاذ الفلسفة بنفس الكلية . وأدار الندوة الاستاذ محمد بن زكرى الكاتب العام للحزب بالعاصمة العلمية .

ونظرا لاهمية الندوة ، وما طرح فيها من افكار ونظريات حول « الشورى » كنظام للحكم فى الاسلام ، فقد ارتأينا ان نقدم لقراء جريدة الرأى العام الجزء الاول من الندوة ، ويشمل تدخل الدكتور حسن حنفى ، وتدخل الدكتور محمود اسماعيل .

قال الدكتور حسن حنفى فى تدخله : ان الشورى هى الجانب السياسى من نظرية الاسلام فى الحكم التى تشمل جوانب سياسية اخرى ، بالاضافة الى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والقانونية .

واكد ان المجتمع الواحد الذى فيه انسان واحد جائع تبرأ ذمة الله منه . واثبت انه لا يجوز أن يكون فى المجتمع طبقة مترفة تبنى القصور المزخرفة بالنقش العربى وطبقات محرومة تعيش فى اكواخ الصفيح . واعاد الى الاذهان ، أن الشورى عقد وبيعة واختيار . وأن الساكت عن الحق شيطان أخرس .

اما الدكتور محمود اسماعيل فقد جاء فى تدخله : ان العالم الاسلامى يعانى ازمة ، سواء فى أوضاعه الداخلية أو فى علاقاته الخارجية ، مقترحا عدة حلول يمكن على ضوئها تطبيق الشورى الاسلامية لتجاوز الازمة الراهنة .

النظرى لدينا فى أزمة الحريات وقضايا الديمقراطية لن يساعدنا فى حلها أو معالجتها •

والحديث عن « الشورى » هو تناول لجزء من نظرية أعم هى « نظرية الحكم » فى الاسلام ، فلا يمكن اذن فصل الجزء عن الكل ، وأن نأخذ ما يرضينا وما نضمن به السلامة وعدم الدخول فى صراع سياسى مبكر غير محمود عواقبه •

فالاسلام كل واحد ، يؤخذ كله أو يترك كله • وحتى فى حالة الحديث عنه ككل فان هذا الحديث لا يكون نوعا من الاعجاب بهـذه المثل العليا ، والبناء الانسانى ، بقدر ما يكون قياسا على الواقع ومعرفة الى أى حد يبعد واقعنا عن هذا المثـل الاعلى • وكل من يستعمل الاسلام كموطن اعجاب فانه يستعمل سلاحا ذو حدين ، قد يتوجه ضد الآخرين من مجرد قول ونظر الى عمل وممارسة •

« الشورى » اذن هى الجانب السياسى من نظرية الاسلام فى الحكم التى تشمل جوانب سياسية أخرى ، بالاضافة الى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والقانونية ، وهى كلها جوانب تكاملية تكون نظرية واحدة • فالشورى فى الاسلام بالرغم من أهميتها ذكرت كلفظ ثلاث مرات : الاولى بمعنى التشاور بين الزوجين للاصلاح « فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » • وهو ليس المعنى السياسى المقصود • والثانى « فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الامر » • والثالث « وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » •

والمعنيان الثانى والثالث هما المقصودان • ولكن « الشــورى » كنظام انما أتى ضد أى نظام سياسى يقوم على التأليه (نظام فرعون مثلا) الذى قال « أنا ربكم الاعلى » • فالله وحده هو المالك « وله ملك السموات والارض » وهو الوارث « ولله ميراث الســموات والارض » ، وهو الحاكم « فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين » • ومن ثم يرفض الاسلام أى نظرية يحكم فيها البشر ، فالحاكمية لله وحده •

ومع النظرية السياسية هناك النظرية الاقتصادية ، فلا سياسة بلا اقتصاد ، ولا اقتصاد بلا سياسة • فالمال مال الله ، والانســان مستخلف فيما بين يديه ، تركه الله وديعة عنده ، له حق التصرف ، وحق الانتفاع وحق الاستثمار ، وليس له حق الاكتناز أو الاستغلال أو الاحتكار • فاذا حدث ذلك يكون للاسلام الحق فى التدخل بالمصادرة (أموال السفهاء) والتأميم • ملكية وسائل الانتاج التى تعم بهــا البلوى لا يجوز أن تكون فردية ، الماء والكلأ (الزراعة) ، والنــار (الصناعة) ، والملح (التعدين ، وكل ما فى باطن الارض بما فى ذلك النفط) • العمل وحده مصدر القيمة ، بدليل تحريم الربا ، فالمال لا يولد المال ، بل الجهد والعرق والانتاج هو الذى يولد المال •

ولا يجوز أن يكون المال حكرا على طبقة الاغنياء « كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » ، الارض لمن يفلحها والانتاج للمنتج ، فلا يجوز أخذ جزء من نتاج العامل باعتباره فائض قيمة لصاحب رأس المال • ولا يجوز التلاعب بالاسواق أو فى الاسعار أو المضاربة فى التجارة الى آخر ما يعرف فى الفقه الاسلامى فى « أحكام السوق » •

والنظرية الاجتماعية مرتبطة بالنظرية الاقتصادية وبالنظـريـة السياسية . فالمجتمع الواحد الذى فيه انسان واحد جائع تبرأ ذمة الله منه . ولا يجوز أن يكون فى المجتمع الاسلامى ، طبقة مترفة تبنى القصور المزخرفة بالنقش العربى وطبقة محرومة تعيش فى أكواخ الصفيح على أطراف المدينة أو تتسول فى الطرقات فى وسط المدينة ، بل لابد من رد فضـول أموال الاغنياء الى الفقراء . والفضول هو ما زاد على القوت والمسكن والمشرب والملبس . ففى القرآن « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وفى المال حق غير الزكاة . كما أن المعاملات فى المجتمع لا تقوم على الغش فمن غشنا فليس منا أو الرشوة فقد لعن الله المرتشين بل يقوم الاسلام على قضاء حاجات النـاس .

الجوانب الاقتصادية والاجتماعية اذن مكملة للجوانب السياسية. فاذا كانت الشورى قد ذكرت مرتين فالحكم ٩١ مرة ، والمال ٨٦ مرة ، والفقراء ١٢ مرة . والشورى بوجه خاص فى الاسلام وكما يعرفها الفقهاء « عقد وبيعة واختيار » .

فالامام ليس ظل الله على الارض ، أو خليفة لله أو حاكمـا باسمه بل انه يحكم باسم المسلمين ويستمد سلطته منهم . وهو سلطة تنفيذية خالصة وليس سلطة تشريعية أو قضـائية ، فالتشريع من القرآن والقضاء منه . ويقوم بالبيعة أهل الحل والعقد وهم أهـل الاختصاص العالمون بالشرع (القرآن والسنة) وبمصالح المسلمين . فالامامة قضية مصلحية ترتبط بقضاء الحاجات . ليس أهل الحـل

والعقد رجال الدين والمشايخ « فقهاء السلطان » الذين يبررون له قراراته ويزينون له أفعاله بل الذين يراعون وجه الله ويدافعون عن مصالح المسلمين .

وهناك رقابة على الشورى من السلطتين التنفيذية والتشريعية . فوظيفة الحكومة الاسلامية هى « الحسبة » أى الرقابة على الدولة وعلى مصالح الناس وتطبيق الشريعة . وظيفة القضاء تحكيم الشرع ، وبالرغم من أن قاضى القضاة معين من الامام الا أن الامام لا يستطيع عزله ، بل ان قاضى القضاة بامكانه عزل الامام اذا تهاون فى تطبيق الشرع أو صالح الاعداء أو ساومهم واستسلم لهم . امام المسلمين هو فرد بينهم ، قدوة لهم ، آخر من يأكل ، وآخر من يشرب ، وآخر من يلبس ، وآخر من يسكن .

طاعة الحاكم مشروطة بطاعته لله . لقد استقر فى وجداننا القومى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » أى تراث السلطة. أكثر مما استقر ، لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وان أعظم شهادة قول حق فى وجه امام جائر ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، وهو تراث المعارضة . وفى خطبة أبى بكر نبراس للحكم « أيها الناس انى وليت عليكم ، ولست بخيركم، فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

(ز) كبوة الاصلاح :

● مهمتى هى اقالة الكبوة ووضع أسس لنهضة ثابتة ودائمة ومستمرة •

● ياليت للمفكرين قدرات الانبياء فى التأصيل النظرى والممارسة العملية • ومع ذلك فالعلماء ورثة الانبياء •

● أتيت الى المغرب طائعا وأتركه مكرها •

● سيظل عقلى باستمرار مرتبطا بالطالب المغربى ، وقلبى مع المثقف المغربى ، وروحى بالمغرب •

أنوال : الاستاذ حسن ، باعتباركم تلقيتم فى الاصل دراساتكم العليا فى أوربا (فرنسا) وعلى أبرز مفكريها فى الخمسينات •• كيف ترون الى موقعكم فيها والى موقفكم منها ، خصوصا وقد أخذتم عن

أنوال الثقافى ، العدد ١٢١ ، السنة الخامسة ١٩٨٤/٦/١٦ ، وقد صدرت الجريدة المقابلة التى اجراها عبد الصمد بلكبير بالفقرة الآتية :

الاستاذ حسن حنفى ، المفكر الاسلامى المجدد ، المهتم بقضايا تجديد التراث العربى — الاسلامى وتأصيل فكرنا المعاصر ... يغادر هذه السنة جامعة محمد بن عبد الله (بفاس) ... ويودع المغرب ... مكرها .

جوابا على أسئلة « أنوال » يتحدث عن حياته ... مصر ... التاريخ ... تيارات التجديد الفكرى فى العالم الاسلامى ... النظرية والممارسة ... التراث ... وغن ...

مستشرقين من جهة وعن فلاسفة ، فتعتبرون أنفسكم ويعتبركم الكثيرون مفكرا اسلاميا مجددا وربما يعتبركم آخرون مفكرا غربيا فى آخر التحليل ؟

حسن حنفى : تلقيت دراستى أولا فى القاهرة ، فى قلب العالم العربى والاسلامى ، ومن خلال أزقتها وبين فقرائها نشأت أفكارى الاولى • ولدت بجوار سور صلاح الدين ، فى القاهرة المعزية ، بجوار جامع الحاكم بأمر الله ، ليس بعيدا عن حى الازهر والحسين • ووعيت أولا الحرب الاوربية الثانية اذ أننى من مواليد ١٣ فبراير ١٩٣٥ وتمنيت هزيمة الانجليز الذين استعمرونا • وبعدها وعيت قضية فلسطين ، وتطوعت فى ١٩٤٨ لتحريرها فرفضتنى الاحزاب والجمعيات لصغر السن وهنا وعيت قضية الوحدة والتجزئة • وشاركنا ونحن فى الثانوية فى ١٩٥١ فى حرب العصابات ضد الانجليز فى القناة وسرنا فى موكب الشهداء • وساهمت فى الفورة الوطنية فى أواخر الاربعينات مع طلبة الجامعة • وفى ربيع ١٩٥٢ دخلت الاخوان المسلمين فى الوقت الذى اندلعت فيه الثورة فى الصيف • وعشت بوجدانى الاسلام والثورة • وعشت مأساة ١٩٥٤ فى الجامعة ، والصراع بين الاخوان ومنهم نجيب ضد رجال الثورة ومنهم عبد الناصر ، وعشت أسوأ فترات حياتى الجامعية ، وشاركت فى نقد معاهدة الجلاء التى كانت تعطى الحق لبريطانيا للعودة الى القناة فى حالة الحرب ، لم أصب فى مظاهرة قصر النيل ولكننى بعدها اشتعلت عواطفى الثورية بعد تأميم القناة فى ١٩٥٦ عندما تحول عبد الناصر الى بطل قومى • وفى سنوات الجامعة ١٩٥٢ — ١٩٥٦ وعيت نفسى مفكرا ومجددا ومصلحا من

خلال الصراع بين الاخوان والثورة وضياع قضايا العصر من أجل الصراع على السلطة فى حين أنه لا خلاف بين الاسلام والثورة من حيث حلولهما لهـا • وفى باريس وعيت الفكر المنهجى من خلال تتلمذى على الفلاسفة أكثر من المستشرقين فتعلمت على جان جيتون Jean Guitton الذى كان بدوره مفكراً كاثوليكيا مجددا ومع ذلك يعارض التجديد الجذرى المسيحى مثل رينان ولوازى ، وكان أقرب الى نيومان وبسكال وأوغسطين • تعلمت منه مناهج الفكر والتجديد وتاريخ الفلسفة وهو الذى قدمنا للمؤتمر المسكونى الواحد والعشرين فى الدورة الرابعة • كما تعلمت من ريكير الظاهريات • ووجدت فى هوسرل تحليل الوعى وان كنت أشعر أنه بحاجة الى اكمال وانتقال من الوعى الفردى الى الوعى الاجتماعى ، من الانسان الى التاريخ ، ومن الداخل الى الخارج • ماسنيون هو الذى وجهنى الى علم الاصول ، أصول الفقه ، لما قرأ مشروعى الاول الذى أعددته للحصول على دكتوراه الدولة وعمرى آنذاك واحد وعشرون عاما بعنوان « المنهاج الاسلامى العـام » فاستصغر سنى وقلة خبرتى ، وأشفق على من المجازفة التى لا يدخل فيها الا شيخ جاوز السبعين ، وحذرنى من « التأويل » الشيعى عند كوربان لانه غير مض ' ، باطنى • تكون وعيى الاول فى قلب العالم الاسلامى ، وتشكل فى قلب عالم الغربى وهذه سنة القدماء • عندما كان المتكلم يتكون فى حضارته أولا ثم ينفتح على الآخر ثانيا • مضمونه من هويته ، وشكله من الآخر الذى كان اليونان فى ذلك الوقت • أنا أعيد الكرة من جديد ، وأستأنف الحضارة الاسلامية فى دورة ثانية ،

هذه المرة مع الغرب وليس مع اليونان . وربما يظل الحكم القديم قائما ، نحن أتباع الغرب كما كان على ابن رشد سابقا ، تابعا لارسطو أو شارحا له . هذه عملية طبيعية ، قدرة على الحوار مع الآخـر ، التعرف عليه وتمثله واستيعابه من أجل الرد عليه ، والاسلام أوسع المنظرات وأشملها ، والآخر جزء منها . لذلك جمع الفارابى أفلاطون الالهى وأرسطو طاليس الحكيم كما أجمع أنا بين هيجل وماركس ، بين المثالية والواقعية ، بين ديكارت وهوسرل ، بين العقلانية والتجريبية . والذى يرانى مفكرا غربيا مازال يعتبر الغرب مركز الحضارات والاطار المرجعى الوحيد لكل ما سواه من فكر واجتهاد . والسؤال المضاد هو الى متى سيظل الغرب مركز الدائرة ونحن المحيط ؟ وقد ينشأ هـذا الالتباس فى ذهن المتحير بين كونى مفكرا اسلاميا مجددا أو مفكرا غربيا ناقلا من الموقف الحضارى الذى يعيشه المفكر فى جيلنا . فهو يعيش فى موقف حضارى ذى جبهات ثلاثة :

(أ) الموقف من التراث القديم .

(ب) الموقف من التراث الغربى .

(جـ) الموقف من الواقع .

فالموقف الاول هو الذى يجعلنى أبدو مفكرا اسلاميا مجددا ، والثانى يجعلنى مفكـرا غربيا ، والثالث يجعلنى مفكرا اجتماعيـا سياسيا . والحقيقة أنه موقف واحد ابتداء من الواقع ومن قضايا العصر ، والتراث أحد مكوناته سواء كان القديم منه فى أعماق الجماهير

أو الغربى منه فى أذهان النخبة ، أنا مفكر واحد أعمل فى جبهات ثلاثة مفتوحة على ، وهى مهمة عدة أجيال منذ فجر النهضة العربية الاسلامية الحديثة ولم تنته بعد .

أنوال : منذ القرن ١٩ وخصوصا خلال القرن ٢٠ شهد العالم الاسلامى تيارات تجديد عديدة متنوعة بل ومتضاربة أحيانا ومتصارعة. ما هو فى تقديركم موقفكم منها ؟ وما هو تقويمكم النقدى — التاريخى والدينى أيضا لها ؟

حسن حنفى : بالفعل ، ظهرت ثلاثة تيارات رئيسية منذ القرن الماضى فى فكرنا الحديث تبدو مختلفة فى الظاهر ، وهى فى حقيقة الامر متشابهة من حيث الموقف الحضاري العام مع مجرد تباين فى حدة النبرة أو خفتها . ظهر التيار الاصلاحى ابتداء من رواده الاوائل مثل الافغانى ، والتيار الليبرالي الوطنى عند الطهطاوى ، والتيار العلمى العلمانى عند شبلى شميل . يركز الاول على اصلاح القديم ، واعادة بناء التراث ولكن ثقله يبدو فى تحريك الجماهير واندلاع الثورات الوطنية ، وقد يكون ما نتمتع به الآن من دول مستقلة بعد حركات التحرر الوطنى أحد آثار هذا التيار وتحقيقا لاحد جوانب مشروعه فى القضاء على الاستعمار وان لم تتحقق بعد باقى جوانبه مثل الوحدة . ويركز الثانى على الدولة الوطنية المستقلة وأساليب العمران من زراعة وصناعة وتعليم ، يأخذ من الآخر ما يحتاجه الواقع ويعيد تأصيله من داخل التراث القديم باعتباره ثقافة وطنية للجماهير . وقد تحقق البعض منه مثل الدولة الحديثة وان لم يتحقق البعض

الآخر مثل التنوير ومقاومة التخلف والدفاع عن حقوق الانسان كمواطن حر . أما الثالث فانه يدعو الى العلم والعلمانية كأحد سبل التقدم والنهوض أسوة بالغرب ، ولا يحتاج الى تأصيلها فى التراث القديم لانها جزء من التراث الانسانى العالمى . تحقق البعض منه مثل الانفتاح على الغرب ولكن لم يتحقق البعض الآخر مثل العلم والعلمانية أو انقلبا الى ضدهما فى الخرافة والكهنوت . ومع ذلك يغلب على هذه التيارات الثلاثة موقف واحد وهو تبنى الليبرالية الغربية والانبهار بالغرب مما سبب بعد ذلك ظاهرة « التغريب » .

ولكن الذى يحز فى النفس هو أكثر من هذا ، ما أسميه « كبوة الاصلاح » . فقد تعاقب على كل تيار أربعة أجيال : جيل الرواد ، وجيل التلاميذ ، ثم تلاميذ التلاميذ ونحن الجيل الرابع وبداية الجيل الخامس . لقد بدأ الرواد بتحديد مشروعهم القومى طبقا لظروف عصرهم ومستوى ثقافتهم ودرجة وعيهم بقضايا العصر . ولكن ما أن يأتى الجيل الثانى حتى يخبو المشروع ولا يحدث فيه تراكم تاريخى ، ورصيد خبرات تجعله يتطور طبقا للظروف الجديدة وزيادة الوعى وعمق الثقافة . ثم يأتى الجيل الثالث فيخبو المشروع أكثر فأكثر ويبهت ويتجاوزه الواقع ، ويصبح مجرد تاريخ . فاذا ما أتى الجيل الرابع فانه اما أن يتلاشى أو يتحول الى مشروع مضاد فينقلب على عقبيه . أعنى بكبوة الاصلاح أو النهضة هو عدم حدوث تراكم تاريخى كاف يجعل النهضة تتغير كيفا ونوعا ، عمقا واتساعا ؛ وان الصاروخ الذى يطلقه الرواد سرعان ما يهبط من جديد لدى الجيل الرابع قبل أن يخترق حجب الفضاء . مداه قصير ثم تبدأ من جديد تقريبا عند كل جيل ،

من الصفر ، وتصبح نهضاتنا وكبواتنا حلقات متصلة متداخلة ومتطابقة فى المركز والمحيط ، كل منها يعود على بدء • مهمتى هى اقالة الكبوة ووضع أسس لنهضة ثابتة ودائمة ومستمرة لا تتحول بعد عدة أجيال الى ثورة مضادة • مهمتى ضبط الموقف الحضارى الذى منه نشأت هذه التيارات الثلاثة •

١ — اعادة بناء التراث القديم دون الوقوف منه موقف الدفاع كما هو الحال فى التيار الاصلاحى أو موقف الهجوم كما هو الحال فى التيار العلمى العلمانى أو موقف الانتقاء كما هو الحال فى التيار الليبرالى الوطنى • الموقف النقدى من التراث هو الذى يعيد تأسيس الاصلاح ، عقلانية فى التوحيد والعدل ، فى العقليات والسمعيات •

٢ — تحجيم الغرب ، ورده الى حدوده الطبيعية حتى تنتهى المركزية الاوربية ، وينتهى نقل المعرفة من الاستاذ الى التلميذ ، وبالتالى تبدأ الشعوب اللاأوربية ابداعاتها الذاتية ويعاد كتابة تاريخ الحضارة الانسانية ومساهمة كل حضارة فيها بنوع من العدل والمساواة فينتهى مركب العظمة عند الآخر ومركب النقص عند الانا ، وكأنها دورات تاريخية متعاقبة بين الاستاذ والتلميذ على مستوى الحضارات • ومن يدرى فلربما كنا قادرين على أن نكون خالقين كما كنا فى الماضى ، ونبدأ دورة ثانية لحضارتنا نقوم فيها بدور الاستاذ والآخر بدور التلميذ ، تشاركنا فى ذلك الشعوب التاريخية أو شعوب الشرق ، من الصين والهند ويبدأ تاريخ الشرق من جديد •

أنوال : أنتم عالم أكاديمى يشتغل بالكتاب والحوار المتخصص

والفكر المجرد وأنتم فى نفس الوقت مصلح دينى واجتماعى متمرس بالصراع اليومى أحيانا . كيف توفقون بين الوجهتين ؟ بين الانشغال بالنظر وعلومه وأيضا بالعمل ومقتضياته وشروطه ؟

حسن حنفى : الحقيقة أن ذلك تقليد من القدماء وسنة فى تاريخنا . فلم يكن الاصولى الفقيه عالما أكاديميا ينظر ويبحث لتأسيس نظرية لا مكان لها ولا زمان بل كان يبحث فى سلوك الافراد والجماعات ويحاول التعرف على عللها والعوامل المتحكمة فيها حتى يمكن ترشيده وتحقيق أكبر قدر ممكن من النفع ورفع أكبر قدر ممكن من المضرة . وفى نفس الوقت كان يباشر ذلك بنفسه كشاهد على العصر يتصدى للحكام والسلاطين فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، والفقهاء الاصوليون هم حراس المدينة وحماة الشرع . وكثيرا ما انتهى الكثير منهم الى السجن والتعذيب والطرد والحرمان . والنظريات المجردة تبدو كذلك ولكنها فى حقيقة الامر تعبير عن عصر وتوجيه له بما فى ذلك العلوم النظرية الخالصة بل ويمكن أن أغالى وأقول بما فى ذلك الرياضيات البحتة . فمادام العقل انسانى ويعيش صاحبه فى عصر فان الموقف الانسانى يفرض نفسه بنفسه . هكذا كان الوحى فى تطوره من عصر الى عصر ، وتلك قوة الفكر وخصوبته . اذا كانت المثالية تعويضا عن مآسى الناس وابقاءا لهم فى الاغتراب فانها تكون خدعة أما اذا كانت توجيها لحياتهم ودفعهم نحو تحقيق الطوباوية المرغوب فيها ، فانها تكون واقعية أكثر من الواقعية الساذجة التى تتحدث عن الاشياء والوقائع لاثباتها وليس لتفسيرها . ومع ذلك ، وحرصا على عدم التنازل عن التحليل العلمى الرصين والمسؤولية الاجتماعية العامة

فاننى أكتب على مستويين • الاول تحليل علمى خالص حتى يبقى العمل فى تاريخ الفكر ومكون للحضـــارة وذلك مثل رسائلى الثلاثة بالفرنسية فى الستينات « منهج التأويل » ، « تأويل الظاهريات » ، « ظاهريات التأويل » • وأيضا مثل « التراث والتجديد » و « من العقيدة الى الثورة » الذى سيصدر هذا الصيف • والثانى وصف للتجـــارب الفردية والاجتماعية بأسلوب يفهمه الجميع دون الوقوع فى الخطابة أو الجدل • فاذا كان الاول للخاصة فان الثانى للعامة دون أن يكون فى هذه القسمة أى قدح للطرفين • وفى نفس الوقت أشهد على العصر ولا أرفض محاضرة عامة أو ندوة أو حوارا أو حديثا أو توقيع بيان • وأحيانا لا أرفض الاشتراك فى مظاهرة شعبية فى صحن الازهر من أجل المسجد الاقصى والقدس وأن تكون أفعالى مصداقا لاقوالى هو خير حجة لاقناع الناس بصدق ما أقول على الملأ وأمام الناس ، فى الجامعة وفى الطريق العام • ولكن مع التقدم فى العمر ، وكبر السن ، وثقل الحركة فاننى أحيانا أغلب البحث العلمى الاكاديمى أى النوع الاول ، وهو الابقى كما بقى « منطق » هيجل و « رأس المال » لماركس • وأترك الشهادة على العصر لغيرى خاصة وقد قمت بالكثير منها فى الستينات بعد هزيمة يونيو ، وفى السبعينات بعد الثورة المضـــادة فى مصر • ولما رأيت مخاطر ذلك على العمل الاكاديمى وتأخر مشروع « التراث والتجديد » آثرت اعطاء ما تبقى لى من عمر لانجازه • الاحداث سريعة ومتلاحقة ومؤلمة ، والشهادة اليومية عليها تكون أشبه بالصراخ والعويل ، انما أعيها وأعمقها لمرحلة قادمة يكون فيها التأصيل النظرى هو سبيل الخلاص • ياليت للمفكرين قدرات الانبيـــاء فى التأصيل النظرى والممارسة العملية ومع ذلك فالعلماء ورثة الانبياء •

أنوال : من أبرز مظاهر الفكر والممارسة السياسيين فى النظام العالمى المعاصر وبالاخص فى العالمين المسيحى (أمريكا اللاتينية) والاسلامى بروز حركات سياسية تستمد نظرياتها عن الدولة والمجتمع من التراث وبالاخص من الدين مؤولا تأويلا خاصا وملائما بحسب كل قائد دينى وكل فرقة دينية . كما ان من خصائصها عموما الميل الى العنف ورفض كل الشرعيات السائدة فى المجتمع المحلى الوطنى أو الدولى ، وكذا على مستوى المجتمع أو الدولة ، مع نوع من التعصب ترفض معه عقد الضرورى من التحالفات مع الليبراليين أو الماركسيين مثلا . ما هو فى تقديركم المعنى التاريخى الاجتماعى الثقافى لهـذا الانبعاث الدينى فى عصرنا ؟ وما هو تقويمكم لهذا التداخل الذى يحدثه بين الروحيات كمجال للدين والماديات كمجال السياسة ؟

حسن حنفى : صحيح أن الانبعاث الدينى ظاهرة عامة ليس فقط فى العالم الاسلامى بل أيضا فى العالم المسيحى وربما أيضا فى المجتمعات اليهودية . ومع ذلك فكل انبعاث له خصوصيته ، وأسبابه وأشكاله . الانبعاث المسيحى فى الغرب ربما يكون رد فعل على أزمـة العصر الحديث ، وسيادة الآلة ، وسيطرة الصناعة ، وتوجيه الحاسـبات الآلية لكل مظاهر الحياة ، وضياع القيم والولاء لمثل أعلى ، وانتشار الجريمة والانتحار ، أى باختصار فشل المشروع الغربى ، أكبر قدر ممكن من الانتاج لاكبر قدر ممكن من السعادة . حدثت أزمة الطاقة ، وسيطرت الشعوب على مواردها الاولية وأسواقها وعملاتها . لجأ الناس الى ما رفضه الغرب وهو القيم الدينية القديمة فهى أفضل من انتاج الغرب فى عصوره الحديثة من عقلانية وتنوير وعلم وصناعة وتكنولوجيا . وزاد ذلك حربان أوربيتان طاحنتان وضياع المثاليـة

الاوربية على صخرة العنصرية الدفينة فى حضارة الرجل الابيض ، وجدوا فى الدين ما يحرمهم من النسبية والتشكك واللاارادية والتردد والتذبذب والضياع ٠

لكن الامر مختلف عندنا فى المجتمعات الاسلامية ولدى شعوب أمريكا اللاتينية ، ففى أمريكا اللاتينية ظهر « لاهوت الثورة » أو « لاهوت التحرر » على يد الرهبان الشبان مثل توريز ، جواتيريز ، كامارا وغيرهم من أجل حل التناقض وملء الفراغ بين دور الكنيسة المحافظ والمتعاون مع الاقطاع والرأسمالية الامريكية وبين الماركسية المعارضة التى لا تعتنقها الا النخبة ٠ يقوم اللاهوت الثورى اذن باعطاء الجماهير الكاثوليكية أيديولوجية ثورية مستحدثة من ثقافتها الوطنية وهى المسيحية وفى نفس الوقت يتم تأويلها طبقا لقضايا والاقطاع والقهر العسكرى والسياسى والاقطاع الزراعى والرأسمالية الصناعية ٠ ولا يقول اللاهوت الثورى كله بالعنف والكفاح المسلح ٠ فان كان توريز ينادى بذلك ، وقام به بالفعل فان كامارا يدعو الى ذلك بالسلم والدعوة بالكلمة ٠ والعنف فى حقيقة الامر هو عنف مضاد أى انه رد على العنف القهرى بالعنف الثورى ٠

أما بالنسبة لنا فقد نشأ الانبعاث الاسلامى كقانون تاريخى ٠ فنحن الآن فى دورتنا الثانية بعد أن اكتملت الدورة الاولى فى القرون السبعة الاولى التى أرخ لها ابن خلدون ٠ ثم تلتها قرون سبعة تابعة لتدوين نتاج الدورة الاولى فى عصر الشروح والملخصات والموسوعات الكبيرة ٠ ومنذ قرنين تقريبا نحاول أن نبدأ دورة ثانية للحضارة

الاسلامية . ولكن لما كبا الاصلاح من الافغانى الى محمد عبده الى رشيد رضا الى حسن البنا ، وفى كل مرة يفقد شيئا من حرارته الاولى . وقد حاول حسن البنا اكمال مشروع الافغانى بتجنيد الجماهير مما جعل الاخوان أقوى جماعة اسلامية منظمة شهدتها مجتمعاتنا الحالية . ولكن بعد الصراع على السلطة بين الاخوان والثورة فى مصر فى ١٩٥٤ وفى كل مكان الآن فى سوريا والعراق والجزائر وتونس وضع الاخوان فى السجون تحت أهوال التعذيب لمدة عشرات السنين ، واستشهد من زعمائهم ومفكريهم عبد القادر عودة وسيد قطب ، نشأ جيل جديد من الاخوان من داخل السجون يعبرون عن « معالم فى الطريق » لقلب نظام العالم من الاسود الى الأبيض ، من الجاهلية الى الاسلام ، من الكفر الى الايمان ، ومن الطاغوت الى الحرية ، من حكم البشر الى حكم الله . هذا الانبعاث الغاضب الثائر الواقعى بطبيعة الحال يغلب عليه التعصب وضيق الافق ويرفض الحوار مع كل أيديولوجيات التحديث العلمانية ، ومع ذلك فهو يمثل رد فعل على فشل هذه الايديولوجيات فى حياتنا الحاضرة ، فقد ازددنا احتلالا وقهرا وتخلفا وفقرا وتجزئة وتخريبا وسلبية . ونظرا لان هذه الجماعات الاسلامية الحديثة لن يسمح لها بحق التعبير الحر عن نفسها ، وليس لها جرائدها أو مجلاتها أو نشراتها أو كتبها ومازالت مهمشة فى المجتمع ملفوظة منه فانها بطبيعة الحال اتجهت للعمل السرى تحت الارض وتنفجر بين الحين والآخر ايجابا أو سلبا . الحل اذن هو اعطاء الجميع حق التعبير فى اطار الوحدة الوطنية حتى يتم الحوار المطلوب بين الاحرار وليس بين الجلاد والسجناء . هنا يظهر التسامح ويتسع الافق ويظهر الانبعاث الاسلامى جامعا بين الهوية والحداثة ، بين التراث والتجديد ،

وقادرا على أن يحقق للجماهير مطلبيها ، الابقاء على هويتها وتراثها ودينها ثم تلبية حاجات عصرها وتحقيق أمانيها القومية .

أنوال : يبدو أن الاشكالية المركزية لفكركم هى ما يلخصه عنوان مشروعكم الاخير والذى صدرت منه حتى الآن مقدمته « التراث والتجديد » . من أين يستمد مشروعكم مشروعيته سواء من الناحية الدينية أو العلمية أو التاريخية ؟ وأين وصلتم منه انجازا حتى الآن ؟ وما هى آفاق مشاريعكم واهتماماتكم ؟

حسن حنفى : مشروع التراث والتجديد هى محاولة جيلنا الحالى منذ فجر النهضة العربية الاسلامية حتى الآن حل قضية الاصالة والمعاصرة ، من أجل الجمع بين القديم والجديد ، واحداث التغيير من خلال التواصل حتى لا تقطع مع الماضى بدعوى الحداثة كما كان الحال فى تركيا وبولندا . وانتهى الامر الى انقسام تركيا بين حركة اسلامية محافظة تدعو الى المحافظة على القديم كرد فعل على الانقطاع عنه وحركة يسارية علمانية ترفض الحداثة الغربية والتبعية الامريكية، كما انتهى الامر فى بولندا الى ظهور الليبرالية كتطور طبيعى للتراث الدينى (الكاثوليكية) بدلا من الانقطاع عنها ثم تركيب غطاء سطحى فوقها من الماركسية الغربية العلمانية . « التراث والتجديد » اذن يهدف الى المساهمة فى حركة التغير الاجتماعى واعطائها دفعة جديدة حرصا عليها من الكبوة والردة والثورة المضادة . فلا يتغير شىء فى الواقع الا اذا تغير فى الذهن أولا . وما أسهل تحقيق أكبر قدر ممكن من الانجازات الثورية مثل الاصلاح الزراعى والتصنيع والتأميم ومجانية التعليم دون تغيير مماثل فى نسق القيم القديمة وفى القوالب والتصورات

الذهنية والابنية والدوافع النفسية . فبمجرد اختفاء السلطة الثورية وظهور سلطة مضادة تنقلب الانجازات رأسا على عقب وتسود المحافظة التقليدية ويتم استغلالها أبشع استغلال للمحافظة على الوضع القائم واعطاء شرعية للثورة المضادة . يبقى «التراث والتجديد» اذن البداية بالبداية أى بالذهن والقيمة والاتجاه النفسى والموقف من العالم . المفكرون الاحرار قبل الضباط الاحرار ، هكذا كان الحال فى الثــورة الفرنسية والروسية والامريكية . وربما من بعض أسباب تعثر الثورة الاسلامية فى ايران هو أنها أتت فى لحظة من المحافظة الدينية التقليدية، قبل تثوير الذهن والتراث . وسهل أن يتم ذلك . فالتراث تراثان ، تراث سلطة وهو الذى اعتمدت عليه الدولة لتدعيم سلطتها ، وتراث المعارضة الذى ضربت حوله الدولة مؤامرة صمت وشوهته فى كتابات مؤرخى السلطان .

مهمتنا ابراز تراث المعارضة وبالتالى تنتفى تهمــة الالحاد أو الافكار المستوردة التى تلقى على كل مصلح ومغير اجتماعى . كما ينتزع سلاح الدين من أيدى السلطة والاستعمار ويصــبح الدين لصــالح الشعب وليس ضده ، وبالتالى تتحقق مصــالح الشريعة الضرورية التى لاجلها وضعت الشريعة ابتداء ، المحافظة على النفس والدين والعقل والعرض والمال . لا أحد يريد أن يبقى فى المحافظة التقليدية الا القليل ، ولا أحد يبغى الماركسية أو الليبرالية أو القومية أو الاشتراكية العلمانية الا القليل . ولكن الجميع يبغى الاسلام العصرى المستنير القادر على الابقاء على هوية الجماهير والدفاع عن مصالحها .

ويتكون المشروع من أقسام ثلاثة :

(أ) موقفنا من التراث القديم ، وهى الجبهة الاولى المفروضة

علينا من أجل تحديد علاقة سليمة وصحية بالقديم • ويتلخص ذلك فى اعادة بناء العلوم القديمة طبقا لمتطلبات العصر ، واعادة الاختيار بين البدائل ، سواء كان ذلك فى العلوم النقلية العقلية مثل علم أصول الدين وعلم أصول الفقه وعلوم الحكمة وعلوم التصوف أو فى العلوم النقلية الخالصة مثل علوم القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه أو فى العلوم العقلية والطبيعية الخاصة مثل الرياضة (الحساب ، والهندسة ، والجبر ، والموسيقى ، والفلك) وعلوم الكيمياء والطب والصيدلة والحيوان أو فى العلوم الانسانية مثل اللغة والادب والجغرافيا والتاريخ •

(ب) موقفنا من التراث الغربى من أجل تحديد علاقة سليمة وصحيحة بالغرب ، رده الى حدوده الطبيعية وتحجيمه حتى تتخلص الحضارات اللاأوربية من آثاره ونقل المعارف منه الى الابداع الذاتى • ويتضمن ذلك اعادة كتابة تاريخ الحضارة الغربية فى خمسة أجزاء ، عصر اباء الكنيسة ، والعصر الوسيط ، وعصر الاصلاح والنهضة ، وعصر العقلانية والتنوير ثم عصر العلم والتكنولوجيا •

(جـ) موقفنا من الواقع أو نظرية التفسير من أجل اعادة تفسير الوحى طبقا لقضايا العصر • ويتضمن ذلك ثلاثة أجزاء ، الاول عن العهد القديم ، والثانى عن العهد الجديد ، والثالث عن القرآن الكريم ، « المنهاج » كتفسير موضوعى للقرآن ابتداء من الانسان والمجتمع والتاريخ • لم يتم انجاز المشروع الا فى مقدمته الاولى « التراث والتجديد » والجزء الاول بناء علم أصول الدين • وكما ترى المشروع كبير والعمر قصير ولكن ما العمل ؟

أنوال : وأنتم فى المغرب منذ سنتين ، وقبلها خلال زيارات علمية ثقافية ما الذى أثار ويثير انتباهكم فيه ويستدعى ملاحظاتكم التثمينية

أو النقدية وأيضا اقتراحاتكم وتوجيهاتكم ، كل ذلك طبعا على الصعيد الثقافى العام ؟

حسن حنفى : المغرب بالنسبة لى وطنى • لقد عشت منذ سنتين صراعا بين المال بلا علم فى الخليج وبين العلم دون مال فى المغرب ، واخترت المغرب • زيارتى الاولى فى ابريل ١٩٧٩ بدعوة من الجمعية الفلسفية المغربية عن « التقاليد والتحرر » وفى فاس خاصة أحسست بروح الطلاب وعقولهم ، ورأيت ان مكانى عندهم • ولكنى كنت فى مصر فى ذلك الوقت فى خضم الصراع ضد الثورة المضادة • ولما انتهت وسنحت الظروف أتيت الى المغرب طائعا وأتركه مكرها • بصرف النظر عن سهولة الحياة ، وجمال الطبيعة ، وصغر المدينة ، وحرية الانتقال تظل النقطة المضيئة بالنسبة لى هو الطالب المغربى • لم أشهد طالبا مثله فى العالم العربى أو الاسلامى أو الغربى • فهو شعلة من الحماس والذكاء ، واسع الاطلاع ، شجاع ، مناضل ، يعرف روح الجماعة بالرغم من بعض التغريب فى ثقافته والاعجاب بالالفاظ المستحدثة سعيا وراء آخر ما ينتجه الحى اللاتينى من مواهب وتيارات • يقدر الاستاذ الذى مثله ويسعى اليه ويستمع منه ويحاور• ويأخذ موقفا منه ، معه أو عليه • وقد كان اختيارى للمغرب أساسا هو اختيار الطالب ، ورفضت من أجله كل الاغراءات والعروض حتى يتأثر بى وأتأثر به وأنشر رسالتى بينه وأحميه من العداء للتراث القديم ومن التغريب بالرغم من اعتراضاته المنهجية على التراث والتجديد التى أقدرها وأفهمها ولكن أرجو له مشروعا أفضل يقوم به الطالب فتتلاحق الاجيال وتتكامل • والطالب المغربى هو المثقف المغربى ومن ثم ستستمر النقطة المضيئة فى جماهير المثقفين فى المغرب فى اتحاد الكتاب والروابط والاندية والجمعيات الثقافية • وبالرغم

من عزلتهم أحيانا ودعوتهم الى بعض الخصوصية التى قد تقترب من الشوفينية والقطيعة الابستمولوجية الا أنهم منفتحون على المشرق ولا يكاد المشرق العربى ينتج شيئا الا وهم قارؤوه • الاعتزاز بالعربية وبالعروبة وبقضايا النضال المصيرى مثل تحرير فلسطين ، وقضايا التخلف والتقدم والتنمية ، وتعارفهم وتكاتفهم يجعل المثقفين المغاربة فى طليعة حركة التحرر العربى وموقعا متقدما فيها •

ومع ذلك فان الطالب مظلوم ، محاصر بين الفقر والقهر لا يرعاه أحد • لا يعى أمره أساتذته من مواطنيه الذين قد يناصب بعضهم العداء له وربما الحسد له والغيرة منه • ولا ترعاه الادارة التى تناصبه العداء وتعتبره خصما عنيدا • ولا ترعاه المؤسسة التعليمية والنظم العامة التى ترى أنها فى غنى عنه وأن أجهزة الامن له بالمرصاد •

هذا الحديث بمثابة وداع لشعب المغرب كنت أود التعبير عنه بصيغة أخرى وأنا أغادره الى مكان آخر كما كان الافغانى من قبل لا يستقر له مقام • لا يرضى عنه خديوى مصر ولا سلطان تركيا ولا قيصر روسيا ولا أمير من أمراء العرب • ولكن اذا غاب بجسده فان روحه ترى فى كل مكان وعلى أكتافه قامت كل حركاتنا الوطنية وحصلنا على استقلالنا • قد تعود الكرة وتنتشر أفكار التراث والتجديد حتى فى غيابى ولكن سيظل عقلى باستمرار مرتبطا بالطالب المغربى وقلبى مع المثقف المغربى وروحى بالمغرب • ولطالما كانت هذه صورة المغرب عند فلاسفة المشرق حكماء وصوفية فقد كتب السهروردى « الغربة المغربية » أو الغريبة وكتب ابن عربى « عنقاء مغرب » وها أنذا أكتب وداعا لشعب المغرب •

فهرس الموضوعات

اليمين واليسار فى الفكر الدينى

١ ـــ اليمين واليسار فى الفكر الدينى ٣

٢ ـــ هل يمكن اقامة نهضة على أسس أشعرية ؟ ٤١

٣ ـــ الدين والرأسمالية ٤٥

٤ ـــ ماذا تعنى أسباب النزول ؟ ٦٩

٥ ـــ مناهج التفسير ومصالح الامة ٧٧

٦ ـــ اختلاف فى التفسير أم اختلاف فى المصالح ؟ ١١٧

٧ ـــ المال فى القرآن (تحليل المضمون) ١٢١

٨ ـــ ماذا تعنى : أشهد ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ؟

٩ ـــ مقالات فى اليسار الدينى ١٦٣

أ ـــ محمد ، الشخص أم المبدأ ١٦٣

ب ـــ مصر بين الامان والطغيان ١٦٨

جـ ـــ الشورى فى الاسلام ١٧١

د ـــ الجهاد (تحليل لفظى من القرآن) ١٧٨

هـ ـــ الصــبر ١٨٤

و ـــ الحــب ١٨٦

ز ـــ الكراهيــة ١٩٠

ح ـــ الصلاة والنفاق ١٩٣

ط ـــ أحكــام الســوق ١٩٧

١٠ — معارك اليمين واليسار فى الفكر الدينى ٢٠٣

أ — عندما يزايد اليمين فى الوطنية والدين ٢٠٣

ب — لسنا ملحدين ••• ولا منافقين ٢١٠

ج — تشويه الماركسية من العقلية اليمينية فى الصحافة المصرية ٢١٥

د — تشويه الحقائق ، واتهام الزور ، فأين المصلحة ؟ ٢٢٦

هـ — المعارك الاخلاقية والصراع الاجتماعى ٢٣٢

و — افتراءات ضـــد اليسار ٢٣٧

ز — بريق اليســـار ٢٤١

ح — الشعارات الدينية ومضامينها السياسية ٢٤٥

ط — كلمة حق يراد بها باطل ٢٤٩

ى — الوثنية الجديدة ٢٥٣

ك — للمخطىء أجر ••• وللمصيب أجران ٢٥٧

ل — الاسلام والمعارضة ٢٦٢

م — ذهب المقصورة ••• وجوع الفقراء ٢٦٧

ن — هل تجوز الصلاة فى الدار المغصوبة ؟ ٢٧٠

١١ — أحاديث فى اليمين واليسار فى الفكر الدينى ٢٧٣

أ — من الاخوان المسلمين مع اليسار ••• ومن اليسار مع الدين ٢٧٣

ب ــ اليسار الاسلامى مشروع حضارى ٢٨٣

جـ ــ العلمانية والفكر الانقلابى وتحديات العصر ٢٩٨

د ــ المرأة العربية محرومة من حقوقها كمسلمة ٣١٤

هـ ــ الفراغ السياسى والثقافى للشباب ٣٢٣

و ــ الشورى عقيدة وممارسة ٣٢٤

ز ــ كبوة الاصلاح ٣٣٠

لنفس المؤلف

اولا ــ تحقيق وتقديم وتعليق :

١ ــ ابو الحسين البصرى : المعتمد فى اصول الفقه ، جزءان ، المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٦٣ ــ ١٩٦٥ .
٢ ــ الحكومة الاسلامية للامام الخمينى ، القاهرة ١٩٧٩ .
٣ ــ جهاد النفس أو الجهاد الاكبر للامام الخمينى ، القاهرة ١٩٨٠ .

ثانيا ــ اعداد واشراف ونشر :

١ ــ اليسار الاسلامى ، كتابات فى النهضة الاسلامية ، العدد الاول ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨١ .

ثالثا ــ ترجمة وتقديم وتعليق :

١ ــ نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لاوغسطين ، الايمان باحثا عن العقل لانسليم ، الوجود والماهية لتوما الاكوينى) ، الطبعة الاولى ، دار الكتب الجامعية ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٨ ، الطبعة الثالثة ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ .
٢ ــ **اسبينوزا** : رسالة فى اللاهوت والسياسة ، الطبعة الاولى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، الطبعة الثالثة ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ .
٣ ــ **لسنج** : تربية الجنس البشرى واعمال اخرى ، الطبعة الاولى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ .
٤ ــ **جان بول سارتر** : تعالى الانا موجود ، الطبعة الاولى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير بيروت ، ١٩٨٢ .

رابعا ــ مؤلفات بالعربية :

١ ــ قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ، الطبعة الاولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨١ ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٧ .
٢ ــ قضايا معاصرة ، الجزء الثانى ، فى الفكر الغربى المعاصر ، الطبعة الاولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٧ ، الطبعة

الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٢ ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٨ .

٣ — التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ، الطبعة الاولى المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨٠ ، الطبعة الثانية دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ ، الطبعة الثالثة ، الانجلو المصرية القاهرة ١٩٨٧ .

٤ — دراسات اسلامية ، الطبعـــة الاولى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨١ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٢ .

٥ — من العقيدة الى الثورة ، محاولة لاعادة بناء علم أصول الدين (خمسة مجلدات) الطبعة الاولى ، مدبولى ، القاهرة ١٩٨٨ .

٦ — دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ .

خامسا — مؤلفات بالفرنسية والانجليزية :

1 — Les Méthodes d'Exégèse essai sur la science des fondements de ta Compréhension, ilm usul al-Fiqh, Le Caire, 1965.

2 — L'exégèse de la phénoménologie, l'Etat actuel de la méthode phénoménologique, et son application au phénomène religieux (paris ,1965). Le Caire, 1980.

3 — La Phénoménologiqeu, de l'Exégèse essai d'une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris 1966), Le Caire, 198 8(sous-press).

4 — Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianity an dIslam, Anglo-Egyption Bookshop, Cairo, 1977.

5 — Dialogue Religieux et Révolution Vol. II, Anglo-Egyption Bookshop, Le Caire 1988 (sous-press).

6 — Religion, Ideology and Development, Anglo-Egyption Bookshop, Cairo, 1989 (In print).

tdus

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٩ / ٥٤٨٥

٥ — ١٣٤ — ١٣٣ — ٩٧٧

دار النمر للطباعة

الدين والثورة
في مصر
١٩٥٢ - ١٩٨١

١ - الدين والثقافة الوطنية

٢- الدين والتحرر الثقافي

٣- الدين والنضال الوطني

٤- الدين والتنمية القومية

٥- الحركات الدينية المعاصرة

٦- الأصولية الإسلامية

٧- اليمين واليسار في الفكر الديني

٨- اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة ت : ٧٥٦٤٢١

طبع الغلاف بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢